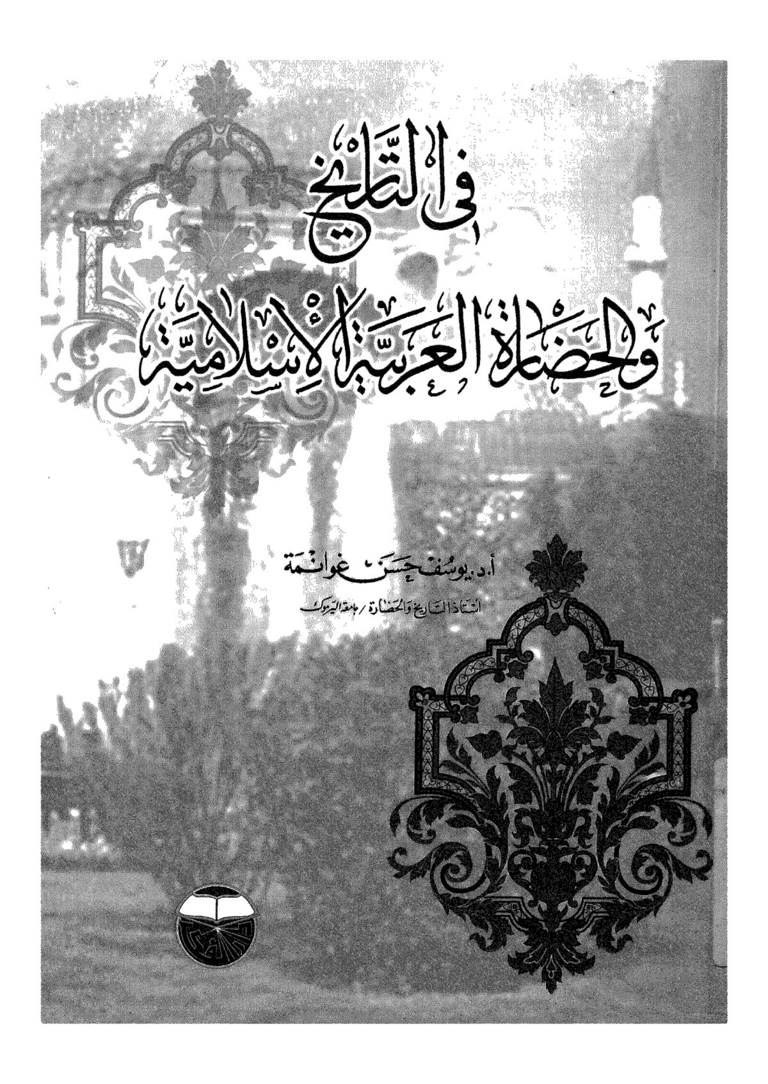

في التاريخ
والحضارة العربية الإسلامية
أ.د. يوسف حسن غوانمة
أستاذ التاريخ والحضارة / جامعة اليرموك





في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية

رقم التصنيف : 956.066
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2000/7/2175
المؤلف ومن هو في حكم : يوسف حسن غوانمة
عنوان الكتاب : في التاريخ والحضارة العربية الاسلامية
الموضوع الرئيسي : 1- التاريخ/ الحضارة العربية الاسلامية
بيانات النشر : عمان - دار الفكر
* - تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى
1421هـ - 2000م



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
سوق البتراء (الحجيري) - هاتف ٤٦٢١٩٣٨
فاكس ٤٦٥٤٧٦١ ص.ب ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

Hussein Mosque
Tel. : 4621938 Fax: 4654761
P.OBox: 183520 - Amman - 11118 Jordan

ISBN 9957-07-168-8 (ردمك)

في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية

تأليف

الأستاذ الدكتور يوسف حسن غوانمة

أستاذ التاريخ والحضارة

جامعة اليرموك

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

الإهـــداء

إلى ابني الغالي (هشام)

وإلى زوجته الفاضلة (مَلَكْ)

وإلى ابنتهما الجميلة الحبيبة (ياسمين)

أهدي هذا الكتاب

المقدمة

كان أملاً رافقني منذ مرحلة دراستي الثانوية بأن أتمم تحصيلي الجامعي، ولكني لم أخطط لاصبح مؤرخاً. فبعد أن أنهيت الثانوية العامة، تقدمت بطلب كأقراني آنذاك إلى جامعة دمشق فقبلت في كلية طب الأسنان، ولكن ظروفاً حالت دون سفري لدمشق. ثم تقدمت بطلب آخر فقبلت في كلية الحقوق ودرست السنة الأولى، ومع ذلك لم أتمكن من السفر لتقديم الامتحان النهائي. وقدمت طلباً ثالثاً لكلية الآداب فقبلت في قسم التاريخ، ودرست ومع ذلك لم أتمكن من السفر لتقديم الامتحانات أو حتى مجرد لقاء الأساتذة، علماً بأن الكتب أحضرها لي زملائي. وهٰكذا ضاعت عليَّ ثلاث فرص لم يكن لي سبب في ذلك، ولكن الجهات الأمنية عاقبتني، فقبعت في عمليّ معلماً متنقلاً في عدة مدارس من مدرسة الشيخ حسين، إلى مدرسة الخربية، ثم مدرسة سحم، ومدرسة صخرة، وأخيراً مدرسة ارحابا. حتى أن مدير التعليم في اربد رفض تعييني في مدرسة إعدادية أو ثانوية والسبب إنني كنت قائداً طلابياً. فقد كان صديقي وزميل طفولتي الشهيد حقي خصاونة أول رئيس لمؤتمر طلاب الأردن، وكنت نائبه، وبعد استشهاده توليت قيادة هٰذا المؤتمر، وكان لنا نشاط مميز شمل كل الأنشطة الطلابية، وكانت له فروع في كل المدن الأردنية شرقي النهر وغربه، وكان هٰذا عملاً طلابياً منظماً وهو أول تنظيم طلابي في الأردن.

لا أدعي شيئاً مما أذكره هنا، فقد كنت دوماً قيادياً وعصامياً، فقد قدت مظاهرة وأنا في الصف السادس الابتدائي، وألقيت خطبة من إنشائي، ما زال بعض الرفاق يتذكرون بعض كلماتها. وقد طوردت بعد هٰذه الخطبة واختفيت واختبأت في بيت أحد الزملاء لمدة أسبوع حتى هدأت الأمور، ثم عدت إلى المدرسة. ثم اعتقلت مع غيري من أهالي شمال اربد، فالقوا القبض علينا في بلدة سحم وربطونا بأيدينا صفاً واحداً، ثم راحوا

يضربوننا على وجوهنا يميناً وشمالاً أمام أهالي البلدة. ثم نقلونا إلى بلدة سمر، وعندما كنا نركب في سيارة الشحن العسكرية، كان مدير الناحية يبصق في وجه كل واحد منا. وفي سمر أنزلونا ثم خلعنا من أرجلنا وضربونا على أرجلنا بعصا دون رحمة، وكم تألمت عندما ضربني ذاك الضابط على رجلي، وحملت حذائي، وأدخلت مع زملائي إلى طاحون الدقيق وكان المكان ضيقاً وقد امتلأت ملابسنا ووجوهنا بالدقيق المنتشر على الجدران وعلى الأرض. وأخيراً نقلونا إلى معتقل في المفرق، كان به أعداد كبيرة من أنحاء مختلفة من البلاد. ووضعنا في إحدى المعسكرات، وأخيراً أطلقوا سراح بعضنا وبقينا نحن حوالي عشرة أشخاص في المعتقل وتحت حراسة مشددة. وبعد أيام نقلنا إلى سجن اربد وهناك وضعنا في غرفة تمهيداً لتقديمنا للمحاكمة. كان ذلك في أحداث حلف بغداد الذي وقف به الشعب الأردني بكل الحزم والقوة والنبل والوطنية الصادقة والمشاعر القومية المتأججة ضد هٰذا الحلف حتى أسقطته الجماهير العربية في كل أنحاء الوطن العربي. أما نحن فقد اتهمنا بكل ما نتج عن هٰذه المظاهرات الجماهيرية من نتائج. واتهمنا بالتخطيط والتدبير لها. وأرسلنا إلى محكمة اربد وصار المدعي العام يحقق معنا بوجود أحد ضباط الجيش، وكان هٰذا الضابط من أهالي قرية قرب اربد وكم تلقينا منه شتائم كانت هابطة كلها، وكنا شباباً صغاراً لم ننبس ببنت شفه، ولكن الملفت للنظر أن الجنود في المعتقل وفي سجن اربد كانوا متعاطفين معنا، وهذه هي أصالة شعبنا. وعندما كنا نسير من سجن اربد وبأيدينا القيود في طريقنا الى المحكمة، كان المواطنون يلاقوننا بالهتاف والتصفيق لقد كانت الوطنية والمشاعر القومية جياشة في مواطنينا بكل فئاتهم. وأخيراً قرر جلالة الملك الحسين بن طلال تعريب قيادة الجيش، فطرد كلوب وبقية الضباط الإنجليز، ثم أصدر عفواً عاماً عن جميع المساجين والمعتقلين السياسيين وكنا منهم. وكم كانت دهشتي عندما ذهبت إلى بلدتي سحم، فوجدت جماهير شعبنا تستقبلني بالحب والرعاية والصدق، فأقيمت الأهازيج والأغاني الشعبية والوطنية. وهٰكذا فإن حب هٰذا الشعب ظل دفيناً في نفسي وفؤادي، وحب هٰذه الأرض

يجري في عروقي ودمي، وهٰذا ما جعلني عندما قررت إتمام دراستي العليا أن أتخصص في تاريخ الأردن. فبحثت ونقبت وكتبت صفحات ناصعة لإنجازات هٰذا الشعب العظيم، كان هدفي أن أبرز إنجازات هذا الوطن وهذا الشعب الذي هو جزء من الشعب العربي، وتاريخه جزء من تاريخ الأمة العربية. وأن أثبت للقاصي والداني أن هٰذه الأرض كانت منذ ٢٠٠ ألف سنة قبل الميلاد ذات نشاط سكاني وظل هٰذا النشاط مستمراً حتى الوقت الحاضر. فالأردن أرض بشعب كبير معطاء قدم وما زال للحضارة العربية الإسلامية وللإنسانية الشيء الكثير، وما هٰذه الآثار الباقية فيه جنوباً وشمالاً وبادية إلا مثال وبرهان ساطع لهٰذه الإنجازات الحضارية الرائعة التي اصبحت مفخرة لنا ولأمتنا العربية. وما عملي هٰذا إلا عمل وطني محلي، فالتاريخ المحلي هو جزء من التاريخ الوطني والقومي للأمة. ويحضرني قول لأحد المؤرخين المسلمين حيث يقول: «عيب على المرء أن يعرف تاريخ غيره ولا يعرف تاريخ بلده». اذن فحري بنا أن نعرف تاريخ بلدنا أولاً ونتعرف على الأجداد والآباء الذين عاشوا وقضوا على هٰذه الأرض الطيبة المباركة. وهٰذا ما فعلته فأنا أول من كتب في تاريخ الأردن في العصر الإسلامي وهٰذا إنجاز أفخر به دوماً.

لقد هوجمت من زملاء كثر لأني كتبت في تاريخ الأردن، ونعتوني بالإقليميه والعنصرية، علماً بأن فكري هو فكر قومي منذ نعومة أظفاري. وما زلت أؤمن بالأمة العربية ووحدتها وحريتها واستقلالها، ولست مع القطرية والتشرذم بأي شكل من الأشكال. وإن كتاباتي المتعددة لتعبر خير تعبير عن هٰذه الأفكار التي ما تغيرت ولن تتغير حتى آخر يوم من عمري. ومع ذلك فقد كان تخصصي حاجزاً يقف أمام تسلمي أي منصب قيادي في جامعة اليرموك. ومع إنني قدمت الكثير لهٰذه الجامعة وقبلها للأردن وتاريخه، فلقد كان المسؤولون يختلقون الأعذار والأسباب لإقصائي عن بعض ما كنت أصبو إليه وأطمح، والطموح شيء مشروع لكل فرد. فجائزة البحث العلمي أبعدت عنها

بشكل تعسفي مع إنني قدمت الكثير من الإنتاج العلمي، وهي جائزة معنوية أحببت أن أحصل عليها، حتى جاء أحد الرؤساء فألغاها كي لا أحصل عليها، لأنه لم يبق عذر في عدم منحي إياها. ثم سعيت إلى الترقية فحصلت على درجة الأستاذية في ثمان سنوات أي الحد الأدنى، ومع ذلك أخرّ ترقيتي رئيس الجامعة سبعة شهور ظلماً وتعسفاً. ولم يكتف بذٰلك بل عين عميداً برتبة أستاذ مشارك لكلية الآداب، وكنت إذ ذاك نائباً للعميد برتبة الأستاذية، فاستقلت من منصبي وهذا تصرف أكاديمي كان يجب أن أقوم به، وأعطيت مثالاً لزملائي باحترام الرتب الأكاديمية.

ثم قام الرئيس نفسه كترضية لي بأن كلفني بتأسيس كلية التربية والفنون، بعد أن فصل أقسامها من كلية الآداب، وهٰكذا كنت أول عميد برتبة الأستاذية في جامعة اليرموك. فأسست هٰذه الكلية التي غطت أنشطتها معظم الأردن، ودخلنا في منافسة للتأهيل في اليمن، وحصلنا عليه لتأهيل المعلمين هناك. وكنت قبلها قد سعيت وعملت بكل الجهد المستطاع لإنشاء قسم للتاريخ، حيث كانت مواد التاريخ تدرس كمتطلبات اختيارية للجامعة من ضمن مساقات دائرة العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهٰكذا أسست قسم التاريخ وكنت أول رئيس لهٰذا القسم.

ولم يقتصر نشاطي في داخل الجامعة فقط بل شمل المجتمع المحلي، فقمت وبعض الزملاء بتأسيس أول منتدى ثقافي في الأردن، هو المنتدى الثقافي/ اربد، وذلك عام ١٩٨٢م. وما زلت منذ ذلك الوقت رئيساً لهٰذا المنتدى، الذي يعتبر نافذة ثقافية وحضارية على المجتمع المحلي في اربد بل كان قدوة اقتدت به مناطق الأردن، فأسست عشرات المنتديات والملتقيات الثقافية في أنحاء مختلفة من المدن والبلدات الأردنية، وهٰذه مفخرة نعتز بها دوماً لأن نكون قدوة طيبة معطاءة لغيرنا. وأنا الذي إخترت موقع (شعلة اليرموك) في (المقْرَبَة) من أراضي بلدة سحم، لتكون منطلقاً لاحتفالات الجامعة السنوية، وتكرس في اذهان المواطنين والطلاب صوراً من تاريخهم الماجد العظيم.

أما بالنسبة للجامعة فقد عملت على تأسيس كرسي للمسكوكات هو كرسي سمير شما للمسكوكات، فقد التقيت بهٰذا الرجل الكريم المحب للعلم والعلماء في إحدى المؤتمرات العلمية، وأقنعته بإنشاء هٰذا الكرسي في قسم التاريخ وهٰذا ما كان رغم محاولة أحد الزملاء وضعه في معهد الآثار. ولكن رئيس الجامعة آنذاك الأستاذ الدكتور عدنان بدران أعطى قسم التاريخ حقه، فأخذ برغبتي وأصبح هٰذا الكرسي في قسم التاريخ وقد قدم صاحب الكرسي الأستاذ سمير شما مبالغ كبيرة لجامعة اليرموك وللجامعات الأردنية الأخرى. وهٰذه ميزة خاصة لهٰذا الرجل الفاضل الذي يمتلك مجموعة من المسكوكات الإسلامية لا تقدر بثمن، وكنت قد أخذت وعداً منه بأن يهديها لجامعة اليرموك. ولكن ظروفاً حالت دون تحقيق رغبتي هٰذه فابتعدت عن الكرسي وتم نقله أخيراً لمعهد الآثار وقد أسست مجلة اليرموك للمسكوكات وهي أول مجلة تُعنى بالمسكوكات الاسلامية، وقد ترأست هيئة تحريرها مدة ثلاث سنوات وعممت هذه المجلة على كل الجامعات والمراكز المهتمة بالمسكوكات الاسلامية في العالم، وقد مَـوَّلَ الكرسي نشر هذه المجلة. وقبل سنة تقريباً اقترحت على دولة الأستاذ زيد الرفاعي بإنشاء كرسي لوالده المرحوم دولة الأستاذ سمير الرفاعي لدراسة تاريخ الأردن الحديث والمعاصر وكان ذلك في ندوة عن سمير الرفاعي في عمان وفي ندوة «رواد من الأردن» أقيمت برعايته في اربد، على أن يكون هٰذا الكرسي في قسم التاريخ. ولم يقصر دولته فأبدى استعداده لتحقيق ذلك، وكنت أطمح بالمشاركة في وضع تعليمات هٰذا الكرسي، لأنني أنا الذي وضعت تعليمات كرسي سمير شما. ولكن لم تتح لي الفرصة. ثم بدلاً من وضع هٰذا الكرسي في قسم التاريخ، قرر الرئيس أن يكون في مركز الدراسات الأردنية. فكان ردي أنني أعمل في مؤسسة أحبها وأنتمي بصدق إليها وكل الأقسام والكليات والمراكز تخدم الجامعة، فما دام هٰذا العمل به مصلحة للجامعة فلا مانع من أن يكون في المركز أو في أي موقع آخر. وهٰكذا أسس الكرسي وكنت أول أستاذ لكرسي سمير الرفاعي لدراسة تاريخ الأردن الحديث والمعاصر. وقد عملت على أن يكون أول نشاط له هو ندوة علمية بعنوان (في ذكرى الراحل الكبير)، وهي أول ندوة علمية أكاديمية تعقد في الأردن في ذكرى الملك الذي أحببناه وعاصرناه وعشنا معه في هٰذا الوطن الذي أحببناه كحبنا له. فقد سعى المرحوم طيلة ما يقارب النصف قرن في بنا

الأردن الحديث واهتم بإنسانه، فبنى وطور ووضع أسس نهضة علمية وثقافية وصناعية وتجارية وعمرانية عملاقة. سنذكره ونتذكر سعيه الحثيث بأن يكون الأردن القدوة في الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وهٰذا ما نتمتع به الآن. وها هو جلالة الملك عبد الله الثاني يسير على نهجه بخطى ثابتة قوية لأنه تخرج من مدرسة الحسين، ويحيط به ويرعاه شعب وفيّ صادق أمين.

كتبت هٰذه المقدمة بنهج مغاير لما قدمته من مقدمات لكتب سابقة لي، لأني أشعر بأني جندي بذل الكثير وبذر بذرة طيبة صالحة في طلابه وطالباته الذين بلغوا عشرات الآلاف. وكم يسعدني عندما أرى هٰؤلاء الشباب والشابات في مواقع متقدمة يخدمون بلدهم بكل التفاني والإخلاص، وهٰذا ما اعتز به دوماً، وهي الذخيرة التي ستبقى خالدة معطاءة في هٰذا الوطن الغالي.

وهنا أريد أن أقول بأن الرؤساء الذين تولوا رئاسة هذه الجامعة، تجاوزوني، وكانوا دوماً يضعون أسساً مختلفة في أشغال بعض المناصب المتقدمة في الجامعة كل حسب أهوائه. علماً بأن الجامعة مؤسسة وطنية ملك للوطن والشعب وليست ملكاً لشخص الرئيس. ولكن الواقع أن الرئيس هو كل شيء ولا أحد يسائله بل الكل يلهث للتقرب إليه، وهٰذا خطأ فهمه الرؤساء من قانون الجامعات لأنه أعطى كل شيء للرئيس. إذ قصد المشرع أن يكون الرئيس للجميع، عادلاً بين الجميع يعطي كل ذي حق حقه، وأن يكرس التقاليد الأكاديمية في الجامعة، ولكن العمل جاء عكس ذلك. اعتز بانتمائي للجهاز الأكاديمي، وافخر بإنجازي العلمي الذي ظل مستمراً منذ أن تخرجت من الجامعة حتى الآن بشكل متواصل، وهٰذا نادر بين الأكاديميين.

أقدم هٰذا الكتاب الثالث والعشرين الذي أنشره على مدى اثنتين وعشرين سنة من عملي الجامعي، وهو عبارة عن أبحاث ودراسات في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية وقد حاولت دوماً في معظم دراساتي أن تكون هٰذه الدراسات جديدة وجادة. فالموضوع

الأول والثاني والثالث كانت عن معارك الفتح العربي الإسلامي في منطقة جنوب الأردن وعن التمهيد لمعركة مؤتة، أما الرابع فهو عن سياسة الاعتدال والتسامح التي كانت بين المسلمين والفرنج في فلسطين والساحل الشامي، وكيف حيّدو التجارة لأن الطرفين كانا بأمسّ الحاجة إليها. أما البحث الخامس فهو عن الإدارة في فلسطين في العصر المملوكي، وقد قدمت فيه معلومات وافية جيدة عن الإدارة والوظائف الإدارية في هٰذا الجزء الغالي من وطننا العربي، وكيف أولاه المماليك أهمية خاصة وذلك بأن جعلوا فيه ثلاث نيابات هي: نيابة القدس، ونيابه صفد، ونيابة غزة، بسبب الأطماع الأوروبية التي ما فتئت تهدد فلسطين والوصول إلى القدس واحتلالها. أما البحث السادس فهو عن التجارة في مدينة دمشق في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس العشر الميلادي)، وهٰذه المعلومات تنشر لأول مرة لأنها مأخوذة من مصدر هام ما زال مخطوطاً لمؤرخ كبير هو ابن حجي الحسباني، أصله من مدينة حسبان القريبة من عمان، وقد جاء ابن حجي بمعلومات هامة عن تجارة دمشق لأنه ابن هٰذه المدينة وأحد علمائها الكبار. وقد عالجت في البحث السابع أوضاع مصر والشام في عصر دولة المماليك كما شاهدها ابن خلدون الذي عاش في مصر ما يقارب الربع قرن، وقد اطلع ابن خلدون على أحوال هٰذه الدولة وكتب عن أحوالها في تاريخه، مركزاً على الأحوال السيئة والفساد والمؤامرات التي كانت تحدث بين الأمراء. وعن علاقات المماليك مع تيمورلنك عند استيلائه على دمشق والموقف المتخاذل الذي قام به المماليك، وكذلك عن أحوال القضاء والمؤسسة العسكرية المملوكية، وهي معلومات لشاهد عيان شاهدها أو شارك فيها بنفسه. أما البحثان الثامن والتاسع فقد بحثا في أيلة (العقبة) في شمال البحر الأحمر، وعدن في جنوب الجزيرة العربية، وعن تجارة الشرق الأقصى في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وعن الصراع الذي نشب بين المماليك والبرتغاليين بعد ذلك. والأساطيل الأوروبية التي بدأت تغزو سواحل الجزيرة العربية ومحاولتهم السيطرة على تجارة الشرق الأقصى وبداية الاستعمار الأوروبي، وأطماعهم في المقدسات الإسلامية في الحجاز.

ولا شك أن هٰذه الأعمال سواء البرتغالية ومن ثم الهولندية والإنجليزية، إنما هي تتمة للحروب الصليبية التي كانت في سواحل الشام ومصر وفلسطين بشكل خاص. أما البحث العاشر والأخير فقد تناولت فيه بلاد عُمان كما ذكرها الجغرافيون العرب، مبيناً أحوال المجتمع العُماني، وتجارة عُمان النشطة في العصر الإسلامي.

أرجو أن أكون قد وفقت في إيضاح بعض الجوانب الهامة من تاريخنا الوسيط، فعطاء أمتنا وقدراتها غير محدودة على مر العصور. لقد قدمت امتنا العربية للإنسانية الشيء الكثير، علوما وإبداعات واختراعات في شتى صنوف العلم والمعرفة. وكان العرب عادلون دوماً حتى أنهم سمحوا للعناصر الإسلامية من شعوب متعددة التغلغل في كل أجهزة الدولة فتسلموا الحكم والجيش والإدارة. ولكن تلك العناصر لم تعط العرب حقهم، فأقصوا العناصر العربية عن الحكم والعسكرية، فابن خلدون يقول: لقد انتهى الحكم العربي بدخول طغرلبك مدينة بغداد وعاد العرب إلى الحجاز وكأنهم لا شيء. لقد حكمنا ولكن بعدل ومساواة بين جميع المسلمين لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

أقدم هٰذه الدراسات لعل فيها ما يفيد، رائدي هو خدمة بلدي ووطني وأجيالنا الصاعدة في عصر العولمة والثورة المعلوماتية، فعلى هٰؤلاء أن يعوا تاريخهم ويعرفوه جيداً حتى يتحققوا من أنفسهم ويفهموها، عندئذ تكون لديهم القدرة على التخطيط لمستقبلهم الذي نرجو أن يكن مشرقاً عظيماً مساهماً في الحضارة الإنسانية، مشاركاً في علوم العصر وتقدمه ديموقراطياً، حافظاً لحقوق الإنسان وحريته في التعددية السياسية والحزبية -والله من وراء القصد-.

أ.د. يوسف حسن غوانمة

١٧/٢/٢٠٠٠م

الموضوع الأول

انطلاقة الفتوحات الإسلامية وخط سيرها



إنطلاقة الفتوحات الإسلامية وخط سيرها

١- أحوال الدولتين العظميين (بيزنطة وفارس) في القرن ٦م:

شهد العالم منذ القرن الرابع الميلادي قبائل تتدفق من أواسط آسيا على العالم المتحضر فتغير معالمه، وهٰذه القبائل كانت تمثل هجرات متلاحقة من بلاد ضاقت بهم، بسبب شظف العيش والفقر فاتجهوا إلى بلدان أكثر خصوبة ونماء يطلبون العيش فيها والاستقرار[(١)]. وتشبه هٰذه الهجرات الموجات السامية التي خرجت من جنوب الجزيرة العربية باتجاه الهلال الخصيب والشام والشمال الأفريقي، بفارق واضح، هو أن الشعوب السامية، كانت تحمل معها الرقي والحضارة إلى البلدان الأخرى، بينما كان هٰؤلاء البرابرة يحملون معهم الدمار لمدنيات متقدمة[(٢)]. وكانت هجرات البرابرة هٰذه في دورين اثنين:

١- هجرات البرابرة المعروفين بالجرمان، كالقوط والسكسون، والوندال، الذين استقروا في أنحاء مختلفة في أوروبا، بعد أن سببوا كثيراً من الدمار والخراب للأمبراطورية الرومانية، واستولوا على بعض المناطق الأوروبية مؤسسين ملكاً جديداً لهم فيها[(٣)].

٢- هجرات البرابرة المعروفين بالهون، وهم أقل مدنية من الجرمان، وأكثر شجاعة وأشد قسوة. وقد اتجه الهون في اتجاهين الأول نحو أوروبا والثاني في آسيا نفسها[(٤)]. فقد غزا الهون بخارى سنة ٤٥٠م، وغزوا الهند فقضوا على امبراطورية عويطا Cupta في سنة ٥٠٠م، ثم هاجموا الساسانيين في فارس مراراً، فمزقوا بلادهم ونشروا الفوضى في ربوعها[(٥)].

---

(١) فشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، والباز العريني، دار المعارف، مصر ط٥، ١٩٦٩م، (١/٣٢).

(٢) فشر، المرجع السابق، ص٣٢.

(٣) فشر، المرجع السابق، (١/٢٢-٢٥، ٣١، ٣٤، ٣٦).

(٤) فشر، المرجع نفسه، ص٣٢، ٣٣.

(٥) فشر، المرجع نفسه، ص٣١.

عمر فروخ، العرب والإسلام، المكتبة التجارية، بيروت، ط٢، ١٩٦٦م ص٢٤. =

وعندما هاجم الهون فارس تصدى لهم ملكها كسرى ابرويز الأول (٤٥٧ - ٤٨٤م)، ولكنه فشل في صدهم، فقتلوه واسروا أسرته ودمروا بلاده. وحاول أخوه بالش (٤٨٤ - ٤٨٨م) صدهم، ولكنهم سملوا عينيه وخلعوه عن العرش، وولوا مكانه قباذ الأول (٤٨٨ - ٥٣١م) ابن ابرويز وحاول الفرس خلع قباذ سنة ٤٩٩م، إلا أن الهون أعادوا إليه عرشه، ودعموا موقفه، ونتيجة لهٰذه الأحوال السيئة التي مرت بها فارس، توقفت عن حرب البيزنطيين.

ولكن الحرب ما فتئت أن نشبت عنيفه بين الفرس وبيزنطة، وتمكن الساسانيون في عهد الملك قباذ سنة ٥٠٢م من اجتياح الأمبراطورية البيزنطية وانتزعوا منهم بلاد آمد[(١)]، وظلت الحرب سجالاً بين الطرفين بين سنتي ٥٢٧-٥٣١م ومع أنها كانت حرباً دامية إلا أنها لم تكن حاسمة، ولم يتمكن أحد الطرفين من إحراز نصر حاسم على خصمه[(٢)].

ثم اعتلى العرش في فارس بعد قباذ الملك أنو شروان وهو كسرى الأول (٥٣١-٥٧٩م)، وكان معاصراً للأمبراطور جستنيان امبراطور بيزنطة (٥٢٧-٥٦٥م). ونشبت الحرب بينهما مدة طويلة استمرت من سنة ٥٤٠م إلى ٥٦٢م[(٣)]، وإن تخللتها فترات سلم عقد فيها الجانبان صلحاً مؤقتا[(٤)]، تمكن الفرس خلالها من اجتياح سوريا والاستيلاء على أنطاكية ونهبها[(٥)]، وبدت الدولة عاجزة أمام هجمات الفرس من الشرق،

بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، وبينها وبين جيحون يومان، وكانت قاعدة ملك السامانية، وهي مدينة قديمة نزهة كثيرة البساتين (ياقوت، ج١، ص٣٥٣).

(١) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً، وهي بلد قديم حصين على نهر دجلة، وفيها بساتين ونهر، يحيط بها السور (ياقوت، ج١، ص٥٦).

(٢) جوزيف نسيم، تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٨٤م، ص٨٢.

(٣) فشر، المرجع السابق، (٤٨/١).

(٤) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٨٢.

(٥) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٨٢.

والحروب الطاحنة مع الهون الذين كادوا الاستيلاء على القسطنطينية نفسها[١]. وعلى الرغم من محاولات جستنيان انقاذ الدولة، بحل المشكلات التي كانت تعترض امبراطوريته، إلا أن خططه تلك لم تجد نفعاً، فبدأت الامبراطورية تجنح إلى الانحلال جنوحاً مضطرداً وكان سبب ذلك يرجع إلى عوامل طبيعية كالطاعون الذي ضرب الأمبراطورية وأفنى ثلث السكان سنة ٥٤٢م، بالإضافة إلى الانحلال وتفشي الإختلاس في الدولة، فلم يصل إلى خزانة الدولة إلا النزر اليسير، بالإضافة إلى الملل والوهن الذي أصاب جستنيان نفسه في آخر عهده. كل هٰذه العوامل مجتمعة بالإضافة إلى حروبه على الجبهة الأوروبية والآسيوية أدت إلى إضمحلال القوة البيزنطية[٢].

ثم لا بد من التنويه ما كان للصراع المذهبي من أثر على الدولة والبلاد، ذلك الصراع الذي استشرى في الدولة البيزنطية. فقد اختلف المسيحيون في الشرق والغرب حول الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح؛ وهل للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان؟

وهل كانت مريم أماً للمسيح من حيث طبيعته البشرية، أم أنها أم للمسيح من حيث طبيعته البشرية والإلهية معاً؟. وقد ثار الجدل عنيفاً في العالم المسيحي في القرن الخامس الميلادي، حول مسألة الطبيعة الواحدة، والطبيعة المزدوجة في السيد المسيح عليه السلام وظلت هٰذه المسألة الجدلية قائمة حتى بعد وفاة زعيمي المذهبين: كيرلس الاسكندري، ونسطورس القسطنطيني. ونالت اهتمام المجامع الكنيسية الأربع الذي كان آخرها مجمع خلقدونية عام ٤٥١م، حيث قرر ذلك المجمع وبتأييد من بابا روما والأمبراطور عقيدة الطبيعة المزدوجة. ولكن أهل الشرق كانوا من أتباع الطبيعة الواحدة المذهب (المونوفيسي) وهم أهل القسطنطينية ومصر والشام والعراق فاعتبر مذهبهم بدعة

---

(١) فشر، المرجع السابق، (١/ ٥٣).
جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٨٤.
(٢) فشر، المرجع السابق، (١/ ٥٤).
جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٨٣، ٨٤.

وهرطقة[١]، فأعلنوا عندئذ معارضتهم لهذا القرار. وكان على أباطرة القسطنطينية مسايرة هٰؤلاء، وإن كنا نجد أن بعضهم كان متعصباً لمذهب خلقدونية (مذهب الطبيعة المزدوجة)، ومنهم جستنيان وبدأ يمارس ضغطاً صارماً، وقمعاً لاتباع مذهب الطبيعة الواحدة. ولكنه أرغم في نهاية الأمر إلى التسامح ومنحهم قدراً من الحرية رغم معارضة البابا في روما لهٰذا الاتجاه[٢]. ومع ذلك فإن الخلافات والاضطهاد المذهبي في الشطر الشرقي من الامبراطورية البيزنطية، ظل يتسع حتى أدى في النهاية إلى ضعف الولاء للأمبراطورية لا سيما في مصر والشام، ومهدت الطريق للفتوحات العربية الإسلامية[٣].

ومن الملاحظ أن الصراع الذي نشب بين القوتين العظيمين فارس وبيزنطة، كان صراعاً دينياً وسياسياً تجارياً، يهدف إلى السيطرة عن طرق التجارة الدولية، والمناطق الاستراتيجية الهامة في الشام وجنوب الجزيرة العربية[٤]. ثم إن الحرب التي نشبت بين الأحباش والحميريين سنة ٥٢٥-٥٢٦م خلال حكم جستين الأول كان لها أثرها على التجارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وقد استغل الفرس هٰذه الأحداث فزادوا من نشاطهم وتجارتهم في المحيط الهندي[٥]. ولم تكن حرب الأحباش مع الحميريين قاصرة على ازدياد نفوذ الأحباش في الجنوب العربي وأمتداد أملاكهم عبر البحر وازدياد النفوذ المسيحي في تلك البلاد بل امتدت لتشمل الناحية الاقتصادية. فلقد أثرت الحرب في حركة ونشاط التجارة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي والشواطيء الافريقية،

---

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٦٤.
عمر فروخ، العرب والإسلام، ص٢٨.
(٢) فشر، المرجع السابق، (٥٧/١).
(٣) فشر، المرجع السابق، (٥٨/١).
جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٨٤.
(٤) يوسف غوانمة، ايلة (العقبة) والبحر الأحمر، دار هشام، اربد، ١٩٨٤م، ص٢٣.
(٥) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol -1, U.S.A. 1970, P. 371.

دت من نشاط تجار الفرس[١]. ولن ننسى محاولة البيزنطيين بسط نفوذهم السياسي
ـ بلاد العرب واليمن والحجاز عن طريق حلفائهم الأحباش، وذلك عندما قام ابرهة
حبشي بغزو مكة عام الفيل، ولكن جيشه أصيب بكارثة وفشلت اكسوم وبيزنطة من
قيق أهدافهما[٢]. إزاء ذلك كان لا بد من الصدام المسلح بين القوتين، بيزنطة
رس[٣]. فاجتاحت فارس بلاد الشام ومصر وسيطرت على اليمن[٤]، وبقيت فيها
ـ فجر الإسلام، فأنهى النبي ﷺ سيطرتهم عليها.

بدات الدولة البيزنطية تضعف بعد جستنيان نتيجة لظروفها الداخلية المتردية التي أشرنا
يها، مما دعا إلى ثورة القائد فوكاس Phocas ضد الامبراطور موريق Mourice الذي
ب إلى نيقوميديا، وطلب المساعدة من ابرويز كسرى فارس. ولكن فوكاس ذبح
ريق وابنه، واغتصب السلطة، وترتب على ذلك الكثير من الفتن والاضطرابات،
صبحت البلاد مسرحاً للفتن والثورات، واستمر ذلك طيلة حكمه الممتدة من
٦٠-٦١٠م. أما في الخارج فقد هاجم ابرويز كسرى الثالث الامبراطورية البيزنطية سنة
٦٠م، واجتاحت قواته ارمينية وسوريا وفلسطين، تقتل وتدمر كل ما تواجهه من
جمعات عمرانية وحضارية[٥].

إزاء ذلك قام القائد البيزنطي هرقل والي أفريقية فأعلن الثورة على فوكاس، ووجدت
رته التأييد من زعماء بيزنطة وقوادها، فطلبوا منه القدوم إلى القسطنطينية. ولكنه كان

---

١) Ibid, P. 371.

٢) ابن هشام، السيرة النبوية، (١/٤٩-٥٧)، تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه، دار الكنوز الأدبية بيروت (ب-ت).
Navayan, Oman and Gulf Security, 1979, p. 69.

٣) Haussiq, A History of Byzantine Civilization, P.62.

٤) ابن هشام. المصدر السابق، ص٥٩.

٥) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٩٣، ٩٨.
يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص٢٧.

طاعناً في السن، فأرسل ابنه الصغير هرقل بأسطول إلى القسطنطينية، فاستولى عليها بمساعدة من شعبها الغاضب على فوكاس. فأسلم هرقل فوكاس للشعب فقتلوه في ٥ تشرين اول ٦١٠م، وفي نفس اليوم توج الشاب هرقل امبراطورا لبيزنطة[١].

عانت الدولة البيزنطية الكثير في عهد هرقل، وكان الخطر الفارسي محدقاً بها، فتمكن كسرى الثالث من الاستيلاء على حمص سنة ٦١١م، وكان هٰذا حافزاً للفرس في التوسع على حساب الدولة البيزنطية وتقدمت جيوشهم في بلاد الشام فاحتلت كيليكية، وطرسوس، وأرمينية، وقيسارية ودمشق سنة ٦١٣م، واستمر فتح بلاد الشام مدة ست سنوات. وفي سنة ٦١٤م دقت جيوش الفرس أبواب بيت المقدس واستولوا على صليب الصلبوت، فنقله كسرى إلى بلاده[٢]. وقد اعتبر هٰذا ضربة موجعة وجهها كسرى الثالث إلى هرقل والعالم المسيحي، فعم الغضب الشعب البيزنطي الذين أصابهم الذعر واليأس وظنوا أن نجم الامبراطورية بدأ بالأفول بضياع خشبة الصليب المقدس[٣]. ثم واصل الفرس تقدمهم في بلاد بيزنطة، فوصلوا إلى خلقدونية سنة ٦١٥م على شاطيء بحر مرمرة، ولم يكتف كسرى بذلك، بل تقدمت قواته إلى مصر وافتتحتها في سنة ٦١٦م، ولم يجد الفرس مقاومة من المصريين، بل وجدوا منهم كل ترحيب[٤]، بسبب كرههم للحكم البيزنطي، وسوف نرى مثل هٰذا الترحيب عندما تجتاح القوات العربية الإسلامية مصر فيما بعد.

وقد كان للحافز الديني أثره في أن تتجمع القوى في بيزنطة وتدعو بقوة لمحاربة الفرس وايقافهم عند حدهم وإرجاع الصليب المقدس، ووجد هرقل في هٰذه الآونة شعباً

---

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٩٩.
(٢) جوزيف نسيم، المرجع نفسه، ص١٠٢.
عمر فروخ، العرب والإسلام، ص٢٦، ٢٧.
(٣) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص١٠٢.
(٤) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص١٠٣.

مستعداً للتضحية. إذ أن هٰذه الحرب مست عاطفته الدينية، فاستثارته وجعلته يلتف حول قائده هرقل، حتى أن الكنائس قدمت له كنوزها ونفائسها ليعد قواته ويزودها بالأسلحة والعتاد[١].

تقدمت قوات هرقل لحرب فارس وتمكنت هٰذه القوات من احراز نصر حقيقي وهزيمة نكراء للقائد الفارسي شهر بارز Shahrbarz، ثم تقدمت قواته إلى بلاد فارس نفسها. فلما شعر كسرى بخطورة الموقف استدعى قواته من مصر وسورية للدفاع عن ولاياته الفارسية. ولكن قوات هرقل بانتصاراتها السابقة، ارتفعت معنوياتها، فألحقت الهزيمة بقوات فارس في معركتين كبيرتين خسرهما كسرى، فالتجأ إلى عاصمته (المدائن)، فحاصرها هرقل، ثم رفع عنها الحصار بسبب الشتاء وعاد إلى ارمينية[٢].

وحاول كسرى بمساعدة من حلفائه الآفار محاصرة القسطنطينية ولكن هٰذا الحصار فشل، فعادت قوات فارس إلى بلادها لمواجهة تقدم القوات البيزنطية. وتمكن هرقل من الحاق الهزائم بهم في عقر دارهم، وأخيرا إستولى على عاصمتهم (المدائن)، وألقى القبض على كسرى وعلى ابنه الأكبر وكبار رجال دولته. ونتيجة لذلك ثار الفرس على الملك كسرى الثالث ابرويز، وتزعم هٰذه الحركة ابنه شيرويه، فقتل والده[٣]، وتقلد السلطة مكانه في شباط ٦٢٨م، وعقد الصلح مع هرقل. وقد أملى هرقل شروط الصلح التي يريدها على فارس، وعاد إلى بلاده ومعه خشبة صليب الصلبوت فأعاده باحتفال مهيب إلى القدس وهٰكذا انتهت الحروب الفارسية البيزنطية سنة ٦٢٨م.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٤.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٦.

(٣) العقاد، عبقرية خالد، المكتبة العصرية، بيروت ص١١٧.
يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص٢٨.

وما كادت فارس وبيزنطة تعقد هٰذا الصلح لتلتقط الأنفاس، فإذا بهما يواجهان معاً المد العربي الإسلامي القادم من الحجاز. ومن الملاحظ أن كسرى وهرقل كانا معاصرين للنبي ﷺ، فالأمبراطورية الفارسية بعد هزيمتها على يد هرقل، دب الخلاف والنزاع على العرش، وتولى السلطة عدة ملوك وملكات قتل بعضهم، حتى انتهى الأمر بأن يتولى الأمور في فارس يزدجرد ابن شهريار. فتولى السلطة والدولة في حالة من الإعياء والتفكك لا حد لها، فانتشر الفساد والإنحلال، وتحكم طبقة النبلاء بالبلاد، فتراجعت القوة الفارسية الاقتصادية والعسكرية وأصابها التفتت والتمزق، حتى أنها أصبحت عاجزة من الوقوف في وجه أول صدمة توجه إليها.

أما بيزنطة فقد استشرى الصراع المذهبي في الدولة، وأدى إلى تفككها وانحلالها، فضعف الولاء من القواد وعليّة القوم. أما العامة فتعرضوا إلى السفك والقتل والتشريد، بالإضافة إلى حروبها الطاحنة مع فارس، كل ذلك أدى إلى ضعف العسكرية البيزنطية، وأصبحت المراكز الكبرى في الجيش تعطى للمحاباة والصنيعة بعدما كانت تعطى لذوي الكفاءة والقدرة العسكرية. بالإضافة إلى أن الجيش البيزنطي لم يطور أسلوب تسليحه وتدريبه، فاعتمد الأسلحة الثقيلة والنظام الصارم والبطء في الحركة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن قبائل عربية عاشت في كنف الدولتين ببيزنطة وفارس، ففي الشام عاشت في كنف البيزنطيين قبائل غسان ولخم وكلب وتنوخ، وبلي، وبهراء، وجذام، والقين، بينما عاش المناذرة في كنف الدولة الفارسية على حدود العراق.

وقد كان للصراع الدامي بين الدولتين الكبيرتين والذي أدى إلى غلبة الفرس تارة وبيزنطة تارة أخرى على تلك البقاع أن أضعف الثقة بالدولتين، وهيأ النفوس لقبول دعوة جديدة، لا سيما تلك الدعوة القادمة من أبناء جنسهم في الجزيرة العربية، والتي بها سيفاخرون ملوك فارس وبيزنطة. بالإضافة إلى أن الأموال التي كانت تدفعها الدولتان لهذه القبائل العربية انقطعت، بسبب ضيق وسوء الأحوال الاقتصادية في الدولتين، فلم تجد تلك القبائل حرجاً في الانضمام إلى العرب المسلمين القادمين من الحجاز بدين جديد ودولة جديدة وأمة جديدة.

مكة والمدينة قبيل الفتوحات الإسلامية:

كانت السيادة في مكة قد استقرت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي في يد قبيلة قريش، وعلى يدها نالت مكة كل هٰذا التقدم والمكانة في الجزيرة العربية. ونشأت فيها حياة اقتصادية منظمة عمادها القوافل، لنقل التجارة بين الشرق والغرب، وشارك أهل مكة جميعاً في هٰذا التنظيم التجاري (الإيلاف)، الذي مثل إتجاها (أشبه بالتنظيم النقابي) في العلاقات السياسية والاقتصادية بين عرب الشمال، والقبائل العربية الأخرى الواقعة على طرق التجارة المكية، مما أدى إلى انطلاقة تجارة قريش العالمية في رحلتي الشتاء والصيف[١]. وحقق المكيون لانفسهم ثروات كبيرة نسبياً، كانت سبباً في خلق كيان اقتصادي لمكة، أضف إلى ذلك أن هٰذه الجماعة التجارية اتخذت لنفسها شكلاً سياسياً خاصاً، سماه بعض الباحثين (الجمهورية التجارية)[٢]، وآخرون يرون أن التسمية الأكثر دقة هي (حكومة الملا)، أي حكومة النظراء. فقد الغيت الرئاسة العامة في مكة وتوسع القوم في قاعدة الحكم، فانشئت من الوظائف الدينية والمدنية والحربية ما يكفي لأن يوكل إلى كل من البطون وظيفة، منها يشارك في حياة مكة ويأخذ بنصيب من حكومتها[٣].

وقد أتاحت الظروف الداخلية والخارجية لقريش أن تجمع في يدها التجارة الخارجية، وتقوم على تنظيم وإعداد القوافل التجارية بين الشمال والجنوب وأصبح القرشيون وسطاء التجارة الدولية، مستغلين فرصة التصارع الدولي بين القوتين العظميين من حولهم (بيزنطة وفارس). كما استغلت بذكاء المركز الأدبي والديني الذي حظيت به بين القبائل العربية حيث كانت قوافلها تسير بأمان بين هٰذه القبائل، لا يعتدي عليها أحد، بعد أن قام

---

(١) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧٦.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف، الدولة الإسلامية الأولى، دار العلم، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢.

(٣) أحمد إبراهيم، المرجع السابق، ص٤.
ابراهيم بيضون، المرجع السابق، ص٨٦، ٨٧.

القرشيون بربط هٰذه القبائل العربية الضاربة على جنبات طرق التجارة عن طريق المشاركة أو المحالفات والمعاهدات، وهٰكذا تميز القرشيون بالثروة إلى جانب الميزة الأدبية والدينية، مما ساعدها على أن تنال احتراماً عربياً ورئاسة عامة بين القبائل العربية، وهٰذا مما هيأها لأن تصبح أهلاً لنواة نهضة عربية شاملة.

وفي هٰذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ظهرت النهضة العربية ممثلة بالإسلام على يد أحد أبناء مكة ومن أشرافها محمد بن عبد الله ﷺ، وقد ظهر الإسلام في أمة فتية مقبلة على الحياة، تتطلع إلى غد ومستقبل أمثل.

ومن الملاحظ أن قريش قاومت الدين الجديد وأتباعه بعنف وشراسة، لأن فيه تقليص لسلطاتها وامتيازاتها في مكة، ولدى القبائل العربية الأخرى، ونتيجة لهٰذه العداوة، فكر المسلمون بالهجرة من مكة، واختاروا بادىء الأمر الحبشة[١]، وكان من أهداف هٰذا الاختيار لفت نظر قريش، إلى أن مضايقتها للمسلمين قد تضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية، وطلب العون منها وهي الحبشة. خصوصاً وإن الأحباش لهم أطماع في مكة والجزيرة العربية، وما زال بعض المكيين يذكرون غزوة ابرهة الحبشي لهم، ومحاولته السيطرة على مكة، المركز التجاري والروحي والاستراتيجي في الحجاز. ولقي المسلمون كل عناية وترحيب من النجاشي ملك الحبشة، رغم محاولة القرشيين افساد هٰذه العلاقة بإرسال سفارة للنجاشي، تحمل الهدايا، ولكها فشلت في تحقيق أهدافها[٢].

ثم تتطور الأحداث في مكة، ويجد الرسول من خارج مكة نفراً، تفهموا دينه ودخلوا فيه وأصبحوا من أتباعه المخلصين، وهم أهل يثرب[٣]. وبازدياد الاسلام بين الأوس

(١) عن الهجرة الأولى إلى الحبشة، انظر:
ابن هشام، السيرة، (١/ ٣٢١) وما بعدها.

(٢) وعن سفارة قريش إلى النجاشي، انظر:
ابن هشام، السيرة، (١/ ٣٣٢) وما بعدها.

(٣) ابن هشام، المصدر نفسه، ص٤٢٨، ٤٢٩ وما بعدها.

والخزرج، واستعدادهم لحمايته واتباعه، بعد أن اشتد أذى قريش له ولأتباعه، أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة[١]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧]. فهاجر أصحابه أولاً، ثم هاجر هو نفسه ودخل المدينة[٢]، وكان من نتيجة هجرته أن تكونت (الدولة الإسلامية الأولى في يثرب). وقد جعل النبي ﷺ الهجرة أساساً لنيل حق الرعوية لهٰذه الدولة، واستمر هٰذا إلى فتح مكة سنة ٨هـ، فانتهى وأصبحت الهجرة اختيارية[٣].

بدأ النبي ﷺ ينظم أمور دولته، ويدعو الناس للدخول في هٰذا الدين الجديد بصرف النظر عن قبائلهم وأجناسهم، وبهٰذا يبدأ الدور السياسي من الدعوة، وقد اتخذ النبي ﷺ فيه شخصية سياسية إلى جانب شخصيته الدينية[٤]، وكان نظام الدولة التي أقامها النبي في المدينة من نوع جديد، فهو يجمع بين الشورى والحكم المطلق، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨]، وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]. ومن هنا فإننا نرى أن هٰذه الدولة قامت على أسس ديمقراطية أصيلة، فلم تكن دولة ثيوقراطية يتحكم فيها رجال الدين كما حدث في أوروبا. بل جمعت بين حكم رجال الدين (العلماء والفقهاء)، والجماعة الإسلامية، فالنظام في إطاره دينياً مطلقاً، يرتكز على الأوامر والأحكام العامة المنزلة من الله، ولكنه في التفاصيل والتطبيق شورى (جماعي) ديمقراطي. ولا شك أن هٰذه الدولة فذة في تاريخ البشرية، فبالرغم من قيامها على أسس دينية، إلا أنها أقرت مبدأ حرية الأديان، ورعته

(١) عن أذية قريش للرسول وأتباعه انظر:
ابن هشام، السيرة، (٣٥٦/١) وما بعدها.
(٢) ابن هشام، المصدر نفسه، ص٤٦٨، ٤٨٠.
(٣) ابن هشام، المصدر نفسه، (٤٩٩/١) وعن فتح مكة انظر نفس المصدر، (٣٨٩/٢-٤١٦).
(٤) أحمد إبراهيم، المرجع السابق، ص٦٤.

وتعهدته. كما أقرت مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحاً وانسانية، وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم، وبذلك أصبح الرسول في المدينة زعيم جماعة سياسية[١].

وضع النبي ﷺ دستوراً لتنظيم الحياة العامة في المدينة وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها، وهو ما عرف (بالصحيفة)[٢]، وقد جعل طرفها الأول المهاجرين، والطرف الثاني الأنصار، والطرف الثالث اليهود، الذي بقي موقفهم غامضاً من دولة النبي ﷺ رغم اعترافهم العلني بها، ولذلك فإن ما جاء في الصحيفة عن اليهود يمثل الإتجاه العالمي في الدعوة[٣]. وبعد أن نظمت الصحيفة التخطيط العام للأمة، أصبحت مهمة النبي ﷺ السياسية تنحصر في الدفاع عن حدود دولته، وضمان الأمن لها، وقد برز الجهاد لتثبيت الإسلام ودولته في المدينة.

تمكن النبي ﷺ من تثبيت أركان دولته رغم كل ما واجهته هٰذه الدولة من اليهود والمنافقين داخل المدينة، ومن قريش والقبائل العربية في الخارج بعقد المعاهدات مع القبائل العربية المحيطة من المدينة. ثم فرض هيبته وهيبة دولته عليهم، وعلى قريش نفسها، وعلى اليهود، فأخرجهم من المدينة أولاً، ثم فرض سطوته عليهم في قراهم. ثم عقد مع قريش صلح الحديبية سنة ٦هـ[٤]، ففصل قريش عن حلفائها في الشمال، وحرمها من تجارتها نحو بلاد الشام، وأضعف اليهود الحلفاء التقليديين لقريش.

---

١) مما منحه الرسول لليهود قوله: «وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظالم وآثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه، وأهل بيته» ابن هشام، السيرة، (١/٥٠٣).

(٢) انظر نص الصحيفة في ابن هشام، السيرة، (١/٥٠٢-٥٠٤).

(٣) إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص١٠٦.

(٤) ابن هشام، السيرة، (٢/٣١٧-٣١٨).

إزاء ذلك اطمأن النبي ﷺ إلى أن الموقف السياسي في الجزيرة العربية أصبح إلى جانبه، بتأمين جناح الدولة اليثربية الجنوبي بعقد صلح الحديبية مع قريش والجناح الشمالي بقضائه على قوة يهود خيبر. وبذلك انفتح المجال أمامه ليعمل في هدوء واطمئنان لتوسيع نشاط دعوته والخروج بها إلى طورها العام. فالدعوة الإسلامية بلغت من النضج ما يجعلها دين الناس كافة، فقد نزل كثير من الأحكام الإجتماعية، وبدأت تظهر واضحة صورة المجتمع الإنساني الذي يريده صاحب الرسالة، مجتمعاً تقوم فيه العلاقات على أساس المساواة والعدالة والإخاء. فرسم التشريع في حدود هٰذه المثل، العلاقات العامة والخاصة في الجماعة الإنسانية، فقدرت الحقوق والواجبات، ونظمت الأسرة، ووحدت المسؤوليات وطبقت القواعد تطبيقاً عملياً، وظهرت شخصية المجتمع الجديد مشرقة بما أمر به الإسلام من البر والرحمة، وما دعا إليه من عمل الخير، وما في عبادته من رياضة النفس والطبع، وقتل غرور القلب، بما جعله الكمال الطبيعي للأديان التي سبقت، وجعل الدعوة إليه للناس كافة.

من أجل ذلك فكر النبي ﷺ في إرسال رسله إلى ملوك العالم المحيط بالجزيرة العربية يدعوهم وشعوبهم إلى رسالة الإسلام، وفي مقدمة هٰؤلاء الملوك: هرقل قيصر الروم، وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس حاكم مصر[١].

انطلاقة الفتوحات الإسلامية:

رفض هرقل وكسرى والمقوقس الدعوة، ولم يبلغوها، ووقفوا حاجزاً في طريق وصولها إلى رعاياهم في العراق والشام ومصر، بل أن بعض عمالهم كشرحبيل بن عمرو الغساني عامل الروم على البلقاء، قتل الحارث بن عمير الأزدي رسول النبي إلى صاحب بصرى[٢]. عندئذ وجد الرسول ﷺ أن لا بد من القيام بحملة تأديبية لهٰذا النفر من العرب

(١) عن الرسل الذين أرسلهم النبي ﷺ انظر:
ابن هشام، السيرة، (٢/٦٠٧).

(٢) الواقدي، المغاري، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٦م، (٢/٧٥٥) =

الذين يعيشون في كنف الدولة البيزنطية. فأنفذ هٰذه الحملة سنة ٨هـ التي لم تتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل، بقيادة زيد بن حارثه، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم[١]. فمضى هٰذا الجيش إلى معان (مدينة جنوب الأردن الحالي)، فأقام فيها ليلتين، ثم تقدم إلى قرية مشارف قرب الكرك[٢]، وكان هرقل قد أرسل جيوشه إلى مآب (الكرك) من أرض البلقاء[٣]، ومعهم المستعربة من: لخم، وجذام، والقين، وبهراء، وبلي[٤]، يقودهم مالك بن رافلة من بلي[٥]. وتقدمت القوات إلى مؤته[٦]. فكان اللقاء غير

= ابن عساكر، التهذيب، دار المسيرة، بيروت، (١/ ٩٤).

البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمّان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة (ياقوت، ١/ ٤٨٩).

بصرى: بالضم والقصر، موضع بالشام، وهي قصبة كورة حوران وصل إليها النبي ﷺ للتجارة. (البغدادي، مراصد الإطلاع، ١/ ٢٠١).

(١) ابن هشام، السيرة، (٢/ ٣٧٣)، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٦٢م، (٣/ ٣٦)، الواقدي، المغازي، (٢/ ٧٥٦).
ابن عساكر، التهذيب، (١/ ٩٤).
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، (٢/ ٢٣٤).

(٢) الكرك: اسم لمدينة وقلعة مشهورة في طرف الشام من نواحي البلقاء من ناحية جبال الشراه (ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٣٦٢).

(٣) ابن هشام، السيرة، (٢/ ٣٧٥).

(٤) إبن هشام، السيرة، (٢/ ٣٧٧).
الطبري، تاريخه، (٣/ ٣٧- ٣٩).
الواقدي، المغازي، (٢/ ٧٦٠).
ابن الأثير، الكامل، (٢/ ٢٣٥).

(٥) ابن هشام، السيرة، (٢/ ٣٧٥).
الطبري، تاريخه، (٣/ ٤١).
ابن الأثير، الكامل، (٢/ ٢٣٥- ٢٣٦).

(٦) مؤته: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل من مشارف الشام، وبها كانت تطبع السيوف، =

متكافىء في العدد والعدة، ومع ذلك صمد المسلمون، وأبلوا بلاءاً حسناً. فاستشهد القادة الثلاثة، فولى المسلمون عليهم خالد بن الوليد، الذي أبدى حنكة ومهارة حربية وقتالية فريدة، فغير في مواقع الجند، فنقل الميمنة إلى الميسرة، ونقل الميسرة إلى الميمنة، وجعل الساقة في موضع المقدمة، والمقدمة في موضع الساقة[١]. وجعل في مؤخرة الجيش جماعة يثيرون الغبار والضوضاء، كي يوهم العدو بأن امدادات جديدة وصلت من الحجاز. ثم قام بعملية تراجع لقواته[٢]، دلت عن موهبة عسكرية فذة، يشهد بها المؤرخون العسكريون، وبذا تمكن من انقاذ بقية الجيش، وعاد به إلى المدينة.

لقد كانت معركة مؤتة أول تجربة لجيش المدينة يخوضها على مستوى خارجي، خرجت بها قوات المسلمين من نطاق الجزيرة العربية إلى الشام، فكان أول صدام بين قواتهم وقوات بيزنطة. من خلالها عرف القادة المسلمون طبيعة تكوين هٰذا الجيش، وطريقة تسليحه، وحركته، وخططه. وسوف تكون هٰذه المعركة منطلقاً لمعارك فاصلة يخوضها الجيش العربي الإسلامي فيما بعد على أرض الشام ومصر وفارس.

ولم تكن معركة مؤتة فشلاً للدولة الناشئة في المدينة، ولكنها كانت ضرورة، لتثبت هٰذه الدولة دعائمها، وتركز جذورها، لا في الحجاز فحسب، بل في الجزيرة العربية، ولدى المستعربة من سكان الشام وفارس، ولكي يؤكد النبي ﷺ هٰذه الاستراتيجية التي كانت تطمح في الوصول إلى الشام، والخروج من عزلة الحجاز والانفتاح على العالم الخارجي، وإيصال دعوته إليه عن طريق بوابته الشمالية، قام بحملة قادها بنفسه، ليؤكد للمسلمين أن الروم (بنو الأصفر)، ليسوا بأشد بأساً منهم، ولا أكثر قوة وأصبر على

= وإليها تنسب المشرفية من السيوف (ياقوت، ٥/ ٢٢٠).

(١) الواقدي، المغازي، (٢/ ٧٦٤).

(٢) ابن هشام، السيرة، (٢/ ٣٨٠).
الطبري، تاريخه، (٣/ ٤٠).
ابن الأثير، الكامل، (٢/ ٢٣٨).

القتال، وحتى يقضي على عقدة الخوف والفزع والرهبة من هٰذه الدولة العملاقة، التي هزمت جيش المسلمين في مؤتة قبل عام واحد. ومما يؤكد وجهة نظرنا هٰذه قول أحد المنافقين لرسول الله ﷺ: (أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم، والله لكأني بكم غداً مقرنين في الحبال)[١]، ارجافاً وترهيباً للمؤمنين، ولم تصطدم قوات الرسول بالروم، بل أقام في تبوك بضع عشرة ليلة، وأثناء اقامته قدم إليه يحنه بن رؤبة صاحب أيلة (العقبة الحالية)، وأهل جرباء، وأذرح (جنوب الأردن الحالي)، فصالحهم الرسول على الجزية، وسلم لهم كتباً بذلك[٢]. ثم أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل، فألقى القبض عليه وأحضره إلى رسول الله، فصالحه على الجزية وخلى سبيلة[٣].

---

(١) الواقدي، المغازي، (٣/١٠٠٣) ويذكر الواقدي أن ابن أُبيّ قال: (يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب) (انظر المغازي ٣/ ٩٩٥) وانظر أيضاً: الطبري، تاريخه، (٣/١٠٨).

(٢) الطبري، تاريخه (٣/١٠٨).
الواقدي، المغازي (٣/١٠٣١-١٠٣٢).
أيلة: مدينة عامرة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، بها زرع يسير (ياقوت ١/ ٢٩٢).
جرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال الشراه من ناحية الحجاز وهي قرية من أذرح وبينهما كان أمر الحكمين عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري. (ياقوت ٢/١١٨).
أذرح: اسم بلد بأطراف الشام من أعمال الشراه ثم من نواحي البلقاء بها كان التحكيم. (ياقوت ١/١٢٩-١٣٠).

(٣) الطبري، المصدر نفسه (٣/١٠٨).
الواقدي، نفس المصدر (٣/١٠٢٥-١٠٢٨).
ابن الأثير، الكامل (٢/٢٨١).
دومة الجندل: حصن بين الشام والمدينة على سبع مراحل من دمشق، ودومة من القريات (ياقوت ٢/٤٨٧).

والواقع أن الرسول ﷺ عرف القيمة الاستراتيجية والاقتصادية التي تتمتع بها منطقة جنوب الشام وشمال الحجاز، باعتبارها حلقة وصل وربط بين الشام والجزيرة العربية والديار المصرية، خصوصاً أيلة (العقبة)، في طرف اللسان الشرقي للبحر الأحمر، ففي كتابه إلى أهلها قال: (فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله)[١]. وقد أدرك صاحب أيلة وأهلها أن مصلحتهم تكمن في أن تكون الطرق البرية المارة عبر مدينتهم آمنة، مع حرية الملاحة والتجارة في البحر الأحمر والجنوب العربي. لذا جنحوا إلى السلم مقابل ٢٠٠ دينار يدفعونها سنوياً، مع تقديمهم الطعام لمن يمر بهم من المسلمين، سواء في طريقه إلى الشام أو العكس[٢]. ويعني هٰذا عدم اعتراضهم، أو الإساءة إليهم، وتقديم كل مساعدة ممكنة إليهم، وينسحب ذلك على المستعربه في تلك النواحي. وبذا مهد الرسول ﷺ بنفسه للفتوحات الإسلامية، وكان عمله تحدي للقوات البيزنطية، التي كانت على علم بحركته، ولكنها لم تجرؤ على لقياه. وبذلك أعاد الثقة إلى نفوس قواته، وزرع الرهبة في قلوب القبائل العربية الأخرى، في الجزيرة العربية وخارجها. وكانت جولة وفاتحة لعمل كبير سيعمل ﷺ على مواصلته، والتأكيد عليه، فقد قال عمر بن الخطاب مخاطباً رسول الله ﷺ: (فإن للروم جموعاً كثيرة. وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هٰذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله عز وجل لك في ذلك أمرا)[٣]. اذن فغزوة تبوك هي مقدمة لعمل عسكري عظيم ستقوم به القوات العربية الإسلامية في بلاد الشام، مستهدفة تحطيم القوة البيزنطية التي وقفت في وجه وصول دعوته إلى أهالي بلاد الشام، الأكثر

---

(١) الواقدي، المغازي، (٣/١٠٣١).
محمد حميد الله الحيدري، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة.
مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤١م، ص٧١.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص٧١.

(٣) الواقدي، المغازي، (٣/١٠١٩).

قرباً من الحجاز[١]. وظل الرسول ﷺ مصمماً على الوصول إلى الشام، ففي سنة ١١هـ (٦٣٢م)، أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد[٢]. وهنا تبرز لنا حنكة الرسول وحكمته، ودقة خططه العسكرية؛ فقد أوصى اسامة بن زيد قائلا: «سر على اسم الله وبركته، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هٰذا الجيش فأغر صباحاً على أهل ابنى وحرق عليهم، وأسرع السير تسبق الخبر، فإن أظفرك الله فأقلل الليث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدم العيون أمامك والطلائع»[٣]. كما أوصى قواته برباطة الجأش، ومقابلة العدو بسكينة وصمت، وأن لا يكترثوا بما يقوم به جيش العدو من مناورات وجلبة وضوضاء وصياح، للتأثير في نفوس المقاتلين المسلمين. وإن دل هٰذا على شيء فإنما يدل على أن العرب والمسلمين كانوا على دراية بالأساليب الحربية والقتالية لدى الجيوش البيزنطية، ولكن هٰذه الحملة لم تتم بسبب انتقال الرسول ﷺ إلى خالقة في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ[٤].

كانت مهمة أبي بكر خليفة رسول الله شاقة وصعبة، فبعد وفاة الرسول ﷺ، تعرضت دولة المدينة إلى هزة عنيفة بالردة المشهورة، وقد تمكن أبو بكر بمساعدة قائده خالد بن الوليد من القضاء على المرتدين وتثبيت أركان الدولة المدنية. ثم كان عليه أن يتمم ما بدأه الرسول وهو الخروج بدولته من حيز الحجاز والجزيرة العربية إلى الأقطار المجاورة، وكان الخيار فارس وبيزنطة، وبدأت الاستعدادات لتجهيز القوات والعساكر.

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (١/ ١١).

(٢) الواقدي، المغازي، (٣/ ١١١٧).

(٣) الواقدي، المغازي، (٣/ ١١١٧).

أبنى: بالضم ثم السكون وفتح النون، موضع بالشام من جهة البلقاء، وقيل ابنى قرية بمؤتة. (ياقوت، ١/ ٧٩).

(٤) الواقدي، المصدر نفسه، ص١١٢٠.

الجيوش الأربعة إلى بلاد الشام:

بعد ان انتهى أبو بكر من أمر الردة، كان لا بد من إتمام مهمة جيش أسامة بن زيد، حسب رغبة الرسول ﷺ، ووجد أبو بكر معارضة من كبار المهاجرين، وأوضحوا له أن الأمور غير مستقرة لدولة المدينة، خصوصاً بعد خروجها من تجربة الردة، وخشوا من ردة فعل الدولة البيزنطية، وإرسالها جيشاً يغزوهم في عقر دارهم، ويكون فيه خطر عليهم وقالوا: (فلو استأنيت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرانه)[١] (أي حتى يستقر ويستقيم). ولكن أبا بكر أصر على انفاذ هٰذا الجيش وأمر القوات بالخروج لتعسكر في الجرف خارج المدينة، وخرج أبو بكر ليشيع قوات أسامة المؤلفة من ألف فارس وألفين من المشاه[٢]. وأوصاه أن يعمل بوصية رسول الله وقال: (وإنما أنا منفذ لأمر امر به رسول الله ﷺ)[٣]. فسار أسامة إلى الشام، وهاجم أهل (أبنى) على غرة، فقتل وسبى منهم كثيراً، ثم عاد مسرعاً بقواته قبل أن تتجمع قوات الروم لملاقاته، فوصل إلى وادي القرى[٤]، ومنها إلى المدينة. فكانت مدة غزوته خمسة وثلاثين يوماً، عشرون في بدأته، وخمسة عشر في رجعته[٥].

اذن غزوة أسامة بن زيد كانت مقدمة لحركة الجيوش العربية الإسلامية الفاتحة، فقد أوضحت هٰذه الغزوة إمكانية الوصول إلى الشام دون أن يتمكن الجيش البيزنطي من ملاقاتهم وصدهم. بالإضافة إلى أن هٰذه الغزوة دفعت الدولة البيزنطية إلى وضع قوات في البلقاء، لتكون على أهبة الاستعداد في صد الغارات الإسلامية على أطراف الشام[٦].

---

(١) الواقدي، المغازي، (٣/ ١١٢١).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ١١٢٢).
(٣) المصدر نفسه، (٣/ ١١٢٢).
(٤) وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى كان خارجاً عن الحجاز ثم أضيف إليه فيما بعد. (ياقوت، ٥/ ٣٤٥).
(٥) الواقدي، المغازي، (٣/ ١١٢٥).
(٦) المصدر نفسه، (٣/ ١١٢٤).

ثم إن أبا بكر بعد أن استقرت الأحوال في الحجاز، رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فجمع المسلمين وخطب فيهم قائلا: (واعلموا ان رسول الله ﷺ كان عول أن يصرف همته إلى الشام، فقبضه الله إليه، واختار له ما لديه، ألا وإني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام)[١]. ثم كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن، وجميع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد، ويرغبهم فيه، فسارع الناس إليه، وأتوا المدينة من كل أوب، فعقد أربعة ألوية لأربعة رجال:

١- **اللواء الأول**: عقده ليزيد بن أبي سفيان في ٢٣ رجب ١٢هـ (٣ تشرين أول ٦٣٣م) وبلغ جيشه ثلاثة آلاف مقاتل، وزاده حتى أصبح سبعة آلاف، وجعل قائد المقدمة ربيعة بن عامر[٢]. ثم أوصاه بقواته خيراً، وأمره أن يستشير أصحابه، وأن يعدل بينهم، وقال له: (وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً، ولا امرأة ولا طفلاً، ولا تعقروا بهيمة المأكول، ولا تغدروا إذا عاهدتم، ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون انهم ترهبوا في الله، فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم)[٣]، وسارت قواته إلى الشام عن طريق تبوك.

٢- **اللواء الثاني**: لشرحبيل بن حسنة عقده في ٢٧ رجب ١٢هـ (٧ تشرين أول ٦٣٣م) وسار شرحبيل بعد ثلاثة أيام من مسير يزيد، وسلك طريق تبوك بناء على أوامر الخليفة أبي بكر[٤]. وبلغ جيشه ثلاثة آلاف مقاتل، وأوصاه بنفس الوصية التي أوصى بها يزيداً وزاد عليها قائلاً: (أوصيك بالصبر يوم البأس حتى تظفر

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، (١/٥).

(٢) الأزدي، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠ ص١١.
الواقدي، فتوح الشام، ص٨.
البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٦ وانظر الطبري، (٣/٣٨٧).

(٣) الأزدي، فتوح الشام، ص١٣.
الواقدي، فتوح الشام، ص٨.

(٤) الأزدي، فتوح الشام، ص١٥.
البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٦.

أو تقتل)[١]. ثم إن أبا بكر أرسل إمداداته إلى شرحبيل حتى بلغ جيشه سبعة آلاف وخمسمائة جندي[٢].

٣- اللواء الثالث: لأبي عبيدة عامر بن الجراح في ٧ شعبان ١٢هـ (١١ تشرين أول ٦٣٣م)، وودع أبو بكر جيش أبي عبيدة البالغ ثلاثة آلاف رجل، معظمهم من اليمن. فيهم قبائل طيء، والأزد، وبنو كنانة، وعبس، ومما قاله أبو بكر لأبي عبيدة: (إنك تخرج في أشراف الناس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين، وفرسان الجاهلية... أحسن صحبة من صحبك، وليكن الناس عندك في الحق سواء، واستعن بالله)[٣] ثم امده بالقوات حتى بلغ جيشه سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل[٤]، وامره أن يسير إلى الجابيه باتجاه دمشق[٥]. وسلك أبو عبيدة طريق وادي القرى، ثم الحجر، ذات المنار، زيزاء، ثم سار إلى مآب بعمان (فخرج إليهم الروم، فلم يلبثهم المسلمون أن هزموهم حتى أدخلوهم مدينتهم، فحاصرهم فيها، وصالحهم أهل مآب، فكانت أول مدائن الشام صالح أهلها)[٦].

---

(١) الأزدي، المصدر نفسه، ص١٥.
البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٦.

(٢) الأزدي، المصدر نفسه، ص١٥.
البلاذري فتوح البلدان، ص١١٦.

(٣) الأزدي، المصدر السابق، ص١٧.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص١١٦.

(٥) الأزدي، المصدر السابق، ص٢٩ وانظر الطبري (٣/٣٨٧).
الجابية: أصله في اللغة الحوض يجبى به الماء للإبل، وهي قرية من أعمال دمشق من عمل الجيدور من ناحية الجولان، شمالي حوران. (ياقوت، ٢/٩١).

(٦) الأزدي، المصدر نفسه، ص٤٨.
ذات المنار: موضع في أول أرض الشام من جهة الحجاز، نزله أبو عبيدة في مسيره إلى الشام (ياقوت، ٣/٣).
زيزاء: قرية كبيرة من قرى البلقاء، يطؤها الحاج، ويقام بها لهم سوق، وفيها بركة عظيمة (ياقوت، ٣/١٦٣).
مآب: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء (البغدادي، مراصد الإطلاع، ٣/١٢١٦).

٤- **اللواء الرابع**: لعمرو بن العاص، وأمره أن يعسكر بقواته بالجرف خارج المدينة، واجتمع إليه ناس كثيرون، وكان معه أشراف قريش وكبار القبائل العربية[١]. فخرج أبو بكر لوداعه، ومما قاله له: (يا عمرو إنك ذو رأي وتجربة بالأمور، وبصر بالحرب، وقد خرجت مع أشراف قومك، ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك، فلا تألهم نصيحة، ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فرب راي لك محمود في الحرب، مبارك في عواقب الأمور)[٢]. وأمره أن يسلك طريق المعرقة على أيلة عامدا لفلسطين[٣]، وأن يرسل عيونه ليأتوه بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافراً فواصل سيرك إلى أرض فلسطين، وقاتل من بها، وإن كان يريد عسكراً فانجده[٤].

وقد اختلفت الروايات في أول معركة خاضتها جيوش الفتح ضد البيزنطيين، فذكر الواقدي أن أول صدام حدث في تبوك بين قوات يزيد بن أبي سفيان والروم، وكانت أول نصر للمسلمين، وقد انفرد الواقدي بهذه الرواية[٥]. ولكن البلاذري ذكر أن أول صدام حقيقي حدث بقرية من قرى غزة يقال لها (داثن)، وانتصر المسلمون على بطريق غزة[٦]. ثم يستدرك البلاذري قائلاً: بأن يزيد بن أبي سفيان عندما بلغه تحرك قوات بطريق غزة وجه إليهم (أبا أمامة الصدي بن عجلان الباهلي، فأوقع بهم وقتل عظيمهم ثم

---

(١) الحجر: بالكسر ثم السكون، اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، وهي قرية صغيرة قليلة السكان (ياقوت، ٢/ ٢٢١).

(٢) الأزدي، فتوح الشام ص٥٠.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٦، وانظر الطبري، (٣/ ٣٨٧).

المعرقة: بالضم ثم السكون وكسر الراء، وهو الوجه، كأنه الطريق الذي يأخذ نحو العراق، أو أن يكون يعرق الماء بها، وهي الطريق التي كانت قريش تسلكها إذا ارادت الشام، وهي تأخذ على ساحل البحر ومنها سلكت عير قريش حتى كانت وقعة بدر (ياقوت، ٥/ ١٥٥).

(٤) الواقدي، فتوح الشام، ص١٥.

(٥) الواقدي، المصدر نفسه، ص١٠، ١١، ١٢.

(٦) البلاذري، المصدر السابق، ص١١٧.

داثن: ناحية قرب غزة باعمال فلسطين بالشام، وبها أوقع المسلمون بالروم وهي أول حرب بينهم. (ياقوت، ٢/ ٤٨٧).

انصرف)[١]. وأن هٰذه المعركة كانت أول وقائع المسلمين في الشام، ولم يقاتلوا قبل ذلك منذ فصلوا من الحجاز[٢].

والواقع أن خط سير الجيوش الإسلامية كان في ثلاث اتجاهات، الأول عبر تبوك إلى قلب الأردن الحالي، والثاني عبر دومة الجندل فالبلقاء فدمشق، والثالث عبر أيلة (العقبة)، فوادي عربة إلى غزة جنوبي فلسطين. ومن الملاحظ أن القوات العربية لم تلق مقاومة تذكر من اهالي أطراف الشام بسبب المعاهدات التي عقدها الرسول ﷺ مع أهالي دومة الجندل وأذرح وأيلة وبعض القبائل العربية القاطنة هناك[٣]. وكانت خطة أبي بكر تهدف إلى أن تسير هٰذه القوات بحركة ذكية، فتتقدم من جنوب الأردن وفلسطين باتجاه دمشق وقلب الشام، وإغلاق الطرق في وجه القوات البيزنطية القادمة من أنطاكية أو من مصر. بينما وجه قوات أبي عبيدة إلى الجابية عن طريق البلقاء (عمان)، حيث الحامية البيزنطية المرابطة منذ وقعة مؤتة. وقد تمكنت هٰذه القوات بذكاء من تحقيق أهدافها، فافتتحت البلقاء، ومآب، وعمان، وأجزاء من فلسطين، وأصبحت على أبواب مدينة دمشق.

---

(١) البلاذري، نفس المصدر، ص١١٧.

(٢) البلاذري، نفس المصدر، ص١١٧، ويذكر ابن العبري أن هرقل أرسل خمسة آلاف جندي بقيادة البطريق سرجيس لمقاتلة العرب المسلمين، عندما وردته الأخبار بوصولهم أرض الشام (ص٩٩).

(٣) الواقدي، المغازي، (٢/٥٥٧)، (٣/١٠٣١-١٠٣٢).
الطبري، تاريخه، (٣/١٠٨).

الجبهة العراقية

الجيش الخامس المتجه إلى فارس:

كانت ديار ربيعة تقع بين الجزيرة والعراق إلى البحرين على شواطيء الخليج العربي، وكانوا أصحاب مضارب وخيام، متنقلين غير مستقرين في مدن أو قرى. ثم انتشرت من الأبلة إلى هيت، وتجاورت مع تميم وتداخلت معها أحياناً. ونتيجة لطبيعة الأرض التي سكنتها ربيعة والتي تعرضت للقحط مراراً، ثارت الحروب بينها وبين تميم ذات الأرض والمناطق الخصبة. وبلغت الوقائع بينهما اثنى عشرة وقعة، انتصر كل في ست منها[١]. وفي هٰذه البيئة العسكرية نشأ المثنى بن حارثة الشيباني، وتمكن من تولي منصب القيادة والسيادة في قومه بسبب شجاعته، وفروسيته، وعزيمته الصادقة، وصبره وجلده. وامتاز الشيبانيون بالقوة والمنعة لذا احتربوا مع الفرس قبل الإسلام، وانتصروا عليهم في موقعة ذي قار الشهيرة، واقتحموا اسوارهم[٢].

ثم دخل قسم من الشيبانيين في الإسلام زمن الرسول ﷺ منهم: المثنى ابن حارثه، رغم العهد الذي كان بينهم وبين الفرس. وقد ظهرت قدرة وكفاءة المثنى في حروب الردة، ووصلت انباء انتصاراته إلى الخليفة أبي بكر، فسأل عنه فقيل له: (هٰذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسبة ولا ذليل العماد، هٰذا المثنى بن حارثه

---

(١) من هٰذه الوقائع، يوم نعف قشادة، ويوم الغبيط، ويوم مبائض، ويوم الزويرين، ويوم جدود (انظر ابن الأثير، الكامل، ١/٥٦٩-٦١٠) وانظر النويري، نهاية الأرب، دار الكتب المصرية، نسخة مصورة، ج١٥ ص٣٨٨.

هيت: بالكسر وآخره تاء مثناه، وسميت هيت لأنها في هوة من الأرض وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية، ذات نخل كثير وخيرات (ياقوت، معجم البلدان، ٥/ ٤٢١-٤٢٢).

(٢) ابن الأثير، الكامل، (١/ ٤٨٩-٤٩٠) وانظر النويري، نهاية الأرب، (١٥/ ٤٣٣).

الشيباني)[١]. ثم قدم المثنى إلى الخليفة أبي بكر، وطلب منه أن يوليه على من أسلم من قومه بني شيبان، وأن يسمح له بمحاربة الفرس، فكتب له أبو بكر عهداً بذلك[٢].

وبعد الانتهاء من حروب الردة، وجه أبو بكر همّه نحو القوتين الكبيرتين فارس وبيزنطة، والواقع أن الاتجاه للتوسع الطبيعي لدولة المدينة بعدما استتبت الأمور لها في شبه الجزيرة العربية قاطبة، كان باتجاه الشمال. ولسنا مع القائلين بأن أبا بكر سارع بتوجيه الجيوش العربية الإسلامية لحرب الدولتين العظميين، حتى يوجه أنظار القبائل العربية إلى حرب خارجية وينسيهم الأخذ بالثارات بسبب حروب الردة، فعمل أبو بكر كان تتمة لما بدأه الرسول ﷺ وخطط له[٣].

كان المثنى قد عرف طبيعة الجيش الفارسي والدولة الفارسية، ومقدار الضعف والتفكك الذي وصلته، فأرسل إلى أبي بكر يطلب منه المدد لفتح العراق فاستجاب أبو بكر لندائه وأرسل إلى خالد بن الوليد وكان باليمامة، يطلب منه التوجه إلى العراق[٤]. وكانت خطة أبي بكر تتلخص بأن يطبق المسلمون على الحيرة بجيشين، الأول من الجنوب والثاني من الشمال. وأمر خالداً أن يسلك بقواته طريق الأبلة في فم الخليج العربي[٥]، ثم يتجه شمالاً إلى الحيرة، أما عياض بن غنم فقد أوعز إليه بالتقدم إلى أعلى العراق عن طريق دومة الجندل. وهي ذات موقع استراتيجي هام على مفترق الطرق

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٤٢.

(٢) البلاذري، نفس المصدر، ص٢٤٢، وانظر الطبري، (٣/ ٣٤٤).

(٣) الواقدي، فتوح الشام، ص٥.

(٤) الطبري، تاريخه، (٣/ ٣٤٣).

الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية (ياقوت، ٢/ ٣٢٨).

الأبلة: بلدة على شاطيء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل منه إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة (ياقوت، ١/ ٧٧).

(٥) الطبري، المصدر نفسه، ص٣٤٣.

بين الشام والعراق والحجاز وكان يتحتم على المسلمين احتلالها كي يحموا القوات الإسلامية المتجهة إلى الشام والعراق[١]. وأمر أبو بكر عياض بن غنم أن يتجه بعد دومة الجندل شمالاً إلى (المصيخ)[٢] ثم يهبط جنوبا إلى الحيرة، فيلتقي الجيشان حولها ويحاصرانها[٣]. وقد انضمت قوات المثنى بن حارثه إلى خالد بن الوليد بطلب من أبي بكر ولحقت به في الأبلة فبلغت قوات خالد ثمانية عشر ألف مقاتل[٤].

وقد قسم خالد جيشه إلى ثلاث فرق: الأولى بقيادة المثنى بن حارثه الشيباني والثانية بقيادة عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو، وتولى هو نفسه قيادة الفرقة الثالثة، على أن تسير هٰذه الفرق في طرق مختلفة، وتلتقي في (الحفير) شمال شرق الأبلة[٥]. ثم اصطدم خالد مع الفرس في معركة ذات السلاسل في محرم ١٢هـ (نيسان ٦٣٣م)، وقتل قائدهم هرمز[٦]، وتعتبر معركة ذات السلاسل أول معركة فعلية بين العسكرية الفارسية والعسكرية العربية الإسلامية، تمكن بها المسلمون من كسر انفه العسكرية الفارسية. أضف إلى ذلك أن هٰذه المعركة رفعت من معنويات المسلمين، وأعطتهم درساً تعلموا منه طريقة التفكير العسكري الفارسي، وحركة جيوشهم وتعبئتها، ونظام أسلحتها،

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ص٣٧٣.

(٢) المصيخ: بضم الميم وفتح الصاد وياء مشددة، يقال له مصيخ بني البرشاء، وهو بين حوران والقلت، كانت به وقعة هائلة لخالد على بني تغلب (ياقوت، ٥/ ١٤٤). وانظر الطبري، المصدر نفسه، ص٣٤٦.

(٣) الطبري، المصدر نفسه، ص٣٧٢.

(٤) الطبري، المصدر نفسه، ص٣٤٧.

(٥) الطبري، المصدر السابق، (٣/٣٤٨).

الحفير: وهو القبر في اللغة، وهو موضع بين مكة والمدينة، والحفير أيضاً نهر بالأردن بالشام من منازل بني القين (ياقوت، ٢/ ٢٧٧).

(٦) الطبري، المصدر نفسه، ص٣٤٩.

المدائن: مدينة الفرس الساسانيين، وسميت بالمدائن لأنها مدينة مؤلفة من سبع مدائن صغيرة لا تبعد عن بعضها كثيراً، وتسمى بالفارسية طيسفون (ياقوت، ٥/ ٧٤).

ومهدت الطريق أمام القوات العربية الإسلامية إلى (المدائن) عاصمة فارس، وكانت موطيء قدم لهٰذه القوات التي أعدت العدة لفتح العراق وفارس.

ثم توجه خالد بعد ذلك إلى الحيرة وحاصرها، فتحصن أهل الحيرة ورجالها في قصورها وقلاعها الأربعة، ولما شعروا بوطأة الحصار، خرجوا إلى خالد وطلبوا منه السلم مقابل دفع الجزية. وتم الاتفاق مع اياس بن قبيصة وعمرو بن عبد المسيح وعدي وعمرو بن عدي؛ زعماء الحيرة على شروط الصلح، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٢هـ[١].

أما عياض بن غنم فقد تأخر وصوله إلى الحيرة بسبب وقوف قوات من بهراء. وكلب، وغسان، وتنوخ، والضجاعم أمامه في دومة الجندل بقيادة أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة[٢] مما اضطر عياض إلى طلب العون من خالد، فأسرع لنجدته بعد أن وضع القعقاع بن عمرو نائباً عنه في الحيرة[٣]. وتمكنت قوات خالد وعياض من هزيمة قوات دومة الجندل وقتل أكيدر والجودي والاستيلاء على بلادهما وذلك في رجب ١٢هـ (تشرين أول ٦٣٣م[٤]) ثم عادت قوات خالد وعياض إلى الحيرة بعد أن اتمت قواتهما الخطة التي رسمها أبو بكر في فتح الحيرة[٥]. وبذا تمكن خالد بن الوليد من فتح المنطقة الواقعة بين الأبلة جنوباً حتى الأنبار شمالاً، لا بل فرض سلطانه وهيبته على (الفراض) وهي المنطقة الفاصلة بين العراق والشام حتى تخوم حوران في بادية الشام كي يؤمن قواته وجيشه من حركة مفاجئة خلفية[٦]. وتركزت قوات خالد في الحيرة بانتظار إتمام المرحلة الثانية من فتح العراق باجتياز دجلة إلى (المدائن) عاصمة الفرس.

---

(١) الطبري، تاريخه (٣/ ٣٤٥-٣٦٤).

(٢) الطبري (٣/ ٣٧٨).

(٣) الطبري (٣/ ٣٧٣).

(٤) الطبري (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٥) الطبري (٣/ ٣٧٢).

الفراض: تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات، وبها لقي خالد جموعاً من الروم والفرس والعرب وانتصر عليهم سنة ١٢هـ (ياقوت، ٤/ ٢٤٤).

(٦) الطبري (٣/ ٣٨٣-٣٨٤).

لم تلاق الجبهة الشامية النجاح الذي لاقته القوات الإسلامية على جبهة العراق، فحشود بيزنطة كانت كبيرة، مما دعا عمرو بن العاص اقتراح اجتماع الجيوش الأربعة في جيش واحد، وقد أيد الخليفة أبو بكر هٰذه الفكرة[١]. وفي نفس الوقت أرسل إلى العراق يطلب من خالد بن الوليد امداد القوات الإسلامية بالشام بنصف القوات، وذلك بعد النجاح الذي احرزته تلك القوات في العراق[٢].

كان اختيار ابو بكر لخالد اختياراً موفقاً، فخالد كان أكثر القادة دربة ودراية بالقوات البيزنطية، وطريقة حربها، ونوعية تسليحها. اكتسب ذلك من معارك مؤتة وتبوك، بالإضافة إلى خبراته العسكرية والقتالية الأخرى التي أكتسبها من حروب الردة ومعارك العراق.

خلاصة:

ركز هٰذا البحث على نقطة هامة، وهي انطلاقة الفتوحات الإسلامية، وهل كانت هٰذه الإنطلاقة عفوية دونما هدف معين، أو أنها كانت عملاً مدروساً ومخططاً؟ فمن خلال سردنا للأحداث وتحليلها نستطيع القول: بأن هٰذه الفتوحات لم تكن عفوية، بل جاءت نتيجة عمل وتخطيط مدروس، مهد الرسول ﷺ لهٰذه الفتوحات بالعديد من الغزوات والسرايا. ولم يكتف بذلك بل أرسل الرسل إلى ملوك وأباطرة الدول المحيطة يدعوهم إلى الإسلام وإيصال هٰذه الرسالة إلى رعاياهم. ثم كان لا بد من الاحتكاك ببني الأصفر (بيزنطة)، فكانت معركة مؤتة، ثم غزوة تبوك التي قادها الرسول ﷺ بنفسه، وإعطائه كتب الأمان إلى أيلة وأذرح وجرباء. وبذا مهد الرسول ﷺ بنفسه للفتوحات الإسلامية، وزرع الرهبة في قلوب القبائل العربية الأخرى في الجزيرة العربية وخارجها. وفي تبوك شاور الرسول ﷺ أصحابه في التقدم في بلاد الشام، فقال له عمر بن الخطاب: (يا

---

(١) ومما قاله أبو بكر لهم (بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً، والقوا زحوف المشركين بزحف واحد، فانكم أعوان الله، والله ناصر من نصره). انظر الطبري (٣/ ٣٩٢).

(٢) الطبري (٣/ ٣٩٣-٣٩٤) وانظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٦، ١١٧، ١١٨.

رسول الله فإن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هٰذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله عز وجل لك في ذلك أمرا)[١]. فغزوة تبوك كانت مقدمة لعمل عسكري عظيم ستقوم به القوات العربية الإسلامية في بلاد الشام، وهٰذا ما حدث فيما بعد، فالمجال الحيوي لدولة المدينة كان في شمال الجزيرة العربية حيث بلاد الشام والعراق.

وقد تمم أبو بكر ما بدأه الرسول ﷺ، وهو الوصول إلى أرض الشام، فما أن انتهى من أمر الردة حتى سير جيش أسامة بن زيد، وتمكن من تحقيق ما رسم له دون أن تتمكن الدولة البيزنطية من إعتراضه[٢]. ومما يؤكد وجهة نظرنا هٰذه أن أبا بكر قبل إرساله لجيوش الفتح جمع المسلمين وخطب فيهم قائلاً: (واعلموا أن رسول الله ﷺ، كان عول أن يصرف همته إلى الشام، فقبضه الله إليه، واختار له ما لديه، ألا وإني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام)[٣].

وقد تمكنت قوات الفتح من تحقيق أهدافها على الجبهة الفارسية وتعثرت خطة الفتح في الشام، فأمر الخليفة بتجمع تلك القوات بجيش واحد وقيادة واحدة، ثم أرسل إلى العراق يأمر خالداً بنصرة الجبهة الشامية. وقد حققت الجيوش العربية الإسلامية انتصارات هامة على الجبهتين الشامية والعراقية، ومهدت هٰذه الانتصارات لمعركتين فاصلتين (اليرموك، والقادسية)، فالأولى أنهت الوجود البيزنطي من الشام، أما الثانية فقد قضت نهائياً على دولة فارس، وانفتحت أمام القوات العربية الإسلامية بوابة الشرق لتصل إلى الهند والصين.

---

(١) الواقدي، المغازي (٣/ ١٠١٩).

(٢) الواقدي، المصدر نفسه (٣/ ١١٢٤) فيذكر الواقدي أن هرقل بعد سماعه بغزوة أسامة غضب وقال لبطارقته: (قد صارت العرب تأتي مسيرة شهر تغير عليكم، ثم تخرج من ساعتها ولم تكلم)، لذا أمر بقوات أن ترابط بالبلقاء لتقف في مواجهة تقدم قوات المدينة إلى الشام، المغازي، ص١١٢٤.

(٣) الواقدي، فتوح الشام، ص٥.



الموضوع الثاني

معارك الفتح الإسلامي في منطقة الأردن من جنوب الشام



معارك الفتح الإسلامي في منطقة الأردن من جنوب الشام

اختلف الباحثون والمؤرخون غربيون وعرب في بواعث الفتوحات العربية الإسلامية، فمنهم من تعاطف معها وانسجم مع أهدافها ودوافعها، وآخرون تجنوا عليها دون إبداء سبب مقنع اللهم إلا روح التعصب البغيض. ومن الذين نظروا إلى هٰذه الفتوحات من منظار ضيق تمثل بالكراهية الشديدة للعرب والمسلمين نذكر (القديس يوحنا الدمشقي) المتوفى سنة ٧٤٩م في العصر الأموي. وهو من أقدم الذين حاربوا الإسلام، ويعتبر يوحنا الدمشقي أستاذاً لأولئك المستشرقين المحدثين الذين انهالوا على الإسلام بالتجريح والهجوم[١]. فقد هاجم بعضهم حركة الفتوحات العربية الإسلامية ونعتوها بالمادية البحتة، وأن العرب إنما حاربوا من أجل المطمع المادي، وطلباً لحياة أكثر هناء، وهروباً من صحارى قاحلة وبلاد جافة، وحبا في التعبير عن ذاتهم بالحروب المتواصلة ضد جيرانهم، بعدما منع الإسلام الاحتراب بين القبائل بدخولهم الإسلام. وهي كما نرى آراء لم ترتق إلى درجة التسامح الديني الذي عرف به الإسلام والمسلمون، منذ دعوتهم الأولى، وخروجهم بدعوتهم الفتية إلى العالم من حولهم ينشرون الإخاء والمحبة والمساواة والعدالة التي نادى بها الإسلام، مما حبب بهم الشعوب، فأقبلوا على الإسلام بقناعة وإيمان[٢]. ومع ذلك فهناك مستشرقون معتدلون، فهٰذا (توماس آرنولد) يتحدث عن أقباط مصر وأحوالهم ودخولهم في الإسلام، فيؤكد أن الحرية الدينية التي منحها إليهم العرب والمسلمون جعلهم يدخلون في الإسلام على نطاق واسع دون ضغط أو اضطهاد[٣].

---

(١) يوسف غوانمة، في استراتيجية الفتوحات الاسلامية للديار الشامية، بحث منشور في مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ٢، العدد ٢، ١٩٨٦، ص٤٢.

(٢) يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص٤٣.

(٣) آرنولد (توماس) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وزميله، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٢٣. =

عرف العرب في مكة والمدينة، البلاد المجاورة حق المعرفة عن طريق التجارة، فكانت قوافلهم تصل إلى الشام والعراق والخليج العربي واليمن بل وصل بعضهم بتجاراتهم إلى الهند والصين والسواحل الشرقية لأفريقية. أما في الشام والعراق، فكانت لهم فيها صلات قربى مع القبائل العربية هناك، حتى أن أبا سفيان زعيم قريش، كانت له ضيعة في البلقاء تسمى (بقّنس)، وكان يتردد عليها في أسفاره إلى الشام[١]. أما القبائل العربية التي قطنت مشارف الشام (الأردن الحالي) فهي لخم، وجذام، وقضاعة، وعذرة، وبلقين، وبهراء، وبلي، وغسّان، وكانوا على اتصال مباشر بعرب الحجاز والجزيرة العربية[٢].

ومما تجدر ملاحظته أن القبائل العربية هٰذه القاطنة في مشارف الشام كانت تدين بالولاء للروم (الدولة البيزنطية). وكان البيزنطيون يرقبون تطور الأحداث السياسية والعسكرية والدينية في الجزيرة العربية ويرسلون العيون والجواسيس لمعرفة هٰذه القوة الناشئة التي تقوم قريبة من أطراف دولتهم. وبالمقابل كان الرسول ﷺ، يتطلع إلى معرفة أحوال الدولة البيزنطية، والقبائل العربية في مشارف الشام[٣]. وكان هٰؤلاء يعرفون الدين الجديد الذي ظهر في الحجاز، وكانت هناك اتصالات سرّية بينهم وبين النبي ﷺ في المدينة المنورة، ودخل بعضهم في الإسلام سراً. نذكر منهم رفاعة بن زيد الجذامي، وفروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على العرب في مشارف الشام وكان مقره مدينة (معان) الأردنية الحالية[٤].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣٥.
بقّنس: بثلاث كسرات والنون مشدده، من قرى البلقاء من أرض الشام كانت لأبي سفيان صخر بن حرب (ياقوت ١/ ٤٧٢) يوسف غوانمة، عمان حضارتها وتاريخها، ص٧٧.

(٢) يوسف غوانمة، مقامات الصحابة في الأردن، ص١٥.

(٣) يقول الواقدي (فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط)، (٣/ ٩٩٠).

(٤) يوسف غوانمة، مقامات الصحابة في الأردن، ص١٨، ١٩.

=

اطمأن الرسول ﷺ بعد أن عقد صلح الحديبية سنة ٦هـ مع قريش، وبهٰذا الصلح فصل الرسول قريش عن حلفائها في الشمال، وحرمها من تجارتها نحو بلاد الشام، راضعف اليهود الحلفاء التقليديين لقريش. وهٰكذا بدأ الرسول ﷺ يعمل بهدوء واطمئنان لتوسيع نشاط دعوته، والخروج بها إلى طورها العام، فالدعوة الإسلامية بلغت من النضج ما يجعلها دين الناس كافة. فأرسل الرسل إلى ملوك العالم من حوله يدعوهم وشعوبهم إلى رسالة الإسلام، وفي مقدمة هٰؤلاء الملوك: هرقل قيصر الروم (بيزنطة)، وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس حاكم مصر[١].

وبعد أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، كان لا بد من إيصال الدعوة إلى الشعوب الأخرى وخصوصاً في العراق والشام، ولما وقف قادة تلك المناطق في وجه إيصال الدعوة إلى شعوبهم، كان لا بد من تحطيم الحواجز التي اعترضت سبيل وصول دعوة الإسلام إلى تلك الشعوب وليس لفرض الإسلام. وعندما نجحت هٰذه الحركة في تحطيم تلك الدول، راينا أعداداً هائلة تدخل في الإسلام عن طيب خاطر، فعندما سنحت لهم فرصة الاختيار، اختاروا الإسلام[٢] وهناك آيات كثيرة تدلل على أن الاسلام لم ينتشر بقوة السيف نذكر قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ ﴾ [يونس: ١٠٨].

= يوسف غوانمة، الحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي، دار هشام، اربد ١٩٨٤، ص٣٥.

يوسف غوانمة، أيلة (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتهما التاريخية والاستراتيجية، دار هشام، اربد، ١٩٨٤، ص٣٣.

(١) لمزيد من التفاصيل عن هؤلاء الرسل انظر: ابن هشام، السيرة، تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه، دار الكنوز الأدبية (٢/٦٠٧).

(٢) يوسف غوانمة، في استراتيجية الفتوحات الإسلامية، ص٤٤.

ثم أن إسقاط الدول والحكومات التي وقفت في وجه انتشار الدعوة الجديدة أدى إلى سيطرة العرب السياسية والعسكرية على تلك البلاد، وهي محصلة طبيعية لذلك.

هٰذا وقد أمدّ الدين الإسلامي حركة الفتوحات الإسلامية، بقوة ذاتية أكسبتها الاستمرارية والديمومة، ولولا هٰذه القوة التي نشأت عن الرابطة الدينية الجامعة، لافتقر العرب إلى التكتل والوحدة الذي لا تحدث الانتصارات بدونهما. ولولا تسامي العرب عن مجرد الشهوة للحرب والغنيمة، لما استطاعوا أن يستحوذوا على رضا سكان بلاد الشام ومصر والعراق والشمال الإفريقي والأندلس والمشرقين الأدنى والأقصى عن حكمهم. ثم أن العقيدة التي اعتنقها العرب، كانت حافزاً قوياً لهم للنصر في فتوحاتهم، مقرونة بوحدتهم واصالتهم، وانضوائهم تحت نظام واحد، وقيادة واحدة، وخبرة وقدرة عسكرية وحربية، يعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها وأعدائهم[١].

وكان الرسول ﷺ قد وجد أن لا بد من إرسال الطلائع من البعوث والسرايا إلى بلاد الشام، للوقوف عن كثب على أحوال البلاد والقبائل العربية الساكنة في مشارفها، وتوثيق العلاقات معهم. ولتكون تلك الطلائع مقدمة وتمهيداً لفتح الشام التي تعتبر المجال الحيوي لدولة الرسول في الحجاز ولأنها امتداد طبيعي له وكان الرسول ﷺ يخطط لفتحها ويأمل في تحقيق ذلك. فقام هو نفسه بغزوة دومة الجندل في ربيع أول ٥هـ آب ٦٢٦م، ثم أرسل في جمادى الآخرة من سنة ٦هـ/٦٢٧م، سرية بقيادة زيد بن حارثة إلى حِسْمى في أطراف الشام، لتأديب قبائل جذام الذين قطعوا الطريق على دُحيّة الكلبي رسول النبي ﷺ إلى هرقل في طريق عودته للمدينة[٢]. أما السرية الثالثة فكانت سرية

---

(١) يوسف غوانمة: في استراتيجية الفتوحات الإسلامية، ص٤٥.

(٢) الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت عن طبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦، ج٢، ص٥٥٥، وانظر ابن هشام، السيرة، القسم الثاني، ص٢١٣.

دومة الجندل: بضم أوله وفتح الميم، وهو حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء (ياقوت، ٢/ ٤٨٧).

=

عبد الرحمن بن عوف التي خرج بها من المدينة في شعبان من سنة ٦هـ/٦٢٧م وتوجه بها إلى قبائل كلب في دومة الجندل يدعوهم إلى الإسلام. وكانت السرية الرابعة لزيد بن حارثة، أرسله إلى بني فزارة، الذين كانوا يسكنون دون وادي القرى، لتعرضهم لتجارة المسلمين. أما السرية الخامسة فكانت سرية كعب بن عمير في شهر ربيع الأول من سنة ٨هـ/ ٦٢٩م إلى ذات أطلاح من أرض الشام. ثم كانت السرية السادسة في جمادى الآخرة من سنة ٨هـ/ ٦٢٩م بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وهي وراء وادي القرى، وجهها الرسول ﷺ في شتاء شامي قارس إلى قضاعة وبلي الذين كانوا ينوون غزو دولة الرسول في المدينة. ولما دنا عمرو من أطراف الشام علم بكثرة جموعهم، فطلب المدد من رسول الله ﷺ، فأمده بأبي عبيده عامر بن الجراح، في مئتي فارس منهم أبو بكر الصديق، فدخلوا بلاد بلي ودوخوها، وأتو إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين ثم عادوا منصورين[(١)].

لقد كانت هٰذه البعوث والسرايا مقدمات العمل الكبير الذي يعمل الرسول ﷺ على تحقيقه. فقد أراد أن يكون على صلة بالقبائل العربية في مشارف الشام ومن ثم التعرف

= حسمى: بالكسر ثم السكون أرض ببادية الشام تقع بين أيلة (العقبة) والبتراء من جنوب الأردن وهي لقبائل جذام (ياقوت، ٢/ ٢٥٨).

(١) الواقدي، المغازي، (٢/ ٥٦١-٥٦٤، ٧٥٢-٧٦٩) بيروت عن طبعة جامعة اكسفورد.

الطبري، تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) تحقيق محمد ابو الفضل، دار المعارف، القاهرة، (٣/ ٣٢).

ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، (١/ ١٠٣).

النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية (ب،ت) (١٧/ ٢٧٧-٢٨٢، ٢٨٤).

ذات أطلاح: موضع من أرض الشام وهي من وراء وادي القرى (ياقوت، ١/ ٢١٨).

ذات السلاسل: ماء بأرض جذام من مشارف الشام (ياقوت، ٣/ ٢٣٢).

وادي القرى: واد بين المدينة والشام، وهو من أعمال المدينة كثير القرى أفتتحه الرسول ﷺ سنة ٧هـ (ياقوت، ٥/ ٣٤٥).

على طبيعة الأرض وتضاريسها التي سيحارب المسلمون عليها مستقبلاً. ولكي يتأكد الرسول ﷺ من أساليب القتال لدى الجيش البيزنطي ومعرفة قدراته وأسلحته، كان لا بد من معركة كبيرة يقع فيها التحام بين قوات المسلمين والقوات البيزنطية، فكانت غزوة مؤتة سنة ٨هـ/ ٦٢٩م.

وقد حدد الرسول ﷺ استراتيجية الفتوحات الشامية في الكلمة التي وجهها إلى جيش مؤتة حين قال: «اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوكم بالشام، وادعوا المشركين إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها فأقبل منهم واكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فأقبل منهم وأكفف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. وإن دخلوا الإسلام واختاروا دارهم، فأخبرهم أنهم يكونون كاعراب المسلمين، ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فأقبل منهم، وأكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[1].

إذن استراتيجية الرسول ﷺ كانت في الكلمة التي وجهها إلى جنود مؤتة ٨هـ/ ٦٢٩م، وكانت تتلخص في التوجه إلى اهالي البلاد ودعوتهم إلى الإسلام أولاً، فإن قبلوا الدعوة، يطلب منهم التوجه إلى دار الهجرة، ولهم ما للمهاجرين من حقوق وامتيازات. وأما إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فلا حق لهم عندئذ في الفيء والغنائم من البلاد المفتوحة. والهدف من هٰذا العرض هو رفد الجيوش الإسلامية بقوة ودماء جديدة من أهالي الشام والقبائل العربية القاطنة هناك، ومنحهم حرية الخيار والاختيار. لقد كان التركيز على أهالي البلاد، ثم عدم التعرض إلى الرهبان والكنائس والأديرة، والنساء والأطفال. والهدف من ذلك هو عزل السلطة الحاكمة الغريبة عن

(١) الواقدي، المغازي، (٢/ ٧٥٧-٧٥٨).
يوسف غوانمة، مقامات الصحابة في الأردن، ص٢٨.

سكان الشام العرب. وإيجاد هوة بين الحاكم ورعيته منعا للالتحام والتلاقي بين القيادة السياسية والعسكرية وأهالي البلاد. هٰذا التلاحم الذي هو دوماً الأساس وحجر الزاوية في كل نصر، وإيجاد فجوة بين الأهالي وحكامهم الغرباء عنهم.

معركة مؤتة:

كانت معركة مؤتة أولى المعارك التي خاضتها الجيوش الإسلامية على الأرض الأردنية ومؤتة بأدنى البلقاء بالقرب من الكرك كما يقول النويري[١]. ففي جمادى الأولى من سنة ٨هـ/٦٢٩م، سارت القوات من المدينة وخرج الرسول ﷺ مشيعاً هٰذه القوات حتى بلغ ثنية الوداع. وكانت أخبار هٰذه الحملة قد وصلت إلى الروم، فاستعدوا إلى لقائها. نزل المسلمون (معان) من أرض الشام، أما الروم فقد نزلوا في (مآب) من أرض البلقاء في مائة ألف مقاتل، وانضمت إلى هٰذه الجموع قوات من القبائل العربية الساكنة في تلك المناطق: لخم، وجذام، وبلقين، وبهراء، وبلي في مائة ألف أخرى يقودهم رجل من بلي يدعى: مالك بن رافله[٢].

أما القوات الإسلامية فكانت ثلاثة آلاف مقاتل، وقد جعل عليهم الرسول ﷺ زيد بن حارثة قائداً وسلمه لواء أبيض، وكان زيد قد تولى سريتين إلى الشام قبل مؤتة، فهو والحالة هٰذه يعرف طبيعة الأرض التي سيقاتل عليها وعلى معرفة بالقبائل العربية هناك. وقد قال الرسول ﷺ: «زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد، فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم»[٣].

---

(١) النويري، نهاية الأرب (١٧/ ٢٧٧).

(٢) ابن هشام، السيرة، القسم الثاني، ص٣٧٥.

مآب: مآب وأذرح مدينتا الشراه وعلى اثنى عشر ميلاً من أذرح ضيعة تعرف بمؤتة بها قبر جعفر إبن أبي طالب (ياقوت، ٥/ ٢٢٠).

(٣) ابن هشام، السيرة، (٢/ ٣٧٥). =

أقام المسلمون في (معان) من أرض الشام ليلتين، ثم تقدموا نحو (مآب) من أرض البلقاء[١]، فلقيتهم جموع الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها (مشارف) على بعد أميال من الكرك الحالية. فتقدمت القوات الرومية نحو القوات الإسلامية، فانحاز المسلمون إلى قرية (مؤتة)، فالتقى الجمعان فيها: الإسلامي، والرومي (البيزنطي) واستعد الفريقان للمواجهة[٢]. وكان جيش المسلمين في معظمه من الفرسان، يرافقهم اعداد من المشاة، أما أسلحتهم فكانت السيوف والرماح والتروس والمغافر، يرتدون الدروع المصنوعة من الزرد. أما القوات الرومية فكانوا من الفرسان والمشاة والرماة بالدرجة الأولى، بينما اعتمد الجيش الإسلامي على الفرسان والخيالة. فالجيش الإسلامي امتاز بخفة الحركة، وسرعة المبادرة، والمفاجأة والمناورة في الكر وعودة الهجوم. وهي ميزة تكتيكية تفوق فيها المسلمون على جيش الروم، الذين امتازوا ببطء الحركة بسبب ما كانوا يرتدونه من معدات ثقيلة، وتسلحوا بالتروس والسهام، والحراب والسيوف والرماح واستخدموا العربات.

عبأ المسلمون قواتهم ونظموا صفوفهم استعداداً للمواجهة، فجعلوا على الميمنة: قطبة بن قتادة من بني عذره، وعلى الميسرة: عبابة بن مالك من الأنصار، أما القلب فكان بقيادة زيد بن حارثةو وكان معه جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد. أما الساقة فكانت قوات الاحتياط لنجدة القوات المهاجمة عند الحاجة. أما

= الطبري، تاريخ الطبري، ٣/٣٦-٣٧).
النويري، نهاية الأرب (١٧/٢٧٨-٢٧٩).

(١) ابن هشام، السيرة، القسم الثاني، ص٣٧٧.
النويري، نهاية الأرب، (١٧/٢٧٩).

(٢) ابن هشام، السيرة، القسم الثاني، ص٣٧٧.
الطبري، المصدر السابق، (٣/٣٩).
يذكر المؤرخون المسلمون أن أذرح وجرباء ومؤتة ومآب من البلقاء، وهٰذا يعني أن منطقة البلقاء ممتدة من شمال الأردن الحالي (وادي الزرقاء) إلى أقصى جنوبه (الباحث).

القوات الرومية فقد عبأت نفسها كذلك، وكانت تتألف من قلب وساقة وميمنة وميسرة، وكان على الميسرة مالك بن رافلة قائد القبائل العربية المتعاونة مع الروم(١).

حدثت المواجهة بين قوتين غير متكافئتين عدداً وعُدداً، فاستشهد القادة الثلاثة: زيد ابن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحه، فاختار المسلمون خالد بن الوليد قائداً فاستطاع خالد بدهائه وقدراته القتالية والتخطيطية من الانسحاب بقواته عائدا إلى الحجاز، وهو بهٰذا أنقذ قوات المسلمين من فناء محقق(٢).

لقد قيل الكثير عن معركة مؤتة، ولكن الدارس المتتبع لأحوال دولة الرسول ﷺ في المدينة، وأحوال الدولتين العظميين آنذاك بيزنطة وفارس يرى أن مؤتة كانت ضرورة تمليها الظروف السياسية والعسكرية والدولية والديموغرافية في العالم المحيط بالجزيرة العربية. فقد أراد الرسول ﷺ بأن تكون تجربة مؤتة درساً للمسلمين كي يتعرفوا على جيش عريق منظم مدرب عليهم مقارعته ومحاربته لتحرير الشام منه، لتصبح الشام نقطة انطلاق لنشر الدعوة الإسلامية لا في الشام فحسب بل في العالم من حوله. ومؤتة كانت في نفس الوقت محكاً للقبائل العربية الواقعة تحت السيطرة البيزنطية، لتثير فيهم الحمية، وتؤجج في نفوسهم النخوة لنصرة أبناء جنسهم العرب المسلمين، والوقوف إلى جانبهم ومساعدتهم ضد عدو دخيل. وهٰذا ما حدث في المعارك التي خاضتها القوات الإسلامية في الشام فيما بعد، فقد انحاز عرب الشام إلى إخوانهم العرب المسلمين، كان ذلك في معركة اليرموك وفي معركة (فحل).

---

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٣٧٥).
الطبري، المصدر السابق، ص٤١.

(٢) ابن هشام، السيرة (٢/ ٣٨٠-٣٨٣).
الطبري، المصدر نفسه، ص٤٢، النويري، نهاية الأرب (١٧/ ٢٨٢).

وهكذا نستطيع القول: بأن معركة مؤتة كانت معركة ناجحة بالموازين الاستراتيجية والتخطيط التعبوي. فقد وجه الرسول ﷺ إلى الروم، وبث فيهم أمل النصر، خصوصاً وان العرب كانوا يهابون هٰذه الدولة العظيمة بقواتها وأسلحتها وسمعتها كقوة عظمى في العالم آنذاك. ولكي يؤكد الرسول ﷺ الاستراتيجية التي كانت تطمح في الوصول إلى الشام، والخروج من عزلة الحجاز، والانفتاح على العالم الخارجي، وإيصال دعوته إليه عن طريق بوابته الشمالية، قام بحملة سنة ٩هـ/ ٦٣٠م قادها بنفسه إلى تبوك[١]. ليؤكد للمسلمين أن الروم ليسوا باشد بأساً منهم، ولا أكثر قوة وصبراً على القتال، وحتى يقضي على عقدة الخوف والفزع والرهبة من هٰذه الدولة العملاقة التي دحرت المسلمين في مؤتة.

لم تصطدم قوات الرسول ﷺ بالروم، وأثناء إقامته هناك قدم إليه اسقف أيلة (العقبة) يوحنة بن رؤبة الغساني، فمنحه الرسول الأمان، وأعطاه كتاباً بذلك، كما أعطى الرسول ﷺ أماناً لأهل جرباء وأذرح من جنوب الأردن وكتب إليهم بذلك[٢]. إذن فالرسول ﷺ اراد بذلك أن يؤثق العلاقات بين عرب الحجاز وعرب مشارف الشام الذين كانت تربطهم

---

(١) الواقدي، المغازي، بيروت عن طبعة جامعة اكسفورد (٣/ ٩٨٩).
الطبري، المصدر السابق (٣/ ١٠٠).
ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٠٦-١٠٩).
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، (٢/ ٢٧٦-٢٧٧).
تبوك: بالفتح ثم الضم، موضع بين وادي القرى والشام وهو حصن به عين ونخل، وهي الآن مدينة كبيرة في شمال الحجاز (ياقوت، ٢/ ١٤).

(٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١١٥)
يوسف غوانمة، أيلة العقبة والبحر الأحمر وأهميتهما التاريخية والاستراتيجية، ص٣٢
جرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال الشراه وقريبة من قرية أذرح (ياقوت، ٢/ ١١٨)
اذرح: بلد من أطراف الشام تقع في أعمال البلقاء ومجاورة لعمان، وهي قريبة من جرباء وبها كان التحكيم (ياقوت، ١/ ١٢٩-١٣٠).

علاقات الدم والقربى، بالإضافة إلى علاقات اقتصادية وتجاريةوثيقة[١]. وهو بهٰذا يمهد للفتوحات الشامية، ويتحدى القوات الرومية (البيزنطية) التي كانت على علم بحركته، ولكنها لم تجرؤ على لقياه ودخول الحجاز. ثم لتكون هٰذه القبائل العربية القاطنة في مشارف الشام مسالمة له، تقدم العون لقوات المسلمين عند دخولها الشام في معارك الفتح الإسلامي القادمة.

استنفار المسلمين إلى الجهاد وفتح بلاد الشام:

توفي الرسول ﷺ في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ/ ٦٣٢م. وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة، فكانت مهمته شاقة وصعبة. فبعد وفاة الرسول ﷺ، تعرضت دولة المدينة إلى هزة عنيفة بالردة المشهورة. وقد تمكن أبو بكر بمساعدة قائده خالد بن الوليد من القضاء على المرتدين، وتثبيت أركان الدولة المدنية. ثم كان عليه أن يتمم ما بدأه الرسول ﷺ، وهو الخروج من نطاق الحجاز والجزيرة العربية إلى العالم من حوله لإيصال دعوة الإسلام إلى شعوب تلك البلاد فكان الاختيار بلاد فارس وبلاد الشام.

وقد تمثل جهاد المسلمين في البلاد الشامية بإرسالهم أربعة جيوش، فقد عقد أبو بكر اللواء الأول ليزيد بن أبي سفيان في ٢٣ رجب ١٢هـ/ ٣ تشرين أول ٦٣٣م، وبلغ جيشه ثلاثة آلاف مقاتل، وزاده حتى أصبح سبعة آلاف مقاتل. أما اللواء الثاني فعقده أبو بكر لشرحبيل بن حسنة «شرحبيل بن عبد الله بن المطاع الكندي»، عقده في ٢٧ رجب ١٢هـ/ ٧ تشرين أول ٦٣٣م، وبلغ جيشه سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل. ثم أن أبا بكر عقد اللواء الثالث لأبي عبيده عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، وكان ذلك في ٧ شعبان ١٢هـ/ ١٧ تشرين أول ٦٣٣م، وكان عدد جيشه سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل. أما اللواء الرابع والأخير فقد عقده أبو بكر لعمرو بن العاص وبلغ جيشه سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل، وأمر كل جيش أن يسلك طريقاً بعينه.

---

(١) الواقدي، المغازي، بيروت عن طبعة جامعة اكسفورد، (٣/ ٩٨٩-٩٩٠).

وكان أبو بكر قد أمر الجيوش الثلاثة الأولى أن يسلكوا طريق تبوك في طريقهم إلى البلقاء من علياء الشام أما عمرو بن العاص فأمره بالتوجه إلى فلسطين عن طريق أيلة (العقبة)[١]. نزلت الجيوش الإسلامية في المواقع التي حددت لها، فنزل يزيد بن أبي سفيان البلقاء، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن، ويقال بصرى، ونزل أبو عبيده الجابية[٢]. وكان أول صلح بالشام صلح (مآب) وهي فسطاط أي قرية من قرى البلقاء كما يذكر الطبري، فمر بهم أبو عبيده في طريقه فخرجوا إليه وقاتلوه، وعندما شعروا بعدم قدرتهم على هزيمته سألوه الصلح فصالحهم[٣]. أما مدينة (عمّان) فقد تمكنت القوات الإسلامية من فتحها عنوة بعد أن هزم المسلمون صاحب عمان البطريق (نقبطاس) كما يذكر الواقدي[٤]. أما شرحبيل بن حسنة فقد فتح جميع مدن الأردن وحصونها فتحاً يسيراً بغير قتال ثم صالحهم. ففتح بيسان، وسوسيه، وافيق، وجرش، وبيت راس، وقدس، والجولان، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها[٥].

---

(١) الطبري، المصدر السابق (٣/٣٨٧).
النويري، نهاية الأرب (١٩/١١٦)، ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٣١).

(٢) الطبري، المصدر السابق (٣/٤٠٦).
الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان وشمالي حوران (ياقوت، ٢/ ٩١).
بصرى: مدينة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة أرض حوران (ياقوت، ١/ ٤٤١).

(٣) الطبري، المصدر السابق (٣/٤٠٦)، البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨، ص١٢٠.

(٤) الواقدي، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت (ب.ت) (١/ ١٨٤).

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٢٣
بيسان: بالفتح ثم السكون، مدينة بالأردن بالغور الشامي وتقع بين حوران وفلسطين غربي نهر الأردن (ياقوت، ١/ ٥٢٧).
سوسية: احدى كور الأردن (ياقوت، ٣/ ٢٨٣).
افيق: قرية في الجولان تقع في الطريق المؤدية إلى وادي اليرموك وغور الأردن، وهي أول العقبة (الطريق الضيق) المعروفة بعقبة افيق (ياقوت، ١/ ٢٣٣).
قدس: بالتحريك، بلد بالشام وتضاف إليه بحيرة قدس (الحولة) وهي بأرض الجولان (ياقوت، ٤/ ٣١١).

لقد كانت خطة المسلمين تتمحور حول السيطرة الكاملة على منطقة الأردن، مآب، والبلقاء، وشمال الأردن الحالي، حتى تبقي اتصالها بالحجاز ميسراً وسهلاً. بالإضافة إلى أن سكان هٰذه المنطقة كانوا عرباً، ففي الجنوب كانت جذام، بلقين، بلي، وعذرة. أما في الشمال فكانت غسان وزعيمها جبلة بن الأيهم، وقد شكل هٰؤلاء قوة أمدت المسلمين بالمقاتلين في الأوقات العصيبة كما حدث في معركة فحل ومعركة اليرموك. كذلك أراد القادة المسلمون أن يجعلوا هٰذه المنطقة خلفهم تحميهم وتمدهم بالمؤن والميرة، وتكون خط بريدهم وإمداداتهم من الحجاز. وهٰذا يبين القيمة الاستراتيجية لمنطقة الأردن في حركة الفتوحات الشامية. أما عن أهم المعارك التي حدثت في منطقة الأردن فنذكر:

١- معركة فحل(بيلا):

فحل مدينة مشهورة في غور الأردن، مقابل مدينة بيسان، وهي إحدى مدن الديكابوليس Dicapolis ونعتت في العصر الهلنستي والروماني والبيزنطي باسم بيلا pella وتعني "الفل أو زهرة[1]. وبعد أن سيطر المسلمون على منطقة الأردن كاملة كان لا بد لهم من حماية الطريق المؤدي إلى فلسطين والقدس، لأن فلسطين والقدس كانت لا تزال بيد الروم، ويخشى المسلمون من وصول إمدادات رومية عن طريق غور الأردن لضرب خطوط امداداتهم القادمة من الحجاز وإرباك قواتهم التي كانت تستعد لمعركة فاصلة بينها وبين الروم. وكانت أهم المدن في غور الأردن هي: طبرية وبيسان وفحل، فأما طبرية فإن شرحبيل فتحها صلحاً بعد حصار ايام، فأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم، ومنازلهم، ألا ما جلوا عنه وخلوه[2]. أما بيسان فإن شرحبيل

(١) يوسف غوانمة، اضرحة الصحابة في غور الأردن، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦م، ص٥١.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٢٣.

فتحها مع بقية مدن الأردن بغير قتال، ولم يبق من مدن غور الأردن إلا مدينة (فحل) الواقعة في الجهة الشرقية من غور الأردن في موقع استراتيجي تتحكم بخط المواصلات والاتصالات الواصل بين دمشق وشمال الأردن الحالي، وبيت المقدس عبر وادي الأردن، ومن هنا كان على المسلمين فتحها حتى يصبح الطريق ميسراً وتحت سيطرتهم الكاملة.

وقعت معركة فحل في يوم الاثنين ٢٨ ذي القعدة ١٣هـ/ ٢٣ كانون ثاني ٦٣٥م. وكانت قوات الروم قد تجمعت في بيسان فقدمت القوات الإسلامية بقيادة أبي عبيده عامر ابن الجراح لقتالهم. فاحتاط الروم لأنفسهم، وكانوا على الجانب الغربي من نهر الأردن، ففجروا القنوات والجسور التي على نهر جالود شمال بيسان، فأصبحت الأرض سبخة كثيرة الوحل، مما أعاق تقدم القوات الإسلامية. فاتجه المسلمون إلى فحل، وهي مدينة جليلة في غور الأردن، فحاصروها حصاراً شديداً. وكان أبو عبيدة على المقدمة وقواته في معظمها من الفرسان، أما معاذ بن جبل فكان قائد الميمنة، وهاشم بن عتبة على الميسرة، وسعيد بن زيد بن عمرو على المشاة[١].

اصطفت القوات الإسلامية حول فحل تحاصرها «وكان أول محصور بالشام أهل فحل، ثم أهل دمشق»[٢]. وكانت قوات الروم حسب رواية الطبري ثمانين ألفاً، فقاتلهم المسلمون أشد قتال منذ وصولهم إلى بلاد الشام[٣]. فانهزم الروم ودخلوا السبخة فوحلوا، فلحقهم المسلمون فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة في فحل، وكان مقتلهم في الرداغ (السبخة الموحلة)، فأصيب الثمانون ألفاً، لم يفلت منهم إلا الشريد، هكذا روى الطبري[٤]. وفي معركة فحل هذه انضمت القبائل العربية التي كانت تسكن الشام إلى الجيوش الإسلامية، وهم بطون من لخم، وجذام، وغسان، وعاملة، والقين، وقبائل قضاعة.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٤٤٢)، ابن عساكر، التهذيب (١/ ١٤٥).

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٤٣٨).

(٣) الطبري، المصدر السابق (٣/ ٤٤٣)، وانظر البلاذري، فتوح البلدان ص١٢٢.

(٤) الطبري، المصدر السابق (٣/ ٤٤٣). ابن الأثير، الكامل (٢/ ٤٣٠) وانظر ابن عساكر، التهذيب (١/ ١٤٥) والنويري، نهاية الأرب (١٩/ ١٦٠).

وباستيلاء المسلمين على منطقة الأغوار من طبرية إلى البحر الميت، وعلى منطقة الأردن الحالية، يكونوا قد امّنوا خطوط إمداداتهم، وجعلوا مهمة اتصالهم بغرفة العمليات بالمدينة ميسرة وسهلة دون اعتراض من الروم. بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يحكمون السيطرة التامة على أي تحرك للقوات الرومية الموجودة في فلسطين، وأن بمقدورهم منع أي إمدادات أو قوات رومية قادمة من هناك. كما أن ايلياء (القدس) أصبحت معزولة عن الروم في الشام وإنطاكية، وهٰكذا فإن القوات الإسلامية صارت مرتاحة حيث انها أصابت من ريف الأردن أفضل ما فيه، من ناحية الميرة والأقوات لأن الأراضي الخصبة تحت سيطرتهم، فهم والحالة هٰذه في رغد ويسر[١]. وهٰذا ما خطط له القادة العسكريون وهو عزل دمشق وإنطاكية في شمال الشام عن فلسطين والقدس، بالإضافة إلى جعل خطوط إمداداتهم واتصالاتهم بالحجاز، تحت هيمنتهم المباشرة.

معركة اليرموك:

حدثت معركة اليرموك بين القوات الإسلامية وقوات الروم في منطقة الجولان، وفي مكان واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب. وكان الروم قد نزلوا بالواقوصة، وهي على ضفة اليرموك، وأقبل المسلمون فنزلوا عليهم بحذائهم[٢].

بدأت المعركة في ٦ رجب ١٥هـ/ ١٢آب ٦٣٦م، واستمرت ستة ايام، فكان اليوم الأول يوم البراز والحرب اليسيرة، اما الثاني فكان يوم المباغتة، وكان اليوم الثالث هو يوم الجرحى، واليوم الرابع هو يوم التعوير، أما اليوم الخامس فهو يوم اليرموك، يوم النصر والحسم، وكان اليوم السادس يوم المطاردة وانتهاء المعركة، وكان ذلك في ١٨

---

(١) الطبري، المصدر السابق (٣/٤٤٢).

(٢) الطبري (٣/٣٩٣)، ابن عساكر، التهذيب (١/١٤٧، ١٦٠، ١٦١، ١٧٣)، النويري، نهاية الأرب، ج١٩، ص١١٧، العطن: مبارك الإبل عند الماء (مختار الصحاح) أي انه مكان يصلح لحركة الخيالة بسهولة ويسر.

اللهب: وجه من الجبل كالحائط لا يرتقى (المعجم الوسيط) وانظر الواقدي، فتوح الشام، ١/٢٢٦-٢٢٧.

رجب ١٥هـ/ ٢٤ آب ٦٣٦م، لأن الأيام من ٧-١٣ رجب/ ١٣-١٩ آب لم يحدث فيها قتال بل كانت أيام تريث وانتظار[١].

ومن الجدير بالملاحظة أن الأيام الأربعة الأولى كانت في الجولان، أما اليوم الخامس فكان معظمه في وادي اليرموك، من المنطقة الممتدة من الحمراء شرق المخيبة الحالية إلى وادي قويبله شرق قرية عقربة. وقد حدث معظم هٰذه المعركة في وادي الرقاد ومنطقة وادي خالد الحالية، بدليل وجود مقابر جماعية منتشرة في طول الوادي (فيما يسمى بالزور). نجد إحداها قرب الحمراء شرق مخفر شق البارد، وأخرى في وادي خالد شرقي محطة سكة الحديد الحالية. وهناك عدد من المقابر المنتشرة في وادي اليرموك بين وادي خالد ووادي قويلبه، ومعظم هٰذه الأراضي هي أراض أردنية. لذا فأهم يومين من المعركة كانا الخامس والسادس حيث ضغطت القوات الإسلامية على جيش الروم فوقص اي نزل في وادي اليرموك هارباً أمام عنفوان وحدة القتال. وقد اندفعت القوات الإسلامية خلفهم في اليوم السادس فنالت منهم قتلاً واسراً، وكان النصر حليفهم[٢].

وهٰكذا فإن المسلمين لم يصطدموا بمعركة فاصلة هائلة مع قوات الروم إلاّ بعد أن هيأوا لذلك، وخططوا من أجله. فقد كان احتلال منطقة الأردن جميعها والسيطرة عليها الهدف الأول للقوات الإسلامية، ثم اتبعوا ذلك باحتلال غور الأردن والسيطرة على أهم مدنه، طبرية، وبيسان، وفحل. وبذلك أصبحت منطقة الأردن الحالية بوابة الفتوحات الإسلامية وركيزتها ونقطة انطلاق متقدمة للقوات الإسلامية. منها تتقدم إلى دمشق ثم إلى القدس واحتلال الشام كله من إنطاكية حتى عسقلان. ولم تفقد هٰذه المنطقة أهميتها الاستراتيجية طيلة العصور التالية، فالأردن ظل على مدى العصور أكثر منطقة مؤثرة على فلسطين والقدس، وهي خط الدفاع الأول عن دمشق في مواجهة أي خطر قادم

---

(١) يوسف غوانمة، معركة اليرموك، دار هشام، اربد، ١٩٨٥، ص٤٩-٧٣.
انظر الواقدي، فتوح الشام (١/ ٢٠٨-٢٠٩، ٢١٧).

(٢) ابن عساكر، التهذيب (١/ ١٧٠).
يوسف غوانمة، معركة اليرموك، ص٧٣.

عبر نهر الأردن. كما أنها تعتبر خط الدفاع الأول عن الحجاز والمقدسات الإسلامية في مكة والمدينة[١].

دللت معركة اليرموك على القدرات اللامحدودة للاستراتيجية الإسلامية، فقادة الفتح، كانوا على درجة عالية وكفاءة ممتازة في وضع الخطط العسكرية والتعبوية في مواجهة القوة الرومية الكثيفة. واكدت أن القادة المسلمين كانوا على دراية تامة بكل الطبوغرافية الشامية وجغرافيتها. فكان اختيار موقعة اليرموك اختياراً موفقاً يسمح لهم بحرية المناورة، والاتصال مع خطوط إمداداتهم، وتأمين تلك الخطوط من تدخل العدو، بحيث كانت الإمدادات متواصلة، سواء من الحجاز أو من منطقة الأردن التي كانت بأيديهم، وهي منطقة خصبة زودت الجيوش بالمؤن والعتاد. أضف إلى ذلك أن معركة اليرموك، أظهرت سلامة التخطيط والاختيار، ففي اليرموك، فرض القادة المسلمون مكان وزمان المعركة، فكان العمل مدروساً منسقاً بين القادة، مما يدلل على مرونة الخطة، وكفاءة المقاتل، أما أهم نتيجة من نتائج هٰذه المعركة فهي إنها أنهت الوجود الرومي (البيزنطي) من بلاد الشام نهائياً.

توجه أبو عبيدة إلى القدس عن طريق غور الأردن، فحاصرها وشدد عليها الحصار،

---

(١) عن الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الأردن واثر ذلك على القدس ودمشق وشمال الحجاز في العصر الإسلامي أنظر:
- يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ط٢، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.
- يوسف غوانمة، التاريخ السياسي لمنطقة شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، ط٢، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.
- يوسف غوانمة، أيلة (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتهما التاريخية والاستراتيجية، دار هشام، اربد، ١٩٨٤م.
- يوسف غوانمة، عمان (حضارتها وتاريخها) دار اللواء، عمان ١٩٧٩م.
- يوسف غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥.
- يوسف غوانمة، الحسين بن علي الملك والثائر، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥م.
- يوسف غوانمة، صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م.
- يوسف غوانمة، الأردن وفلسطين وتحديات المشروع النهضوي، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م.

وأخيراً قبل أهل القدس الصلح بشرط أن يعطيهم الخليفة عمر بن الخطاب الأمان بنفسه. فأرسل أبو عبيدة لعمر بذلك، فتوجه الخليفة عمر إلى الشام ودخل القدس بالأمان في ربيع الآخر ١٦هـ/ آيار ٦٤٠م[١].

وفي سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م أصاب الطاعون بلاد الشام، فاهلك أعداداً كبيرة من سكانها، وطعن جيش المسلمين وهم بفلسطين. وقتل الطاعون منهم بين عشرين إلى خمسة وعشرين ألف مقاتل، وسمي هٰذا الطاعون بطاعون عمواس. وكانت قوات المسلمين قد تواجدت في غور الأردن، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب رسالة إلى أبي عبيدة جاء فيها: «سلام عليك، أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضاً عمقة (وفي نص آخر عميقة) فأرجعهم إلى أرض مرتفعة نزهة». وفي رواية أخرى قال الخليفة لأبي عبيدة: «أن الأردن أرض عمقة، وأن الجابية أرض نزهة، فاظهر بالمسلمين إلى الجابية». فبعد وصول الرسالة توجه أبو عبيدة بالمسلمين إلى حوران حيث الجابية عن طريق الأقحوانه أي مرتفعات شمال الأردن. ولكن المنية وافته في قرية (عمتا) بغور الأردن وكان ذلك في شهر ربيع الأول ١٨هـ/ آذار ٦٣٩م، ودفن هناك[٢]. وقد أقيم على قبره مسجد جدده ورممه الخلفاء والسلاطين طيلة العصور الإسلاميةو كان آخرها في عهد جلالة المغفور له الملك الحسين بن طلال طيب الله ثراه. أما الافتتاح فهو في عهد نجله الشريف الهاشمي جلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين في ذكرى المولد النبوي الشريف الذي يصادف يوم الجمعة ١٢ ربيع أول ١٤٢٠هـ/ ٢٥ حزيران ١٩٩٩م.

---

(١) الواقدي، فتوح الشام (١/٢٣٨-٢٣٩، ٢٤٢)، الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/٦٠٨-٦٠٩، البلاذري، المصدر السابق، ص١٤٤، ابن الأثير، الكامل (٢/٤٩٩-٥٠١)، ابن عساكر، التهذيب (١/١٧٥-١٧٧)، وانظر النويري، نهاية الأرب (١٩/ ١٧١-١٧٢).

(٢) الطبري، المصدر السابق (٤/٦١) وانظر:
- البلاذري، المصدر السابق، ص١٤٥.
- يوسف غوانمة، مقامات الصحابة في الأردن، منشورات وزارة الشباب، ١٩٩٥، ص٦٣.
- ابن الأثير، الكامل (٢/٥٥٩).
- النويري، نهاية الأرب (١٩/٣٥٥).

عمتا: قرية في وسط غور الأردن بها قبر أبو عبيده، ويعمل بها النيل الفائقة (ياقوت، ٤/ ١٥٣).

الموضوع الثالث

التمهيد لمعركة مؤتة في مشارف الشام



التمهيد لمعركة مؤتة في مشارف الشام

أحاط بالجزيرة العربية مع بزوغ فجر الإسلام في القرن السادس الميلادي قوتان عظميان هما: الدولة البيزنطية والدولة الفارسية، ولم تكن العلاقات بينهما سلمية، فقد نشبت الحروب بينهما مراراً، حتى أن الفرس تمكنوا في عهد الملك (قباذ) سنة ٥٠٢م من اجتياح الإمبراطورية البيزنطية وانتزعوا بعض أملاكهم، ومع أن الحروب بينهما كانت دامية ألا إنها لم تكن حاسمة، فلم يتمكن أحدهما من إحراز نصر حاسم على خصمه[١].

واعتلى عرش فارس بعد قباذ الملك انوشروان وهو كسرى الأول، وكان معاصراً للإمبراطور البيزنطي جستنيان، وكانت العلاقات بينهما عدائية فقد نشبت الحرب بينهما مدة اثنين وعشرين سنة (٥٤٠ إلى ٥٦٢م)، تمكن الفرس خلالها من اجتياح سوريا والاستيلاء على إنطاكية ونهبها[٢]. ولم يتمكن جستنيان من حل المشاكل التي تواجه الإمبراطورية، والتي تمثلت بالغزوات الخارجية من الفرس والهون[٣]، بالإضافة إلى عوامل طبيعية أخرى كالطاعون الذي أصاب الإمبراطورية البيزنطية سنة (٥٤٢م) وافنى ثلث سكانها، هذا إلى جانب عوامل أخرى داخلية أدت إلى انحلال الدولة كتفشي الاختلاس في الدولة والاستيلاء على المال العام، حتى أنه لم يصل خزانة الدولة إلا النزر اليسير. أضف إلى ذلك كله ان الملل والوهن نال من جستنيان نفسه في آخر عهده، فكل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى اضمحلال القوة البيزنطية وتراجعها[٤].

---

(١) فشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والباز العريني، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٦٩،(١/٣٢).

(٢) فشر، المرجع السابق (١/٤٨).

(٣) الهون: قبائل متبربرة غير متحضرة قدمت من أواسط آسيا باتجاه أوروبا وبعض مناطق آسيا (فشر، المرجع السابق، ١/ ٣٢-٣٣).

(٤) فشر المرجع السابق (١/ ٥٤).

جوزيف نسيم، تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص٨٣، ٨٤. =

ولا بد من أن ننوه إلى أن الصراع المذهبي الذي استشرى في الإمبراطورية البيزنطية، كان له أثره على الدولة والبلاد. فقد اختلف المسيحيون في الشرق والغرب حول الطبيعتين الإلهية والبشرية في السيد المسيح، وهل للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان؟؟ وهل كانت السيدة مريم أماً للمسيح من حيث طبيعته البشرية، أم إنها أم المسيح من حيث طبيعته البشرية والإلٰهية معاً؟؟. وقد ثار الجدل عنيفاً في العالم المسيحي في القرن الخامس الميلادي حول مسألة الطبيعة الواحدة، والطبيعة المزدوجة. وقد أقر مجمع خلقدونية الذي عقد عام ٤٩١م عقيدة الطبيعة المزدوجة وأيد ذلك بابا روما. أما أهل الشرق وهم أهل القسطنطينية ومصر والشام والعراق فقد ظلوا على عقيدة الطبيعة الواحدة، لذلك اعتبر مذهبهم بدعة وهرطقة[١]، فأعلنوا معارضتهم لهٰذا القرار.

كان على أباطرة القسطنطينية مسايرة مذهب الطبيعة الواحدة الذي خرج من مصر في بداية الأمر وانتشر منها إلى بقية المناطق، إلا أن بعض الأباطرة تعصبوا لمذهب الطبيعتين ومنهم جستنيان الذي عامل معتنقي هٰذا المذهب بقسوة. فعانى هٰؤلاء من الصراع المذهبي فاضطهدوا وقتل الكثيرون. وقد أدى هٰذا الاضطهاد إلى اتساع الخلاف داخل الإمبراطورية البيزنطية. وكان من نتائجه ضعف الولاء للإمبراطورية ولا سيما في مصر والشام. وهٰكذا فقد أصبحت الظروف مهيأة لقبول عقيدة جديدة، وقوة جديدة والتمهيد للولاء لها[٢].

بدأت الدولة البيزنطية تضعف بعد جستنيان نتيجة لظروفها الداخلية المتردية التي أشرنا إليها، مما دعا إلى ثورة القائد فوكاس Phocas ضد الإمبراطور موريق Mourice الذي هرب إلى نيقوميديا، وطلب المساعدة من ابرويز كسرى فارس. ولكن فوكاس تمكن من

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٦٤، عمر فروخ، العرب والإسلام، المكتبة التجارية، بيروت، ط٢، ١٩٦٦م، ص٢٨.

(٢) فشر، المرجع السابق (٥٨/١)، جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٨٤.

موريق وابنه، واغتصب السلطة، وترتب على ذلك الكثير من الفتن والاضطرابات، بحت البلاد مسرحاً للفتن والثورات، واستمر ذلك طيلة حكمه الممتد من ٦-٦١٠م). أما في الخارج فقد هاجم ابرويز الثالث الإمبراطورية البيزنطية سنة ٠م، واجتاحت قواته أرمينية وسوريا وفلسطين، فقتل العديد من المواطنين ودمر ير من المنشآت العمرانية في تلك البلاد[١].

زاء ذلك قام القائد البيزنطي هرقل والي أفريقية، فأعلن الثورة على فوكاس، جدت ثورته هٰذه التأييد من زعماء بيزنطة وقادتها، فطلبوا منه القدوم إلى القسطنطينية. سل ابنه الشاب (هرقل) بدلاً منه، فقدم إلى القسطنطينية بأسطول كبير، فاستولى عليها اعدة من أهلها الغاضبين على فوكاس، فألقى هرقل الابن القبض على فوكاس لمه للأهالي فقتلوه في تشرين أول ٦١٠م، وفي نفس اليوم توج الشاب هرقل اطوراً على بيزنطة[٢].

عانت الإمبراطورية البيزنطية الكثير في عهد هرقل، فقد تمكن الفرس من اجتياح بلاد ام فاستولوا على دمشق سنة ٦١٣م، وعلى بيت المقدس سنة ٦١٤م، واستولوا على شبة صليب الصلبوت فنقله كسرى الثالث إلى بلاده[٣]، وقد اعتبر ذلك العمل ضربة ية وجهت للعالم المسيحي كله، فعم الغضب عامة الشعب البيزنطي، فأصابهم الذعر لخوف واعتبروا ذلك بداية لأفول الإمبراطورية[٤]. وقد شجعت هٰذه الانتصارات فرس لأن يتقدموا نحو القسطنطينية نفسها، فوصلوا سواحل بحر مرمرة سنة ٦١٥م، أما صر فقد تم فتحها سنة ٦١٦م. ولم يجد الفرس مقاومة من المصريين، بل وجدوا ترحيب منهم[٥]، والسبب هو كرههم للحكم البيزنطي نتيجة لما عانوه جراء الصراع

---

١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٩٣، ٩٨.
٢) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٩٩.
٣) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص١٠٢، عمر فروخ، المرجع السابق، ص٢٦، ٢٧.
٤) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص١٠٢.
٥) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص١٠٣.

المذهبي وتعسف حكامهم بالأهالي وتراجع اقتصادهم بسبب حروبهم مع الفرس، وهٰذا الترحيب نفسه سيلقاه العرب المسلمون عندما يفتحون الديار المصرية فيما بعد.

إلا أن هرقل تمكن بتأييد شعبي مستعد للتضحية وبمباركة من الكنيسة ورجال الدين، من أن يجيش الجيوش ويتقدم نحو القوات الفارسية، وتمكن من هزيمة القائد الفارسي شهر بارز Shahrbarz. ثم تقدم فهزم قوات كسرى الذي التجأ إلى عاصمته (المدائن)، فحاصرها هرقل واستولى عليها، وألقى القبض على كسرى وابنه وعلى عدد من كبار رجال الدولة، إلا أن صلحاً عقد بين الطرفين، به تمكن هرقل من أن يملي شروط الصلح التي يريدها، ثم عاد هرقل إلى بلاده ومعه صليب الصلبوت، فأعاده باحتفال مهيب إلى القدس، وهكذا انتهت الحروب البيزنطية الفارسية سنة ٦٢٨م[١].

وكان من نتائج هٰذه الحروب أن استشرى الفساد والتفكك في الدولتين وعانى العامة من الظلم والقتل وسفك الدماء الشيء الكثير، وقد أدى ذلك إلى فساد العسكرية وإعطاء المراكز الكبرى في الجيش لمن لا يستحقها. أضف إلى ذلك المعاناة التي تعرض لها المواطنون في الشام ومصر من جراء الصراع المذهبي وأخذ الجميع يتطلعون إلى الخلاص من ظلم أحاق بهم وصاروا ينتظرون ساعة الفرج والانعتاق من الظلم الاجتماعي الواقع عليهم. وكان الإسلام هو المخلص لهٰذه الشعوب، فما أن بزغت إشعاعاته في الحجاز على يد النبي العربي محمد ﷺ حتى تنادى الناس في السؤال عن كنه هٰذا الدين الجديد، وأخذوا يتطلعون بشغف إلى معرفته فهمه.

بدأت الرسالة الإسلامية ترسي قواعدها في الحجاز، وتمكن النبي ﷺ بعد معاناة من قريش واليهود والمنافقين من تثبيت ركائز هٰذا الدين الجديد في الجزيرة العربية كلها. وأخذ ينظم أمور دولته، ويدعو الناس للدخول في الإسلام بصرف النظر عن قبائلهم وأجناسهم وبهٰذا يبدأ الدور السياسي من الدعوة، فقد اتخذ النبي ﷺ فيه شخصية سياسية

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص١٠٦.

إلى جانب شخصيته الدينية[١]. وكان نظام الدولة التي أقامها في المدينة من نوع جديد، فهو يجمع بين الشورى والحكم المطلق، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وهٰكذا فإننا نستطيع القول بأن هٰذه الدولة الناشئة جمعت بين حكم العلماء والفقهاء والجماعة الإسلامية، فالنظام في إطاره ديني، يرتكز على الأوامر والأحكام العامة المنزلة من الله، ولكنه في التفاصيل والتطبيق شوري (جماعي) [اي بمعنى حديث ديموقراطي]. ولا شك أن هٰذه الدولة فذة في تاريخ البشرية، فبالرغم من قيامها على أسس دينية، إلا أنها أقرت مبدأ حرية الأديان، ورعته وتعهدته. كما أقرت مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحاً وإنسانية. وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم، وبذلك أصبح النبي ﷺ في المدنية زعيم جماعة سياسية[٢].

وقد نظم النبي ﷺ بهٰذه الصحيفة العلاقات بين المسلمين أنفسهم مهاجرين وأنصاراً وبينهم وبين اليهود، الذي بقي موقفهم غامضاً من هٰذه الدولة رغم اعترافهم العلني بها، ولذلك فإن ما جاء في الصحيفة عن اليهود يمثل الاتجاه العالمي في الدعوة[٣]. وبعد أن نظمت الصحيفة التخطيط العام للأمة، اصبحت مهمة النبي ﷺ السياسية تنحصر في الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها، وقد برز الجهاد لتثبيت الإسلام ودولته في المدينة. ولما كانت دعوة الإسلام للناس كافة، كان لا بد من إيصالها للعالم خارج نطاق الجزيرة العربية، وكان المجال الحيوي لدولة المدينة هو باتجاه الشمال أي نحو بلاد

(١) أحمد إبراهيم الشريف، الدولة الإسلامية الأولى، دار العلم، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢.

(٢) جاء في الصحيفة (وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أنه مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي، دار الكنوز الأدبية، بيروت (ب - ت) القسم الأول، (١/٥٠٣).

(٣) ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٠٦.

فارس وبلاد بيزنطة في الشام. ومن هنا بدأ النبي ﷺ يرسل السرايا والبعوث نحو تلك المناطق للوقوف عن كثب على القدرات العسكرية لهاتين الدولتين، وللتعرف على طبيعة الارض وجغرافيتها، وللاتصال بالقبائل العربية القاطنة في مشارف الشام التي كان لها علاقاتها مع عرب الحجاز، علاقات قربى وتجارة، حتى أن بعض زعماء تلك القبائل دخل الإسلام سراً وكانت له اتصالاته مع النبي ﷺ في المدينة[1] نذكر منهم: رفاعة ابن زيد الجذامي من قبائل جذام التي كانت تسكن جنوب الأردن الحالي، فقد قدم رفاعة إلى النبي ﷺ وافداً، فأهدى لرسول الله غلاماً وأسلم فحسن إسلامه. وأجازه النبي ﷺ وأقام في المدينة، ثم سأل النبي أن يكتب معه كتاباً إلى قومه، فكتب له رسول الله كتاباً هٰذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد، أني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله فمن أقبل فمن حزب الله وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين.

فلما قدم رفاعة على قومه بكتاب رسول الله ﷺ قراه عليهم، فأجابوه وأسلموا. وهٰكذا فقد دخل الإسلام إلى بلاد الشام عن طريق أطراف أفواه بلاد الشام (شرقي الأردن الحالي) وقبائلها. وقد كان البيزنطيون يراقبون المد الإسلامي في منطقة شرقي الأردن التي أصبحت بوابة الفتح ومنطلق التحرير للديار الشامية والمصرية من السيطرة البيزنطية.

ولم يقف الأمر عند ذلك فقد قام بعض عمال (ولاة) البيزنطيين من عرب جنوب الأردن الحالي الدخول في الإسلام سراً رغم معارضة الدولة البيزنطية. فهٰذا فروة بن عمرو النافرة الجذامي الذي كان مقره في مدينة (معان) أرسل إلى النبي ﷺ هدية مع

(١) يوسف غوانمة، مقامات الصحابة في الأردن منشورات وزارة الشباب، عمان - الأردن، ١٩٩٥م، ص١٨، ١٩.

مسعود بن سعد، ومعه رسالة هٰذا نصها:

لمحمد رسول الله

أني مقر بالإسلام مصدق به، أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، أنت الذي بشر بك عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

فقبل النبي ﷺ هدية فروة وأرسل إليه هدية ورسالة مع مسعود بن سعد هٰذا نصها:

من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو

أما بعد فقد قدم علينا رسولك، وبلغ ما أرسلت به، وخبر عما قبلكم وأتانا بإسلامك، وإن الله هداك بهٰذه إن أصلحت وأطعت الله ورسوله، وأقمت الصلا وأتيت الزكاة.

وهٰكذا فقد كانت مدينة (معان) أول مدينة شامية دخل إليها الإسلام على يد عامل فروة. أما فروة نفسه فقد ألقى البيزنطيون القبض عليه، وطلبوا منه أن يرتد عن دينه فرفض، عندئذ اقتادوه إلى (عفراء) قرب الطفيلة الحالية وشنقوه هناك، فكان فروة أو شهيد شامي في الإسلام[1].

السرايا والبعوث:

رأى النبي ﷺ أن لا بد من إرسال الطلائع إلى بلاد الشام المتمثلة بالسرايا والبعوث لأن تلك البلاد هي الأكثر قرباً وأهمية للحجاز ولأنها تعتبر المجال الحيوي لدولة الرس في المدينة، وأن أي توسع لهذه الدولة خارج الحجاز لا بد أن يكون باتجاه الد الشامية، أضف إلى ذلك أنه اراد الوقوف على أحوال البلاد والقبائل العربية الساكنة مشارفة (شرق الأردن الحالي). وليتعرف على ماهية تلك القبائل وفرض هيبته وه دولته عليهم، وليتأكد المسلمون من العقيدة العسكرية البيزنطية التي كان يهابها العر

(١) يوسف غوانمة، مقامات الصحابة، ص١٩، ٢٠.

ويحسبون لها حسابها. وهٰكذا فقد كانت السرايا العديدة المتلاحقة ذات أغراض محددة، واعداد مدروسة، القصد منها دراسة الأحوال في تلك المناطق من جميع النواحي، وللتعرف على طرقها ومسالكها وجغرافيتها وتضاريسها ومناخها البارد شتاء تمهيداً لعمل عسكري تلتحم به قوات المسلمين بقوات بيزنطة في أول معركة خارج نطاق الحجاز كان النبي ﷺ يخطط لها ويعد العدة لتنفيذها، وهٰذه السرايا والبعوث هي:

١- غزوة دومة الجندل:[١]

قاد الرسول ﷺ هٰذه الغزوة بنفسه سنة ٤هـ/ ٦٢٥م وكان قد بلغه أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم يظلمون من مر بهم، وأنهم يريدون الدنو من المدينة. ودومة كما ذكر النويري هي طرف من أفواه الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشر ليلة. وخرج الرسول لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول في ألف من المسلمين، فكان يسير في الليل ويكمن في النهار، ومعه دليل من بني عذره. فلما علم أهل دومة بقدوم الرسول ﷺ هربوا وتفرقوا، فأصاب المسلمون ماشيتهم. فأقام بها أياماً وبث السرايا وفرقها، فرجعت ولم تصب أحداً، ثم رجع الرسول إلى المدينة لعشر بقين من شهر ربيع الآخر[٢].

٢- سرية زيد بن حارثة إلى حسمى[٣]:

بعث الرسول ﷺ في جمادى الآخرة من سنة ٦هـ/ ٦٢٧م سرية بقيادة زيد بن حارثة إلى حسمى من جنوب الأردن الحالي. وذلك لأن عوص بن الهنيد ومعه جمع من قبائل جذام، قطعوا الطريق على (دحية بن خليفة الكلبي) الذي أرسله الرسول ﷺ بكتاب إلى قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام. فأخذوا ما معه، ولم يتركوا عليه إلا سمل ثوب كما ذكر

---

(١) سميت بدوم بن إسماعيل وهي بضم الدال وهو حصن وقرى بين الشام والمدينة به بنو كنانة من كلب (ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ٤٨٧).

(٢) النويري، نهاية الأرب (١٧/ ١٦٣) وانظر ابن هشام، السيرة، القسم الثانيو ص٢١٣.

(٣) حسمى: بالكسر ثم السكون، أرض ببادية الشام قريبة من وادي القرى وإيلة وهي لقبائل جذام بها جبل يعرف بارم عظيم العلو (ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ٢٥٨-٢٥٩).

النويري. وسمع بذلك جماعة من أتباع رفاعة بن زيد الذي أسلم وراسل الرسول بذلك، واستنقذوا لدحية متاعه. ولما قدم دحية إلى رسول الله أخبره بذلك، فأرسل سرية من خمسمائة رجل بقيادة زيد بن حارثة، واصطحب معه دحية ودليلاً من بني عذره. فأغار على القوم وقتل منهم عدداً وأسر آخرين. وأخذ زيد الف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء والصبيان مائة.

وعندما علم رفاعة بن زيد الجذامي سار إلى المدينة ودفع إلى رسول الله بالكتاب الذي كتبه رسول الله إلى قومه من جذام يدعوهم إلى الإسلام. فقال رفاعة لرسول الله: يا رسول الله أطلق لنا من كان حياً، فبعث رسول الله معهم علي بن أبي طالب إلى زيد بن حارثة وطلب منه أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم، فلما وصل علي أبلغه أمر رسول الله فرد عليهم كل ما كان أخذ منهم[1].

٣- سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى:

وادي القرى هو واد بين المدينة والشام فيه قرى كثيرة ونخل وزروع، وقد أرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة زيد بن حارثة في شهر رجب سنة ٦هـ/٦٢٧م، وليس هناك تفاصيل عن هٰذه السرية كما أشار النويري[2].

٤- سرية عبد الرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل:

أرسل الرسول ﷺ سنة ٦هـ/٦٢٧م عبد الرحمٰن بن عوف إلى قبيلة كلب في دومة الجندل، وقال له: اغز بسم الله وقاتل في سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تغل (تخون)، ولا تغدر، ولا تقتل وليداً. فسار عبد الرحمٰن بن عوف حتى وصل إليهم

---

(١) النويري، نهاية الأرب (١٧/٢٠٧-٢٠٨).
وادي القرى، واد بين المدينة والشام كثير القرى سكانها من يهود به نخل وزروع (ياقوت، معجم البلدان، ٥/٣٤٥).

(٢) النويري، المصدر السابق (١٧/٢٠٨).

وكان نصرانياً وهو رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وصاروا يعطون الجزية لرسول الله ﷺ[١].

٥- سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى:

وكانت هٰذه السرية سنة ٦هـ/ ٦٢٧م، وذلك أن زيد بن حارثة خرج في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ﷺ، فلما كان قرب وادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم، فأرسله الرسول بسرية وسار بقواته فلما وصل زيد إلى فزارة هاجمهم وأصحابه فقتلوا منهم عدداً وأسروا (أم قرفة) وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر وابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة[٢]. فقتل زيد أم قرفة لسبها رسول الله ﷺ، ولأنها جهزت ثلاثين فارساً من أولادها وأبنائهم وقالت لهم: اغزوا المدينة واقتلوا محمداً[٣].

٦- غزوة رسول الله ﷺ إلى وادي القرى:

ولما فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر سنة ٧هـ/ ٦٢٨م انصرف إلى وادي القرى، فلما رأوا رسول الله ومن معه استقبلهم يهود وادي القرى ومعهم بعض العرب بالسهام من داخل حصونهم. فشدد المسلمون هجومهم وقتلوا منهم اثني عشر رجلاً عن طريق المبارزة. وأخيراً تمكن الرسول ﷺ من فتحها عنوة وغنم أموالهم، وأصاب المسلمون أثاثاً ومتاعاً كثيراً. وقد أقام الرسول ﷺ أربعة أيام بوادي القرى، وقسم ما أصاب على أصحابه وترك الأرض والنخيل بأيدي يهود، وعاملهم عليها. ولما علم يهود تيماء ما حل بخيبر ووادي القرى صالحوا الرسول ﷺ على الجزية[٤].

---

(١) النويري، المصدر السابق (١٧/ ٢٠٩).

(٢) النويري، المصدر السابق (١٧/ ٢١٠).

(٣) النويري، نهاية الأرب (١٧/ ٢١١).

(٤) النويري، المصدر السابق (١٧/ ٢٦٩).

٧- سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات اطلاح:

بعثه رسول الله ﷺ سنة ٨هـ/ ٦٢٩م في خمسة عشر رجلاً إلى ذات اطلاح[١] من أرض الشام، وهي من وراء وادي القرى، فوجدوا جمعاً كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا ورشقوهم بالنبال. عندئذ قاتلهم المسلمون قتالاً شديداً حتى قتلوا جميعاً، وتمكن جريح من النجاة وعاد إلى المدينة وأخبر رسول الله ﷺ بما حدث، فشق عليه ذلك، وأراد أن يرسل إليهم جنداً آخرين إلا أن الأنباء وصلته بأن هٰؤلاء قد رحلوا إلى أماكن متفرقة، فتركهم[٢].

٨- سرية مؤتة:

ومؤتة كما يقول النويري هي بأدنى البلقاء بالقرب من الكرك[٣] وكانت هٰذه السرية في جمادى الأولى من سنة ٨هـ/ ٦٢٩م، وسبب بعث هٰذه السرية أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى صاحب بصرى (من أرض حوران) بكتاب. فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، فقتله، ولم يقتل لرسول الله ﷺ غيره، فاشتد ذلك عليه وأرسل هٰذه السرية المؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل، وقال: أمير القوم زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم[٤].

٩- سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلال[٥]:

وذات السلال هي وراء وادي القرى من أرض جذام، وكانت هٰذه السرية في شهر

---

(١) ذات اطلاح: موضع من وراء وادي القرى من أرض الشام (ياقوت، معجم البلدان، ١/ ٢١٨).

(٢) النويري، المصدر السابق، (١٧/ ٢٧٧).

(٣) النويري، المصدر السابق، (١٧/ ٢٧٧).
وذكرها النويري (سرية) ولم يقل غزوة، ١٧/ ٢٧٧، وانظر ابن هشام السيرة، (٢/ ٣٧٣-٣٨٨).

(٤) النويري، المصدر السابق، (١٧/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٥) ذات السلال: جمع سلسلة، ماء بأرض جذام في مشارف الشام (ياقوت، معجم البلدان (٣/ ٢٣٣).

جمادى الآخرة سنة ٨هـ/ ٦٢٩م، أي بعد شهر من سرية او (غزوة) مؤتة. وسبب هٰذه السرية أن الأخبار وصلت إلى المدينة بأن جموعاً من قضاعة القاطنة في مشارف الشام تريد الدنو من أطراف دولة الرسول في المدينة. فعقد الرسول ﷺ اللواء لعمرو بن العاص وبعثه في ثلاثمائة مقاتل، وأمره أن يستعين بمن يمر به من القبائل العربية التي أسلمت، والذين يسكنون جنوب الأردن الحالي. فلما وصل إلى مشارف الشام علم أن لهم جموعاً كثيرة، فأرسل إلى رسول الله بذلك، فأمده في مائتين من المسلمين عليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح. فسار عمرو بقواته حتى وطىء بلاد بلي ودوخها حتى أتى إلى قصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين، فانهزمت جموعهم وتفرقوا في البلاد[١].

١٠- سرية أبي عبيدة عامر بن الجراح إلى سيف البحر:

وسيف البحر أي ساحل البحر الأحمر، وكانت هٰذه السرية في رجب من سنة ٨هـ/ ٦٢٩م بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، ومعه ثلاثمائة من المقاتلين، بعثه رسول الله ﷺ إلى حي من جهينة، وقد أدت هٰذه السرية مهمتها ولم يلقوا كيداً[٢].

١١- غزوة تبوك:

وكانت في شهر رجب سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، قادها رسول الله ﷺ، وذلك عندما بلغه أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد جيش قواته ومعهم من القبائل العربية من متنصرة الشام: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، ووصلت طلائعهم إلى البلقاء. فندب الرسول ﷺ الناس إلى الخروج، وأرسل إلى قبائل العرب يستنفرهم، ومضى رسول الله بقواته حتى قدم تبوك في ثلاثين ألفاً من المسلمين ومن الخيل عشرة آلاف فرس[٣].

---

(١) النويري، المصدر السابق (١٧/ ٢٨٣-٢٨٤).

(٢) النويري المصدر السابق (١٧/ ٢٨٤).

(٣) النويري، المصدر السابق (١٧/ ٣٥٣-٣٥٤) وانظر ابن هشام، السيرة، القسم الثاني، ص٥١٥-٥٢٦.

وقدم إلى رسول الله ﷺ في تبوك كل من:

أ- يحنة بن رؤبة صاحب أيلة (العقبة الحالية)، فصالح رسول الله ﷺ، وأعطاه الجزية، وكتب رسول الله ليحنة كتاباً هو:

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذه آمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة واهل آيلة، لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبي، ولمن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيبة لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر[١].

ب- أهل جرباء وأذرح من جنوب الأردن فصالحوا رسول الله ﷺ وأعطوه الجزية[٢]. أما نص معاهدة الرسول معهم فهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح، أنهم آمنون بأمان الله ومحمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين. وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه[٣].

---

(١) النويري، المصدر السابق (١٧/ ٣٥٧) وانظر ابن هشام، السيرة، القسم الثاني، ص٥٢٦.

(٢) النويري، المصدر السابق (١٧/ ٣٥٧).

جرباء: موضع من أعمال البلقاء (في جنوب الأردن الحالي) من أرض الشام قرب جبال الشراه وهي قريبة من اذرج (ياقوت، معجم البلدان ٢/ ١١٨).

أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراه ونواحي البلقاء وبها كان التحكيم (ياقوت، ١/ ١٣٠-٢٩٠).

(٣) محمد حميد الله الحيدري، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤١، ص٣٥.

١٣- سرية اسامة بن زيد بن حارثة إلى ارض الشراه من البلقاء والداروم من أرض فلسطين:

جهز الرسول ﷺ هٰذه السرية في شهر صفر سنة ١١هـ/ ٦٣٢م وكان فيها من الصحابة أبو بكر وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلم بن أسلم وغيرهم. وقد توفي رسول الله قبل خروج هٰذه السريةو فلما ولي أبو بكر الصديق الخلافة، كان أول ما بدأ به بعث أسامة، تنفيذاً لأمررسول الله ﷺ. وكانت هٰذه السرية آخر السرايا والبعوث إلى الشام.

من خلال استعراضنا للسرايا والبعوث التي أرسلها الرسول ﷺ نرى أن معظمها أرسل إلى مشارف الشام (جنوب الأردن الحالي)، وقسم منها أرسل إلى ساحل البحر الأحمر وإلى المناطق التي تقع على خط المواصلات والاتصالات بين الحجاز والشام. ولكي يهيء الرسول الظروف لعمل عسكري كبير، عمل على إخضاع اليهود في خيبر وفدك ومدين ووادي القرى، كي يؤمن مؤخرة الجيوش الإسلامية، لأن هٰذه المناطق تقع على طريق الشام.

وقد شاهدنا أن الرسول ﷺ أرسل سبعة سرايا وبعوث إلى مشارف الشام قبل سرية مؤتة، وقد كانت هٰذه السرايا جميعاً تقوم بمهمات محددة، إما لتأديب بعض القبائل هناك، أو لنشر الإسلام أو للاطلاع والاستقصاء وجمع المعلومات عن العرب المتنصّرة هناك، وعن القوات البيزنطية وأماكن تواجدها، وعن طبيعة الأرض وجغرافيتها ومعرفة دروبها ومسالكها. بالإضافة إلى كسب الأعوان والأنصار للمسلمين من سكان مشارف الشام العرب، وفي نفس الوقت جعل العرب في تلك المناطق يشعرون بالعزة والكرامة، وأنهم قادرون على الوقوف أمام جبروت القوة البيزنطية الطاغية، فقد غرس المسلمون في مستعربة الشام أمل الخلاص من الحكم الأجنبي، وفي نفس الوقت جعلوهم

يتطلعون إلى قدوم قوة جديدة من الحجاز، تنشر فيهم العدل والمساواة والإخاء والمواطنة الصالحة. فالعرب في مشارف الشام كانوا يشكلون (قوات عازلة)، تقف مدافعة عن المدن البيزنطية وسكانها في وجه القبائل العربية القادمة من الصحراء، او تلك القوة الفتية التي تحمل ديناً جديداً، المتمثلة بالمسلمين في الحجاز.

فالرسول ﷺ جعل كل هٰذه السرايا والبعوث تمهيداً لعمل عسكري كبير يعدّ له عدته، ليكون أول قوة عسكرية إسلامية كبيرة تخرج من نطاق الحجاز لتواجه قوات بيزنطة المنظمة. وقبل أن يرسل تلك القوات كان لا بد من المحافظة على خط سيرها، بحيث تسير تلك القوات في مسالك وطرق آمنة، كيلا تتعرض للهجوم من الخلف. ومن هنا كان لا بد من إرسال تلك السرايا والبعوث لتمهيد الطريق إلى مشارف الشام.

وهٰكذا فإن التمهيد لمؤتة كان مدرساً، فالرسول ﷺ قضى على القوى التي يمكن أن تشكل تهديداً لتلك القوات، وفي مقدمتهم اليهود. أما القبائل العربية الساكنة في مشارف الشام فقد كانت له علاقاته معها ومع عدد من زعمائها ودخل بعضهم الإسلام لذا فهم والحالة هٰذه يشكلون رديفاً بل عوناً للقوات الإسلامية التي تتطلع لدحر القوات البيزنطية في بلاد الشام.

ولـم يكتف الرسول بذلك، بل عمد إلى الخروج بنفسه إلى تبوك بعد مؤتة، حتى يؤكد للبيزنطيين أن المسلمين مصممون على دحرهم وتحرير الشام من سيطرتهم. وليغرس في نفوس المسلمين الشجاعة وبأنهم قادرون على محاربة الجيوش البيزنطية المدربة القوية، وليبعث في قلوب متنصّرة الشام من القبائل العربية الأمل وبأن في مقدورهم الاعتماد على هٰذه القوة العربية الإسلامية الناشئة، كي يقفوا في وجه القوات البيزنطية التي كان تستغلهم.

لقد عمل الرسول ﷺ ومهد لمؤتة، ثم قام هو نفسه بغزوة تبوك، وأرسل عمرو بن العاص بسرية إلى ذات السلال قرب مؤتة، كما جهز سرية بقيادة اسامة بن زيد إلى الشراة والبلقاء من أرض الأردن والداروم من أرض فلسطين، ولا شك أن هٰذا كله كان تمهيداً للفتوحات الإسلامية لبلاد الشام فيما بعد.

وهٰكذا فإن السرايا والبعوث كانت التمهيد لمؤتة التي تعتبر أول تجربة تخوضها قوات المسلمين على نطاق دولي، أمام قوة مدربة لها تاريخها العسكري الطويل، وسوف يخوض المسلمون معهم جولات متعددة يكون النصر حليفهم بسبب الاستراتيجية التي اختطها الرسول ﷺ لقواته، والتي مهدت لتقدم قوات المسلمين إلى فارس في العراق وبيزنطة في الشام، وإدخالها تحت الحكم العربي الإسلامي في المدينة. وقد استطاعت هٰذه القوات العربية الإسلامية من القضاء على دولة فارس، وإنهاء الوجود البيزنطي في بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية.

الموضوع الرابع

التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج في عهد صلاح الدين (رؤية من خلال رحلة ابن جبير لبلاد الشام)



التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج
في عهد صلاح الدين «رؤية من خلال رحلة ابن جبير إلى بلاد الشام»

تمكن الفرنج من احتلال إنطاكية في غرة رجب ٤٩٢هـ/ ٣ حزيران ١٠٩٨م، ثم تقدمت قواتهم نحو بيت المقدس فاستولوا عليها ودخلتها جموعهم في ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ تموز ١٠٩٩م. ولم تجد القوات الفرنجية مقاومة إسلامية تذكر أثناء تقدمهم، بل أن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية في القاهرة، أرسل إليهم السفارات وقدم لهم التسهيلات اللازمة كي يستمروا في احتلالهم للساحل الشامي. وتذكر بعض المصادر أن الأفضل عقد معهم اتفاقية اقتسم بموجبها وإياهم بلاد الشام. فالأجزاء الشمالية تكون من نصيب الفرنج، أما الأجزاء الجنوبية فمن نصيبه. لذا خرج من مصر واستولى على مدينة بيت المقدس من أميريها (سكمان وايلغازي) وعين عليها من قبله، وعاد إلى مصر مطمئناً بأن القدس أصبحت ضمن أملاكه. إلاّ أن الفرنج نقضوا الاتفاق، وتقدموا نحو المدينة المقدسة واستولوا عليها، بعد أن قتلوا معظم سكانها. فالمصادر اللاتينية تذكر أن الفرنج قتلوا في القدس عشرين ألف شخص، أما المصادر الإسلامية فترفع العدد إلى سبعين ألفاً[١]. ثم أن الفرنج أكملوا احتلال الساحل الشامي باستيلائهم على صور سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م. وبذلك أصبحت كل فلسطين والساحل الشامي من إنطاكية إلى غزة تحت نفوذهم، ما عدا (عسقلان) بوابة مصر الشرقية التي بقيت بيد الفاطميين مدة ٥٦ سنة حيث تمكن الفرنج من الاستيلاء عليها سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وهذا دليل على أن قوة الفاطميين كانت حقيقية ولكنها لم تستخدم في مواجهة الخطر الفرنجي وتحجيمه والقضاء عليه[٢].

---

(١) عن موفق الأفضل انظر يوسف غوانمة، الأفضل بن بدر الجمالي وموقفه من الحملة الصليبية الأولى، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المجلد العاشر، ١٩٨٣م ص: ٧١-٩١.

(٢) يوسف غوانمة، أمارة الكرك الأيوبية، ط٢، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م، ص٧٧.

بدأت الصحوة أو الأفاقة على يد عماد الدين زنكي باحتلال الرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. وبعد وفاته سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م تسلم القيادة ابنه نور الدين محمود زنكي الذي رأى أن إنهاء الاحتلال الفرنجي لبلاد الشام لا بد أن يكون بالوحدة وجمع الصفوف. فقام في سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م بضم دمشق إلى أملاكه. وبهٰذا العمل كون نور الدين أول نواة لقوة عربية إسلامية تضم شمال العراق وشرق الأناضول وشمال الشام. ثم تطلع إلى مصر لأن قناعته كانت بأن المشروع النهضوي الوحدوي لا يكتمل إلا بها. فأرسل قائدة أسد الدين شيركوه إلى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. وبعد معارك ومحاولات عديدة مع القوات الفاطمية المتصارعة على السلطة داخل القاهرة، ومع (عموري) ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية الذي يطمع بالاستيلاء على مصر، تمكن أسد الدين من فرض بسيطرته على الديار المصرية، وقبض على المعارضة التي كانت متمثلة بالوزاء المتحاربين. فعينه العاضد وزيراً له إلا أن المنية لم تمهله، عندئذ قلد الخليفة الفاطمي العاضد الوزارة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م. وبهٰذا التقليد وضع العاضد اول لبنة في المشروع النهضوي الجهادي ضد الفرنج وتحرير القدس، وقيام الدولة الأيوبية[١].

عرف صلاح الدين أن تحرير القدس وفلسطين والساحل الشامي لا يكون إلا بجمع الكلمة وتوحيد مصر والشام. ولما كانت الدولة الفاطمية في النزع الاخير أسرع صلاح الدين وعمل على إسقاطها سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وخطب على منابر مصر والقاهرة للخليفة العباسي أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله ثم بدأ يعمل على مشروعه الوحدوي الذي يضم العواصم العربية الإسلامية الثلاثة: القاهرة، ودمشق، وبغداد وهو ما أطلقنا عليه (وحدة صلاح الدين). وبعد هزيمة صلاح الدين في معركة: تل الصافية

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في تاريخ بني ايوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج١، مطبعة فؤاد الأول، القاهرةو ١٩٥٣م، ص١٦٩.

سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م نقل صلاح الدين نشاطه العسكري من القاهرة إلى دمشق وأوضح عن أسباب ذلك في رسالة فاضلية أرسلها للخليفة العباسي في بغداد يقول فيها: (وأنا لم نتمكن بمصر منه «بيت المقدس» مع المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة، والجموع متيسرة، والأوقات مساعدة)[1]. ومن دمشق أخذ صلاح الدين يستعد لإتمام مشروعه النهضوي الوحدوي، بالإضافة إلى مضايقة وأنهاك واستنزاف الفرنج في فلسطين والساحل الشامي والبحر الأحمر. وأثناء حروبه ومعاركه الاستنزافية تلك قدم إلى بلاد الشام الرحالة الأندلسي ابن جبير ابو الحسن محمد بن أحمد، فوصل إلى دمشق سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م. وقدم لنا صورة فريدة عن العلاقات القائمة بين المسلمين والفرنج في الساحل الشامي، وعن الاعتدال والتسامح الذي كان يحكم تلك العلاقات: تجارية واجتماعية ودينية، وحرية انتقال القوافل والأفراد تجاراً ومسافرين بين دمشق ومدن الساحل الشامي: عكا، وصور، وبيروت، وطرابلس وغيرها من المدن الساحلية.

التجارة الدولية وطرقها في عهد صلاح الدين:

كانت شبكة المواصلات القديمة التي تربط أوروبا بالهند والصين تسلك ثلاث طرق رئيسة: الأولى برية، وأطلق عليها (طريق الحرير)، تسير من أواسط آسيا حتى بخارى، ومن ثم إلى البحر الأسود وموانئه، إلى أن تصل إلى القسطنطينية ومنها إلى البلدان الأوروبية ومدنها. وكان فرع من هٰذه الطريق يتجه إلى بغداد وحلب وصولاً إلى سواحل البحر المتوسط وموانئه. وقد خضعت طريق الحرير هٰذه للظروف السياسية والعسكرية والاحتراب بين الشعوب والقبائل التي تسكن على جنباته أو قريباً منه، وقد أدى ذلك إلى توقف هٰذه الطريق عندما ينعدم الأمن وتتعرض قوافل التجارة للنهب والسلب.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ط دار الكتب المصرية (ب - ت)، (٨٩/١٣).
يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ط٢، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٨٢، ص١٢١.

أما الطريق الثانية: فكانت طريق الخليج العربي منتهية في راس الخليج إلى مدينة (البصرة) ومن هناك تنقل المتاجر والسلع إلى بغداد عبر شط العرب. ومن بغداد تتجه طريق القوافل شمالاً إلى ديار بكر والأناضول وصولاً إلى القسطنطينية، أما الثانية فتتجه غرباً إلى دمشق ومنها إلى موانىء البحر المتوسط، وقد تعرضت هٰذه الطريق إلى التوقف في أحيان كثيرة لانعدام الأمن فيها، بالإضافة إلى أن الفرنج احتلوا الساحل الشامي وموانئه التي كانت تنتهي إليه متاجر الشرق القادمة عبر هٰذه الطريق.

أما الطريق الثالثة فهي طريق البحر الأحمر (طريق البخور)، فقد كانت المتاجر تصل بحراً إلى عدن، ومنها تسلك التجارة الشرقية طريقين الأولى برية عبر اليمن وتهامة عسير والحجاز وصولاً إلى منطقة شرقي الأردن، ومنها إلى دمشق. أما الثانية فتسلك طريق البحر الأحمر وصولاً إلى القلزم (السويس) أو إلى أيلة (العقبة) ومنها إلى القاهرة أو دمشق وصولاً إلى الموانيء المصرية والشامية. وظلت هٰذه الطريق تخدم حركة التجارة الدولية طيلة الوجود الفرنجي على الساحل الشامي واستمرت كذلك طيلة العصر المملوكي. لأن الطريقين الأولى والثانية ظلتا عرضة للخطر بسبب زحف التتار عبر اواسط آسيا باتجاه العراق وبلاد الشام، وإشاعتهم للفوضى والخوف والرعب في تلك الأصقاع[1].

فطن الفرنج منذ الوهلة الأولى لأهمية البحر الأحمر الاقتصادية والتجارية، فقاموا باحتلال ايلة (العقبة) سنة ٥١٠هـ/١١١٦م، وأعادوا بناء القلعتين البرية والبحرية (لي جرى) أو (جزيرة فرعون)، وشحنوهما بالعتاد والرجال، فصار لهم أسطول في البحر الأحمر وقد تمكن هٰذا الوجود البحري من تحويل جزء من تجارة البحر الأحمر إلى القدس، عاصمة مملكة بيت المقدس اللاتينية. ثم قام الفرنج في بيت المقدس باحتلال

(١) يوسف غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥م، ص٥٢، ٥٣.

الكرك سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م مكونين (بارونية الكرك والشوبك). وبإقامة هٰذه البارونية في جنوب الأردن الحالي عمل الفرنج على عزل دمشق عن القاهرة وجنوب الجزيرة العربية، فأصبحت حركة الاتصالات والمواصلات والقوافل التجارية بين مصر والشام، وبين الشام والجزيرة العربية تحت سيطرتهم وهيمنتهم[١].

وبعد أن تولى صلاح الدين الوزارة في مصر وجد أن من أولى أولوياته هو جعل الطريق ميسراً بين دمشق والقاهرة، عبر منطقة شرقي الأردن. ولكي يحقق هٰذا الهدف اندفع بقواته نحو أيلة (العقبة) سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م فاحتلها وشحنها بالرجال والعتاد وقضى على الأسطول الفرنجي في البحر الأحمر، وحرمهم من تجارة البحر الأحمر. كما أن صلاح الدين بعد أن أصبح سيد الموقف في مصر وبلاد الشام بعد إسقاطه للخلافة الفاطمية في القاهرة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، رأى أن رحلة نضاله وجهاده ضد الفرنج وتحرير القدس وبناء مشروعه الوحدوي يحتاج إلى رفده بالأموال. ولن يتأتى له ذلك إلا من التجارة، لذا أولى هٰذا الأمر جل اهتمامه. فأرسل قواته إلى اليمن وضمها إلى سلطانه سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، وهو بهٰذا جعل من البحر الأحمر (بحيرة إسلامية). فصلاح الدين أصبح يهيمن على مداخله من الجنوب ومخارجه من الشمال، ثم وظف هٰذه التجارة الكثيفة في تمويل رحلة نضاله وجهاده ضد الفرنج وتحرير الشام وتطهيره منهم[٢]. فأصبحت السلع الشرقية تأتي عبر البحر الأحمر إلى ميناء (عيذاب) جنوب مصر ومنها تحمل السلع على الجمال إلى (أسوان) ومن ثم إلى القاهرة عبر النيل ومن القاهرة كانت السلع الشرقية تنقل إلى دمياط والإسكندرية على ساحل البحر المتوسط لتصديرها إلى أوروبا.

---

(١) يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ط٢، ص٦٤، ٦٥، ٦٦.

(٢) يوسف غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج ص٥٣.

قدم ابن جبير من الأندلس عبر مصر في طريقه إلى الحجاز، فوصل إلى القاهرة ومنها إلى ميناء عيذاب وكانت إذا ذاك في أوج ازدهارها. فهو يقول فيها: «وهي من أحفل مراسي الدنيا، بسبب مراكب الهند واليمن، تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة»[١]. أما عن كثافة التجارة فيها وعدد القوافل الصادرة منها أو الواردة إليها، فابن جبير يصف ما شاهده فيقول: «ورمنا في هٰذه الطريق، إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب. وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهٰذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها. تترك بهٰذه السبيل أما لإعياء الإبل الحاملة لها، أو غير ذلك من الأعذار. وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات، على كثرة المارة عليها من أطوار الناس»[٢].

نلاحظ من نص ابن جبير السابق كثافة التجارة الشرقية التي كانت تجلب إلى مصر في عهد صلاح الدين، وهٰذا دليل على أن المردود الاقتصادي لهٰذه التجارة كان كبيراً. ونستدل على ذلك أيضاً من مقدار الثروة التي كانت تحملها إحدى القوافل التجارية المتجهة من القاهرة إلى دمشق، ففي سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م هاجم ريتشارد قلب الأسد هٰذه القافلة في منطقة الحسا جنوب (شرقي الأردن الحالي) واستولى على قسم منها. أما مجموع ما كان في هٰذه القافلة فهو: ٩ آلاف جمل، و٤٥٠٠ رأس من الخيل، و٤٥٠٠ رأس من البغال. وكانت الأموال ٦ ملايين دينار من الذهب العين، بالإضافة إلى أقمشة وسلع أخرى بمبلغ ستة ملايين دينار أخرى. وهٰذا يعني أن القافلة كانت تشتمل على ١٨٠٠٠ راحلة وما قيمته ١٢ مليوناً من الذهب والسلع[٣]. ومن هنا فقد كان الاقتصاد

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١م، ص٤١.
(٢) ابن جبير، المصدر السابق، ص٣٩، ٤٠.
(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية، مطبعة التمدن، القاهرة، ١٩٠٣م، ص١٧٠-١٧١.

الأيوبي في عهد صلاح الدين جيداً، لأن هٰذه السلع الشرقية كانت سلعاً مطلوبة لدى الدول الأوروبية، وكان الأيوبيون هم وسطاء التجارة الدولية آنذاك. وقد ازداد حجم التجارة بسبب المبادلات التجارية التي كانت قائمة بين المسلمين والفرنج، عن طريق موانىء السواحل الشامية والمصرية والدويلات الإيطالية التي كان اقتصادها معتمداً على التجارة الشرقية المتمثلة بالتوابل والأفاويه. وقد كان الطرفان الإسلامي والأوروبي بحاجة إلى هٰذه التجارة، لذا عقدوا المعاهدات والاتفاقات كي تبقى حركة التجارة مستمرة بين الطرفين. ففي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م عقدت (بيزا) اتفاقية مع صلاح الدين تعهدت بموجبها السماح للمسلمين باستيراد الحديد والخشب والزفت ونقلها إلى مصر، لأن هٰذه السلع الاستراتيجية كانت الكنيسة قد فرضت الحظر عليها[١]. ولأهمية التجارة الشرقية للاقتصاد الأوروبي فقد سارعت الدويلات الإيطالية إلى عقد الاتفاقات مع صلاح الدين نظراً لارتباط مصالحها التجارية مع دولته. يقول صلاح الدين في رسالة فاضلية موجهة إلى الخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م) عن علاقاته معها: «ومن هٰؤلاء الجنويين الذين يسربون الجيوش -البنادقة - البياشنة - الجنوية، كل هٰؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف اعماله وبلاده. وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسالمة، على ما نريد ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون»[٢].

---

(١) اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٥م، ص٣٠٥.
الأفاويه: ما يعالج به، أي الأعشاب الطبية (المختار الصحاح مادة فوه).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى (٨٨/١٣).

وبسبب هٰذه التجارة الكثيفة فقد ازدادت ثروات بعض التجار في العصر الأيوبي، وخصوصاً أولئك الذين يتاجرون بمتاجر الشرق الأقصى نذكر منهم تجار (الكارم). فقد أدت تجارة التوابل العظيمة إلى أن يتبوأ هٰؤلاء التجار مكانة مرموقة في تجارة الشرق، فجمعوا الثروات الطائلة. وكان هٰؤلاء التجار في تلك الفترة هم اصحاب السفن، فهم الذين حملوا التوابل إلى عدن واليمن، وكان لهم وكلاؤهم ومخازنهم في الهند وعدن والقاهرة ودمشق، وقد تمتع هٰؤلاء منذ العصر الفاطمي بحماية من الخلفاء والسلاطين بسبب ثرواتهم الكبيرة[١].

وبعد أن أدى ابن جبير فريضة الحج، غادر الحجاز إلى العراق ومنها إلى بلاد الشام فوصل إلى دمشق سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وكان إذ ذاك في طريق عودته إلى بلاد الأندلس عبر ميناء عكا على الساحل الفلسطيني. وكانت عكا في تلك الفترة بيد الفرنج، وإحدى مدن مملكة بيت المقدس اللاتينية.

التسامح والاعتدال بين المسلمين والفرنج:

من الأمور التي لفتت انتباه الرحالة ابن جبير تلك العلاقات الإنسانية والاجتماعية والتجارية التي كانت قائمة بين المسلمين والفرنج. فهو يقول: «إن النصارى (الفرنج) المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هٰؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم»[٢]. فالفرنج كانوا يحسنون إلى الزهاد والعباد المسلمين الذين يقيمون في الجبال والأماكن

---

(١) أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٣٠٦.

الكارمية أو تجار الكارم هم جماعة من التجار كانوا يحتكرون تقريباً التجارة مع الهند والشرق الأقصى وشرقي أفريقية. وشكلوا أكبر قوة مالية في دولة المماليك دون قوة الحكومة. وكانت مصر المركز الرئيسي للكارمية، كما كانت دمشق المركز الثاني بالإضافة إلى أن لهم قواعدهم في اليمن وعدن وهي المركز الأساسي لبضائعهم، ولهم كذٰلك وكلاؤهم في الهند وبعض مناطق الشرق الأقصى (جوايتان، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠، ص٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) ابن جبير، الرحالة، ص٢٣٤.

البعيدة طلباً لرحمة الله وعبادته. وقد أثار ذلك تعجب ابن جبير، فيقول: «إذا كانت معاملة النصارى لغير ملتهم هٰذه المعاملة، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض»[١].

ومع أن الحرب كانت قائمة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، فإن هناك جانباً آخر في علاقة المسلمين بالفرنج أثارت انتباه وتعجب ابن جبير ولم يجد نظيراً لها في مناطق أخرى شاهدها أو سمع بها. ففي هٰذه السنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م شاهد ابن جبير صلاح الدين يخرج بقواته من دمشق إلى منطقة جنوب شرقي الأردن لحصار قلعة الكرك التي كان يحكمها (ارناط) أو (رينو دي شاتيون). وقد كانت بارونية الكرك والشوبك أهم بارونيات مملكة بيت المقدس اللاتينية. لأنها تقف حاجزاً ومانعاً أمام حركة الاتصالات وطرق التجارة بين دمشق والقاهرة وبلاد الحجاز. فابن جبير يصف حصن الكرك قائلاً: «وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر. . . وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية»[٢]. فنازله صلاح الدين وضيق عليه وطال حصاره ولكنه لم يتمكن منه لحصانته فرفع الحصار عنه، وتوجه بقواته إلى فلسطين، فهاجم مدينة (نابلس) واحرقها، ثم هاجم سبسطية ومدينة جنين فقتل وسبى وأسر أعداداً كبيرة من الفرنج ثم عاد إلى دمشق»[٣].

أما عن القوافل التجارية فيذكر ابن جبير أن هٰذه القوافل كانت مستمرة التنقل بين مصر ودمشق، عبر بارونية الكرك (جنوب الأردن الحالي)، بالإضافة إلى أن القوافل التجارية بين مصر وعكا لم تنقطع رغم حالة الحرب التي كانت قائمة بين المسلمين والفرنج. فقد كان تجار الفرنج يذهبون إلى دمشق بقوافلهم وسلعهم، دون أن يعترضهم أحد، وكان المسلمون يؤدون ضريبة للإفرنج عندما يدخلون بلادهم، وهٰذه الضريبة كانت تتمثل بضريبة الأفراد والمسافرين، علماً بأن هناك ضريبة أخرى كانت تستوفى من المتاجر

(١) ابن جبير، الحالة، ص٢٣٤.
(٢) ابن جبير، الرحالة، ص٢٣٤.
(٣) يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص١٤٥، ١٤٦.

والقوافل التجارية المارة عبر المناطق التي يسيطر عليها الفرنج. وبالمقابل فقد كان الفرنج يؤدون للمسلمين ضريبة أخرى مماثلة على الأفراد والسلع التجارية عندما يدخلون إلى بلادهم. ويذكر ابن جبير أن الطرق والمسالك كانت آمنة، فالأمن والأمان منتشر في كل الدروب والطرق في كلا الجانبين فهو يقول: «والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب»[١]. ثم يستطرد ابن جبير قائلا: «هٰذه سيرة أهل هٰذه البلاد في حربهم، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك. ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً وشأن هٰذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه»[٢].

هٰذه الحالة تستوقف الباحث المعاصر ليناقش بحيادية ما ذكره ابن جبير عن العلاقات السلمية بين المسلمين والفرنج. فقد أقام الفرنج في بلاد الشام منذ الحملة الأولى إلى زمن ابن جبير ما يقارب القرن من الزمان. وعاش الفرنج في فلسطين والساحل الشامي بالقرب من المسلمين وتأثروا بهم وبحضارتهم وأخذوا بعض عاداتهم، بل أن قسماً تزوج من نساء نصرانيات من بلاد الشام. وقد توالدوا على الأرض الشامية، ونشأوا نشأة شامية، فلم يعرفوا وطناً أو بلداً غير فلسطين أو الساحل الشامي. ومن هنا خفت لدى هٰؤلاء نزعة البغضاء والتعصب نتيجة للاختلاط وحالة الجوار التي كانوا يعيشونها مع المسلمين بالإضافة إلى أن الساحل الشامي كان منفتحاً على أوروبا، ولكنه منغلق على الداخل. فكان الفرنج بحاجة ماسة إلى وجود علاقات اقتصادية وتجارية مع المسلمين في الداخل، وكان المسلمون بحاجة أيضاً إلى علاقات اقتصادية وتجارية مماثلة مع الساحل الشامي الذي يسيطر عليه الفرنج. فالاقتصاد والتجارة كانت ضرورية للطرفين، فالمسلمون كانوا بحاجة إلى تصدير سلع الشرق الأقصى التي هم وسطاؤها إلى أوروبا عبر الموانىء الشامية والمصرية. والفرنج كانوا بحاجة إلى تصدير سلعهم إلى بلاد الشام والاتجار مع المدن الداخلية في الشام كدمشق، وحلب وحمص وغيرها. أما طرق

---

(١) ابن جبير، الرحالة، ص٢٣٥.

(٢) ابن جبير، الرحالة، ص٢٣٥.

المواصلات فكانت متبادلة بين الطرفين، فالمسافرون والقوافل التجارية القادمة من القاهرة إلى دمشق وبالعكس لا بد لها من المرور عبر بارونية الكرك (جنوب الأردن الحالي) والقوافل التجارية والأفراد والمسافرون من عكا إلى دمشق أو من مدن الساحل الشامي إلى المدن الشامية الداخلية، كان لا بد أن يمروا عبر مملكة دمشق التي هي تحت سيطرة صلاح الدين. وهكذا فإن المنافع متبادلة بين الطرفين، وهٰذه المنافع جعلت العلاقات بين المسلمين والفرنج علاقات (تسامح واعتدال) كما ذكر ابن جبير. فقد (حيدت) التجارة وسمح للأفراد بحرية التنقل، فلا يجوز اعتراض التجار والأفراد من كلا الطرفين. وقد نصت المعاهدات والاتفاقات التي عقدت بين الطرفين على ذلك بالإضافة إلى أن الظروف الحياتية واليومية أملت هٰذه السياسة المعتدلة المتسامحة بما يتناسب ومصالح الرعايا وظروفهم المعاشية والاقتصادية. وحاجة الطرفين لانسياب السلع التجارية بسبب مردودها الاقتصادي الكبير وخصوصاً بالنسبة لصلاح الدين. ومن هنا جاء عقد بعض المعاهدات والهدن بين الطرفين والتي في معظمها كان صلاح الدين ومن جاء بعده من السلاطين يصرون على حماية طرق التجارة والمواصلات بين دمشق والقاهرة. وإن كنا نجد أن الفرنج كثيراً ما كانوا ينقضون تلك الاتفاقات كما حدث من قبل (ارناط) أمير بارونية الكرك أكثر من مرة[١].

ويذكر ابن جبير أن صلاح الدين عاد من حملته إلى الكرك وفلسطين بالسبي والغنائم الكثيرة في نفس الوقت الذي كان يغادر به هو نفسه مدينة دمشق في طريقه إلى عكا في (قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكا)[٢] وقد أثارت تعجبه تلك العلاقات القائمة بين رعايا المسلمين والفرنج على التسامح والاعتدال، فهو يقول: «وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج، وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هٰذا الاعتدال في السياسة»[٣].

---

(١) عن هٰذه الاتفاقات أنظر، يوسف غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥.

(٢) ابن جبير، الرحالة، ص٢٤٤.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٦.

التجارة وطرق المواصلات بين دمشق وعكا:

كانت حركة الاتصالات والمواصلات بين دمشق وعكا ميسرة آمنة، كما أن حركة المواصلات بين عكا وأوروبا عبر البحر المتوسط متواصلة بواسطة السفن الشراعية التي تحمل السلع التجارية والمسافرين والحجاج. وكانت هٰذه السفن تبحر مرتين في السنة الأولى في فصل الربيع والثانية في فصل الخريف، وذلك لأن الرياح الشرقية تهب على حوض البحر المتوسط الشرقي مرتين في السنة الأولى من منتصف نيسان إلى آخر أيار، أما الثانية فتتحرك في فصل الخريف من نصف تشرين أول ومدتها أقصر من المدة الربيعية، وقد تكون بحدود الخمسة عشر يوماً أو أكثر بقليل[١].

أما السفر من دمشق إلى عكا فيكون إما عن طريق بانياس أو عن طريق طبرية. وكانت قوافل البغال هي التي تسلك طريق بانياس إلى الجليل الأعلى، وهي طريق وعرة المسالك، لا تستطيع الإبل السير فيها. وقد خصص للإبل الطريق التي تسير باتجاهين الأولى عبر الجولان، وعقبة أفيق إلى قرب (حمة جدارا) ومن ثم جسر الصنبرة إلى طبرية فعكا والثانية عبر حوران وشمال (الأردن الحالي) إلى اربد والقصير (الشونة الشمالية) إلى طبرية ومن ثم إلى عكا[٢].

وكانت القوافل التجارية تخرج من دمشق محملة بالسلع المختلفة، فتسير إلى داريا ثم إلى بيت جن وبعد ذلك إلى بانياس. وقد اتفق المسلمون والفرنج على وجود (خط أخضر) بين الطرفين، وهٰذا الخط يبدأ عند شجرة بلوط عظيمة قرب بانياس، وهٰذا الخط كما يقول ابن جبير: «هو حد بين الأمن والخوف في هٰذه الطريق لحرامية الإفرنج، وهم الحواسة والقطاع، من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أُسر، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذٰلك أطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به،

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٦.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٤، ٢٥٤.

وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها»[١] وبانياس ثغر للمسلمين وهي بلدة صغيرة مسورة وبها قلعة حصينة، ولهٰذه البلدة أراض واسعة خصبة التربة، وتمتد هٰذه الأراضي إلى قرب قلعة (هونين) التي بيد الفرنج. أما عن العلاقة بين المسلمين والفرنج في هٰذه الأراضي الحدودية، (فلهم حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها)[٢].

ومن بانياس تواصل القوافل سيرها فتجتاز الطريق بين قلعتي (هونين) و(تبنين)، ويعترضها واد سحيق بغابات كثيفة، وهٰذه الطريق عقبة كؤوده. وبعد اجتيازه تنتهي القوافل إلى حصن تبنين، وهو حصن كبير وهو مكان تمكيس الأفراد من الناس والمسافرين. أما مقدار هٰذه الضريبة فهي دينار وقيراط من الدينار الصورية على الرأس. أما التجار فلا اعتراض عليهم وعلى سلعهم، فيواصلون سيرهم لأنهم يقصدون عكا، وهي مكان (التعشير) على سلعهم، وهٰذه الضريبة هي قيراط من الدينار (الدينار أربعة وعشرون قيراطاً)[٣].

ثم تواصل القوافل سيرها من تبنين باتجاه عكا، فيجتازون منطقة الجليل الأعلى من فلسطين وهي منطقة كثيفة السكان، متصلة العمارة بها أراض خصبة، وزراعات مختلفة عديدة، وسكانها كلها مسلمون. ويذكر ابن جبير عن العلاقات بين المسلمين والفرنج في منطقة الجليل فيقول: «وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٦.

الحواسة: هم الذين يعيثون فساداً في الأرض، ويقومون بالإغارة على الناس ليلاً (المعجم الوسيط، مادة حوس).

وعن التعاون الأمني بين المسلمين والفرنج كما نصت عليه بعض المعاهدات انظر: «يوسف غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص١١٧-١٢٠».

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٦.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٧.

الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل راس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها»[١]. أما مساكنهم فبأيديهم وأمورهم الأخرى متروكة لهم لا يتدخل الفرنج فيها. وقد عامل الفرنج جميع المسلمين في المدن الساحلية الشامية بهٰذا الأسلوب، وتركوا لهم القرى والضياع.

هٰذه المعاملة المتمثلة بسياسة الاعتدال والتسامح، أثارت تعجب ابن جبير، فهو يقول بلسان المسلمين الذين كانوا تحت حكم الفرنج بأنهم كانوا يأسفون لما آلت إليه أحوال إخوانهم من المسلمين الذين هم تحت حكم إخوانهم المسلمين. ويوضح ذلك قائلاً «لانهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهٰذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الفرنج، ويأنس بعدله، فإلى الله المشتكى من هٰذه الحال»[٢].

وعند وصول القافلة إلى عكا، كان القادمون من التجار والمسافرين، يحملون إلى (الديوان)، وهو خان معد لنزول القافلة. ويجلس أمام هٰذا الخان كتاب الديوان على مصاطب مفروشة، ويكتب هٰؤلاء بالعربية ويتكلمون بها. وقد جرت العادة وجود (ضامن) لهٰذا الديوان، يضمنه نظير مبالغ من المال يؤديها إلى حاكم عكا، وهٰذا الضامن يدعى (بالصاحب). وقد أنزل التجار رحالهم في هٰذا الخان، ثم طلب الكتاب رواحل أولئك المسافرين الذين لا سلع لديهم، ففتشوا تلك الرواحل خوفاً من وجود سلعة مخبوءة فيها، وبعد عملية التفتيش هٰذه يطلقون سراحهم يتم كل ذلك كما يقول ابن جبير (برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل)[٣].

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٧.
وعن المناصفات والجباية في ارض المناصفات بين المسلمين والفرنج التي نصت عليها بعض الاتفاقات أنظر: «يوسف غوانمة معاهدات الصلح والسلام، ص١١٣-١١٥».

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٨.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٨.

التجارة وعلاقات الفرنج بالمسلمين في عكا:

كانت عكا في أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، من أهم المدن الساحلية في بلاد الشام، حتى أن ابن جبير شبهها بمدينة القسطنطينية. لأنها كانت مدينة عظيمة، مكتظة بالسكان، وملتقى لتجار المسلمين والفرنج من جميع البلدان والأقطار شرقاً وغرباً، حتى أن شوارعها كانت تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطىء الأقدام لكثرة الناس فيها. أما ميناؤها فقد كان ميناء كبيراً، تنتهي إليه المراكب من كل الأنحاء، حتى أن ابن جبير وصفه بأنه (مرفأ كل سفينة)[١]. وكانت هٰذه السفن تأتي من أنحاء متفرقة من أوروبا تنقل الحجاج والسلع، ومن ثم تعود محملة بالحجاج والسلع الشرقية والشامية.

وارتبطت مدينة عكا بخط ملاحي مع المواني الأوروبية، فكانت السفن الشراعية تغادرها في موسمين كما أسلفنا الأولى في فصل الربيع والثاني في فصل الخريف والتجار لا ينزلون إلى عكا بالبضائع إلا في هٰذين الفصلين[٢]، لأن حوض البحر المتوسط تهب عليه من ناحية الشرق رياح شرقية تدفع السفن باتجاه الغرب وهي فرصة مناسبة للإبحار إلى أوروبا. وارتبطت عكا بخطوط ملاحية مع الموانىء الشامية الأخرى كصور وبيروت وطرابلس واللاذقية. وكانت تلك الموانىء تتصل ايضاً بأوروبا بخطوط ملاحية وتنقل هٰذه السفن الشراعية السلع الشرقية والشامية بالإضافة إلى المسافرين من حجاج وتجار وغيرهم[٣].

ومن مظاهر سياسة الاعتدال والتسامح التي شاهدها ابن جبير في عكا، هو مشاركة المسلمين والنصارى في المسجد المقام على عين ماء تسمى (عين البقرة). فكان المسلمون يؤدون صلاتهم فيه، أما النصارى فقد أقاموا لهم محراباً في شرقي هٰذا

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٩.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٦.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٠، ٢٥١.

المسجد، فالمسلم والنصراني يجتمعان فيه، يستقبل هٰذا مصلاه وهٰذا مصلاه. وكان هٰذا المسجد معظم لدى الفرنج، ومع ذلك فقد مارس المسلمون فيه صلواتهم(١).

وزادت شهرة بعض التجار المسلمين في الساحل الشامي، فكانت لهم التجارات الواسعة مع مدن الشام الداخلية، ومدن الساحل التي كانت بيد الفرنج وكان مقرهم في مدينة دمشق، وهم من تجار الكارم الذين يستوردون السلع الشرقية عبر عدن واليمن والبحر الأحمر. وقد ذكر ابن جبير بعضهم فذكر عن وجود «رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء، احدهما يعرف بنصر بن قوام، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي. وتجارتهما كلها بهٰذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين. فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير»(٢).

استقل ابن جبير المركب من عكا في تشرين أول، وهي سفينة من السفن الكبار، وبها أخلاط من الناس مسلمين ونصارى من أنحاء مختلفة من أوروبا، منهم حجاج وتجار، وكانوا عالماً لا يحصى (ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان)(٣). وكانت وجهتهم إلى مدينة مسينة في جزيرة صقيلة ومنها إلى دول أوروبا أو إلى بلاد الأندلس التي هي وجهة رحلة ابن جبير عائداً إلى بلاده.

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٩.
وهٰذه العين سميت بعين البقر، لأن الله كما يقول ابن جبير أخرج منها البقر لآدم عليه السلام (ابن جبير ص٢٤٩).

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٣.
المقارضين: المقارضة = المضاربة، وقارضه: دفع إليه مالاً ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرط (مختار الصحاح مادة: قرض).

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٥.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السلع الشرقية التي كان يجلبها التجار من دمشق إلى عكا والموانىء الشامية الأخرى في هٰذه الفترة لا تخرج عن التوابل: كالفلفل، والبهار، والزنجبيل، وجوز الطيب والعطور: كالمسك، والعنبر، والكافور، وخشب الصندل، والقرنفل. والأحجار الكريمة: كاللؤلؤ، والألماس، والفيروز، والعقيق الأحمر، العقيق اليماني، والمرجان. والصمغ العربي، والورق، والنيلة، والحرير الصيني، والذهب، والعاج. أما السلع الأخرى التي كانت تصدر إلى عكا والتي كان يجلبها التجار من العراق والشام ذات الجودة العالية فنذكر: الأقمشة العراقية كالعتابي. السفلاطون، الحرير ومن بلاد الشام: السجاد، والمنسوجات الحورانية، والسكر من الأغوار الذي امتاز بجودته ونقائه، والزجاج الذي اشتهرت به دمشق وبعض المدن السورية كحلب والرقة وبعض المدن الساحلية في لبنان. وكان الزجاج الشامي ينتج بكميات كبيرة ونال شهرة عالمية، فقد عرفت أنواع من الأواني الزجاجية المطلية بالميناء والذهب واكتسبت هٰذه الأواني شهرة واسعة في كل أنحاء العالم المعروف آنذاك. كما صدرت الأواني الفخارية والأواني المعدنية التي امتازت بتقنية عالية، فقد قلد الصناع في شمال الشام البورسلين الصيني الشفاف. أما الأواني المعدنية فكانت ذات صنعة متقنة فكان منها المكفت (المطعم) بالفضة. كما اشتهرت الاباريق والطسوت والصحون التي نالت إعجاب الأغنياء وجرى تصديرها إلى كل مكان[١].

أما السلع الأوروبية المصدرة إلى بلاد الشام ومصر فكانت افرية السمور، والخشب، والحبال، والحديد، وبعض الأقمشة والمنسوجات الصوفية، واللباد[٢].

وهكذا فقد انتهج الطرفان الإسلامي والفرنجي سياسة الاعتدال والتسامح في

(١) أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩.
يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص٨٩.
(٢) اشتور، المرجع السابق، ص٣١١، ٣١٢.

علاقاتهم الاقتصادية والتجارية، وفي حركة المواصلات والاتصالات وتنقل الأفراد بينهما. وهي استراتيجية أملتها عليهم الظروف المحيطة بهما، فكلاهما كان بحاجة إلى التجارة، واقتصادهما قائم على حرية التجارة الشرقية التي كان المسلمون هم وسطاؤها، وكان الأوروبيون بحاجة ماسة إليها. كما أن وجود وبقاء بعض المدن الإيطالية كان معتمداً على استمرار هٰذه التجارة وانسيابها دون عوائق بين هٰذه المدن والموانىء الشامية والمصرية.

ومما تجدر ملاحظته أن معظم الاتفاقات التي عقدت بين المسلمين والفرنج كانت بطلب من الفرنج أنفسهم. كما أن هناك جيلاً فرنجياً (مولدا) نشأ على الأرض الفلسطينية والساحل الشامي. وقد تأثر هٰؤلاء بالحضارة العربية الإسلامية وتحدثوا اللغة العربية، وارتدوا الألبسة العربية، وتذوقوا بالذوق العربي مأكلاً ومشرباً وعادات وتقاليد. وبعد أجيال عدة أصبح هٰؤلاء جزءاً هاماً من سكان فلسطين والساحل الشامي، فخفت لديهم روح التعصب والبغضاء التي كانت لدى الأجداد الأوائل عندما قدموا إلى بلاد الشام مع أوائل الصراع الفرنجي الاسلامي مع أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. لقد تعايش هٰؤلاء مع السكان الأصليين لبلاد الشام، وتزاوج الطرفان النصرانيان: السوريون والفرنج، وقسم كبير منهم أصبح نتاج هٰذا الاختلاط. ومن هنا فقد جنح هٰؤلاء الفرنج إلى سياسة الاعتدال والتسامح، وقوبلت هٰذه السياسة بأخرى مماثلة من الجانب الإسلامي، لأن الإسلام يحض على سياسة الاعتدال والتسامح شريطة ان لا تكون هٰذه السياسة على حساب الأرض والمقدسات فالتفريط بالارض مرفوض تماماً، وقد عبر عن ذلك المؤرخون المسلمون. . .

وكثيراً ما جنح القادة المسلمون إلى المهادنة كصلاح الدين، والعادل، والمعظم عيسى، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، كي يجعلوا هٰذه الهدن فرصة لالتقاط الأنفاس استعدادا لمرحلة قادمة يعملون فيها لتحرير الأرض من الفرنجي المحتل. وقد

أتت هٰذه السياسة أكلها، حتى تمكن الأشرف خليل من تحرير عكا آخر جيب فرنجي استيطاني على الساحل الفلسطيني سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، بعد صراع دام مائتي عام. فسياسة الاعتدال والتسامح أملته الظروف الاقتصادية والحياتية في كلا الطرفين المتصارعين، فاتفق الاثنان على (تحييد) التجارة والاقتصاد لحاجتهما الماسة لهٰذا المورد الهام، وسمحا لحرية التنقل بين الجهتين بسهولة ويسر. وعومل الأفراد في الناحيتين معاملة حسنة باعتدال وتسامح. وهٰذا ما عبر عنه ابن جبير. وقد نصت معظم المعاهدات التي عقدت بين المسلمين والفرنج في فترة الحكم الأيوبي، أو تلك التي عقدت في عصر دولة المماليك على الأمور التالية القدس والتمسك بها عربية إسلامية، والحدود الجغرافية، وأرض المناصفات والجباية فيها، والتعاون الأمني بين الطرفين، واقتسام المياه وحرية الملاحة ومحاربة القراصنة على سواحل البحر المتوسط، وحرية التجارة والتنقل بين الطرفين، وحرية العبادة وزيارة الأماكن المقدسة للأديان السماوية الثلاثة، والتأكيد على حماية رعاياها. وأهم ما في هٰذه المعاهدات إنها حددت فترتها الزمنية بالسنوات والشهور والأيام، فلم تكن معاهدات دائمة او هدنة مستدامة أبد الدهر. وعندما حانت الفرصة كان التحرير النهائي على يد الأشرف خليل في عصر دولة المماليك الأولى...

لا أريد التجاوز على النصوص وتحميل الأحداث أكثرمما تحتمل، ولما كان التاريخ ترجمة حقيقية لأحداث الماضي، ندرسها ونحللها كي نتعرف على حاضرنا، ولتكون هادياً لرسم سياسة مستقبلية لنا على المدى القريب والبعيد. فهل نستطيع تشبيه أحداث الماضي بالحاضر وخصوصاً ما هو موجود على الأرض الفلسطينية؟؟؟ إن الباحث المتقصي يستطيع مقارنة بعض الأحداث ماضياً وحاضراً، وهٰنا اطرح السؤال التالي: إذا كان أجدادنا في الماضي استغلوا عامل الزمن بذكاء وفصاحة وقدرة واقتدار، واستطاعوا توظيفه خدمة لامتنا وتحرير أرضنا، وتمكنوا بالمشروع الحضاري العربي الإسلامي من

أن يجعلوا هٰذا الكم من الفرنج يذوب تدريجياً داخل الجسم العربي، فيصبحوا كلاً شيء. فهل نحن الآن قادرون على استثمار الزمن إلى صالحنا، وخصوصاً بعد هٰذه التطورات التي تحدث على العلاقات العربية الصهيونية؟؟ وهل ما زال مشروعنا الحضاري قادراً على هضم هٰذا القليل من الصهاينة رغم التقدم التقني والمعلوماتي الذي يمتازون به، وذلك الدعم الكبير الهائل من النظام الأحادي في عالمنا الحاضر..؟؟؟

فرؤيتي المستقبلية تقول بأن الزمن يسير إلى صالحنا، وسترى وتقطف الأجيال القادمة ثماره: وطناً عظيماً حراً أبياً متقدماً متطوراً يعيش روح العصر بكل معطياته الحضارية ومؤسساته المدنية، وإنّ غداً لناظره قريب، والتاريخ دروس وعبر..

الموضوع الخامس

الإدارة في فلسطين في عصر دولة المماليك



الإدارة في فلسطين في عصر دولة المماليك

أولاً: تأسيس الوحدات الإدارية

كانت جموع الحملة الفرنجية السابعة بقيادة فرنسيس (لويس التاسع)، قد تحركت نحو الشرق، ولما علم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بوصولهم إلى قبرص، وكان إذ ذاك موجوداً في دمشق، عاد مسرعاً إلى مصر محمولاً على محفة بسبب اشتداد العلة عليه كي يقوم بالدفاع عن مصر(١). وقد حطت الحملة الفرنجية السابعة على دمياط، وتمكنت من احتلالها في ٢٢ صفر ٦٤٧هـ/ ٦ حزيران (يونيو) ١٢٤٩م، بينما كانت القوات الأيوبية تقيم في المنصورة وسط الدلتا.

اشتد المرض على الملك نجم الدين أيوب في أثناء إقامته بالمنصورة في مواجهة الفرنج، ولم يلبث أن توفي في ١٤ شعبان ٢٥٧هـ/ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩م، فاعتلى العرش من بعده ابنه توران شاه، وتولى مهمة مدافعة الفرنج، وتمكنت القوات الأيوبية من الانتصار على الفرنج في المنصورة، ووقع الملك فرنسيس في الأسر، فسجن في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء(٢). ثم إن الخلاف دب بين توران شاه والمماليك البحرية تؤيدهم زوجة أبيه شجر الدر(٣)، وذلك بعدما تيقن من غدرهم ومحاولتهم الاستيلاء على السلطة، فأجمعوا على قتله، وتم ذلك في

---

(١) سبط ابن الجوزي، «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، المخطوط مصور في شيكاغو. يبدأ من سنة ٤٩٥هـ إلى سنة ٦٥٤هـ/ ١١٠١-١٢٥٦م، مكتبة بلية الإسكندرية، رقم ١٨٧٨ب، ص٥١١.

(٢) أبو الفداء، «المختصر في تاريخ البشر»، الجزء ٢ (القسطنطينية، ١٢٨٦هـ: المطبعة الشاهانية، ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م)، الجزء٢، ص١٩٠؛ ابن أيبك، «كنز الدرر وجامع الغرر»، وهو «الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب»، تحقيق سعيد عاشور (القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ١٩٧٢)، (٣٨٤/٧).

(٣) أو شجرة الدر، بحسب مصادر أخرى.

٢٨ محرم ٦٤٨هـ/ ٣ أيار (مايو) ١٢٥٠م، وبمقتله انقرضت الدولة الأيوبية في الديار المصرية بعد حكم دام واحداً وثمانين عاماً (٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م)[١].

واتفق الامراء على إقامة شجر الدر أم خليل في الحكم، وكان يعاونها في مهماتها عدد من الأمراء المماليك نذكر منهم: الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، وقد استطاعت بمهارتها أن تتمّ التفاوض مع الفرنج، فعقدت المعاهدة لمدة عشرة أعوام، وبموجبها أُطلق الملك فرنسيس بعد أن افتدى نفسه بمبلغ أربعمئة ألف دينار[٢]. وعلى الأثر سمحت السلطات المملوكية بجلاء الفرنج عن دمياط، فرحلوا إلى عكا، ودخلتها القوات الأيوبية يوم الجمعة ٣ صفر ٦٤٨هـ/ ٧ أيار (مايو) ١٢٥٠م. ثم تزوجت شجر الدر من عز الدين ابيك وتنازلت له عن المُلك في ٢٩ ربيع الآخر ٦٤٨هـ/ ٣٠ تموز (بوليو) ١٢٥٠م[٣].

كان لمقتل الملك المعظّم توران شاه وإنهاء الدولة الأيوبية في مصر، آثار بعيدة المدى لدى أيوبية الشام؛ إذ أثار مشاعر السخط والغضب والكراهية في نفوس أشياع الأيوبية، فارتفعت اصوات الساخطين والمتذمرين. وكان ردهم سريعاً فجيَّشوا الجيوش وتوجهوا نحو مصر لإطاحة الدولة الناشئة. وبعد حروب ومصادمات كثيرة، اتفق الطرفان

---

(١) أبو الفداء، مصدر سبق ذكره، الجزء٢، ص١٩٠؛ ابن أيبك، مصدر سبق ذكره، (٧/ ٣٨٣)؛ جوانفيل، «مذكرات جوانفيل أو القديس لويس»، ترجمة حسن حبشي (القاهرة: دار المعارف ١٩٦٨)، ص١٦٥. وانظر:

Recueil des Historiens des Croisades, H.Occ. Vol.2p.438.

(٢) ابن أبيك، مصدر سبق ذكره، (٧/ ٣٨٥)؛ المقريزي، «السلوك لمعرفة دول الملوك»، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٣٤)، (١/ ٣٦٣)؛ الذهبي، «دول الإسلام»، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤)، (٢/ ١٥٥). وانظر:

Stevenson, The Crusaders in the East (Beirut, 1968),p.329.

(٣) ابو الفداء، مصدر سبق ذكره (٢/ ١٩٢)؛ ابن الجوزي، مصدر سبق ذكره (٨/ ٥٢٢)؛ المقريزي، مصدر سبق ذكره (١/ ٣٦٧).

على عقد معاهدة سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، تم بموجبها الاعتراف بالدولة الناشئة، على أن تكون فلسطين، بما فيها القدس حتى نهر الأردن، للمماليك، بينما تبقى الأجزاء الشمالية من بلاد الشام في أيدي الأيوبيين بزعامة الملك الناصر يوسف، صاحب دمشق، والملك المغيث عمر، صاحب الكرك[(١)]. ومع ذلك لم تهدأ الأمور بين الطرفين، فحدثت مناوشات وحروب، لكنها لم تسفر عن نتيجة لمصلحة أيٍ منهما.

في خضم هٰذا الخلاف والصراع الدامي بين أيوبية الشام ومماليك مصر، تعرض العالم العربي لخطر داهم، هو خطر التتار؛ فقد اجتاح هولاكو بغداد، وقضى على الخلافة العباسية في ١٤ صفر ٦٥٦هـ/ ٢٠ شباط (فبراير) ١٢٥٨م، وصار الخطر التتاري يضغط على الأمراء الأيوبيين بشدة، ومع ذلك لم يستفد هٰؤلاء من أخطاء الماضي، ولم يحاولوا توحيد الصفوف والوقوف صفاً واحداً في وجه الخطر المدمر. وبدأ الخطر التتاري يضغط على بلاد الشام بشدة. ولما وصلت الأنباء بدخولهم الديار الشامية «وقع الجفل في البلاد»، وخاف الناس كثيراً في دمشق، وهاجروا منها إلى مصر، فهلك الكثيرون منهم على الطريق[(٢)].

جبن الملك الناصر يوسف، ولم يقو على الوقوف في وجه هولاكو، فاتجه بقواته إلى غزة طالباً العون من المماليك، تاركاً دمشق من دون حماية. وكان السلطان قطز قد اعتلى السلطنة في الديار المصرية في ٢٤ ذي القعدة ٦٥٧هـ/ ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٥٩م، ونادى بالاستعداد والجهاد[(٣)].

---

(١) أبو الفداء، المصدر نفسه، (٢/ ١٩٥)؛ المقريزي، المصدر نفسه، ص٣٨٥؛ جمال الدين أبو المحاسن ابن تغري بردي، «النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة»، (٧/ ١٠).

(٢) العيني، «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، الجزء ٢، ق٢، لوحة ٤٢٣ (مخطوط).

(٣) المقريزي، مصدر سبق ذكره، (١/ ٤١٧-٤٢٩)؛
Lane-Poole, A History of Egypt in The Middle Ages (London, 1936), p.261.

خرج السلطان قطز لمواجهة قوات التتار، وكانوا قد دخلوا دمشق ووصلت طلائعهم إلى فلسطين، وقتلوا خلقاً كثيراً. وكان في رأس طلائع القوات المملوكية الأمير بيبرس البندقداري، فأخذ يناوشهم إلى ان وصل قطز، والتقوا في عين جالوت في معركة ضارية يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ أيلول (سبتمبر) ١٢٦٠م. واشتد القتال، وانتهت المعركة بانتصار المماليك، فقُتل مقدم التتار كتبغا على يد الأمير جمال الدين آقوش الشمسي، وانهزم الباقون، وتم النصر للمسلمين، وتمكنوا من وقف المد التتاري المدمر[١].

ترتب على اجتياح التتار لبلاد الشام أن انقرضت الممالك والإمارات الأيوبية، ما عدا إمارة حماة، وإمارة حمص، وإمارة الكرك. وبذلك انتهى في بلاد الشام النظام الإداري الأيوبي الذي أسسه الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي.

وبعد معركة عين جالوت تقدم السلطان قطز إلى دمشق، فنظر في أحوالها، ورتب أمورها، وجعل منها نيابه مستقلة على راسها أمير برتبة كبيرة. وهكذا فإن السلطان قطز هو الذي أنهى النظام الإداري الأيوبي، وأحل محله النظام الإداري المملوكي، الذي قسم البلاد إلى نيابات، وكانت كل نيابة تتألف من عدد من الولايات، أما نيابة دمشق، فقد كانت تشتمل على معظم الأراضي الفلسطينية، أما المناطق الساحلية وبعض المناطق الداخلية، فكانت لا تزال تحت الحكم الفرنجي. وكانت كل مدينة تُحرَّر تُضم إلى نيابة دمشق. وظل الأمر كذلك حتى سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م، عندما تمكن السلطان الظاهر بيبرس من تحرير مدينة صفد من الفرنج، فتكونت النيابة الأولى في فلسطين، وعيَّن الظاهر بيبرس الأمير عز الدين آيبك العلائي نائباً عليها، وجعل فيها أربعة وخمسين مملوكاً من مماليكه، وأقطعهم في بلدها إقطاعاً، وقدَّم الأمير علاء الدين كتدغدي عليهم، وعيَّن الأمير مجد الدين الطوري والياً على قلعتها[٢].

---

(١) ابن كثير، «البداية والنهاية» (٣/ ٢٢١)؛ ابن تغري بردي، مصدر سبق ذكره (٧/ ٧٩).

(٢) ابن شداد، «الأعلاق الخطيرة في ذكر أُمراء الشام والجزيرة: تاريخ لبنان والأردن وفلسطين»، ص١٥٠؛ القلقشندي، أبو العبّاس أحمد بن علي، «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، طبعة مصورة =

ثم إن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون تمكن من تحرير عكا من الفرنج يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/١٨ ايار (مايو) ١٢٩١م، وترتب على سقوط عكا انهيار المقاومة الفرنجية في الساحل، فبادروا إلى إخلاء معاقلهم، واستولى المماليك على: صيدا، وبيروت، وصور، وحيفا، وعثليت، وانطرسوس. وهٰكذا سقط آخر المعاقل الفرنجية في شرقنا العربي، وتحررت أراضي الشام من سيطرتهم تماماً بعد احتلال دام قرنين من الزمن.

وأصبحت فلسطين من ناحية إدارية موزعة بين نيابتين: نيابة دمشق ونيابة صفد، وظل الأمر كذلك حتى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م؛ ففي هٰذه السنة أسس السلطان الناصر محمد بن قلاوون نيابة جديدة في غزة، وعيَّن الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائباً فيها. فأصبح النظام الإداري في فلسطين موزعاً بين ثلاث نيابات: قسم يتبع نيابة دمشق، ومنها بيت المقدس التي كانت لا تزال نيابة صغيرة تابعة لها، وآخر يتبع نيابة صفد، وثالث يتبع نيابة غزة. واستمر الأمر كذلك حتى سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م، حيث جعل السلطان الظاهر برقوق من بيت المقدس نيابة مستقلة، وعيّن الأمير قردم الحسيني نائباً فيها[١]، وبذا أصبح النظام الإداري في فلسطين يتكون من ثلاث نيابات: نيابة صفد، ونيابة غزة، ونيابة بيت المقدس.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، لماذا قسم المماليك فلسطين ثلاث نيابات؟ علماً بأن بلاد الشام كلها كان فيها ثماني نيابات طوال العصر المملوكي هي: نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة الكرك، ونيابة صفد، ونيابة غزة، ونيابة بيت المقدس[٢]. والجواب عن هٰذا السؤال هو أن المماليك حرروا الساحل

= عن الطبعة الأميرية (القاهرة: المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والنشر، لا. تا) (١٧٤/٤).

(١) المقريزي، مصدر سبق ذكره (٨١٣/٣).

(٢) ويزيد ابن تغري بردي على هٰذه النيابات نيابة ملطية، وهي بلدة كبيرة تقع في سفوح جبال اللكام في شمال الشام (ابن تغري بردي، مصدر سبق ذكرهو ٢٢٦/١٥). =

الشامي وطهروه من الوجود الفرنجي، إلا إن الفرنج لم ييأسوا، بل أخذوا يقومون بأعمال عدوانية ضد المماليك، منطلقين من قبرص حيناً، ومن الدويلات الإيطالية حيناً آخر. ثم ازدادت اتصالاتهم بالتتار، وصاروا يعملون على إقامة حلف معهم، كي تبقى حدود دولة المماليك الشرقية في خطر مستمر، ولتمكين الفرنج من استعادة الأراضي التي فقدوها في بلاد الشام، وفي رأسها بيت المقدس. وفعلاً، أُقيم لهٰذه الغاية تحالف بين التتار والغرب الأوروبي، ومملكة أرمينيا الصغرى، والقوى الفرنجية في بلاد الشام[١].

إذاً، ظلت فكرة السيطرة على بيت المقدس أملاً يراود الفرنج طوال العصر المملوكي؛ فبعد سقوط عكا، قاموا بحصار اقتصادي ضد المماليك، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحقيق هٰذه الغاية[٢]. وأعنف هٰذه الغزوات تلك التي شنها بيار الأول دو لوزيتيان سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م على مدينة الإسكندرية، فاجتاحت قواته المدينة ثلاثة أيام، وقتلت ودمرت واسرت الكثير من أهالي المدينة، ثم غادرت المدينة إلى بلادها[٣]. وفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م قام الفرنج بحلمة ضد طرابلس الشام، فدخلوا المدينة، ونهبوا بعض الأسواق، وحملوا معهم بعض الأسرى، وقتلوا آخرين من سكان المدينة[٤].

لقد كان الهدف الحقيقي وراء هجمات الفرنج وتحالفهم وتعاونهم مع التتار، هو إعادة سيطرتهم على فلسطين وبيت المقدس بالذات؛ فغزوة القبارصة على الإسكندرية

---

(١) سعيد عاشور، «الظاهر بيبرس» (القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب، ١٩٦٣)، ص٩٦؛ يوسف غوانمة، «تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي» (عمّان: دار الحياة، ١٩٨٢)، ص١٧.

(٢) المقريزي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٣، ق٢، ص٨١٣.

(٣) النويري الإسكندري، «الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية»، تحقيق عزيز سوريال (الهند، ١٩٧٠م)، الجزء ٢، ص١١٣؛ المقريزي، المصدر نفسه، ق١، ص١٠٦.

(٤) المقريزي، المصدر نفسه، ص١٤٩؛ ابن تغري بردي، مصدر سبق ذكره، الجزء ١١، ص٥٢.

سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م كان غرضها الوصول إلى بيت المقدس عن طريق القاهرة[١]. وبعد فشلهم، حوّل الفرنج نشاطهم نحو بلاد الشام، فهاجموا طرابلس ونهبوها، ثم هددوا بيت المقدس نفسه، حيث اجتاحت قواتهم يافا، فرضة القدس على البحر المتوسط سنة٨١٣هـ/ ١٤١٠م[٢]. ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد، بل تسللت قوات لهم إلى القدس عن طريق الحج[٣]، لكنهم لم يستطيعوا تحقيق حلمهم القديم.

ولما أدرك السلطان الأشرف شعبان عظم الخطر الأوروبي على بيت المقدس، عمد إلى رفع مرتبة نائبها فجعله برتبة طبلخاناه[٤]، لكن النيابة بقيت مرتبطة بنيابة دمشق. وقد زوّد السلطان نائب بيت المقدس بالقوات والعتاد كي يتمكن من صد الأخطار التي تهدد المدينة المقدسة، إلا إن المقريزي ذكر سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م أن السلطان الظاهر برقوق أنعم على الأمير قردم الحسيني بنيابة القدس، وذلك في غزة خلال توجهه لمحاربة التتار بزعامة تيمورلنك.

إن هٰذا النص الذي أورده المقريزي أول إشارة صريحة إلى توليه نائب لنيابة بيت المقدس من قبل السلطان في القاهرة، وسبب ذلك أن السلطان الظاهر برقوق خشي وقوع القدس تحت السيطرة الفرنجية بإرسال حملات جديدة، وخصوصاً أنه كان مشغولاً

---

(١) Atiya, Crusade, Commerce and Culture, (New York: Indiana University Press, 1962), p. 103.

(٢) المقريزي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ق١، ص١٤٣.

(٣) مجير الدين الحنبلي، «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» (عمّان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣)، الجزء ٢، ص٢٨٢.

(٤) الخالدي، «المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا»، لوحة ١٤٧ (مخطوط مكتبة جامعة القاهرة).

الطبلخاناه: إحدى وظائف أرباب السيوف، وأمراء الطبلخاناه يكونون في الغالب أربعين فارساً، وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين، ويكون للواحد منهم ثمانون فارساً، ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين، وإمرة الطبلخاناه هي الرتبة الثانية من الرتب العسكرية بعد أمراء مقدمي الألوف. القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص١٥.

بحرب التتار. لذا عمد إلى استحداث نيابة مستقلة في بيت المقدس كي تستطيع الوقوف في وجه الأخطار الداهمة، تماماً كما فعل السلطان الأشرف بعد غزوة لوزينيان للإسكندرية، فاستحدث نيابة الإسكندرية، وجعل فيها أميراً برتبة كبيرة، له قواته العسكرية، ليقف في وجه الأطماع الفرنجية الغازية بحراً.

ويؤكد مجير الدين الحنبلي هٰذا الاستنتاج؛ فقد ذكر أن تولية النيابة والنظر في بيت المقدس كانت تتم من قبل نواب الشام (لأن نيابة القدس كانت نيابة صغيرة تابعة لدمشق، وبقي الأمر كذلك حتى نحو سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م، فأصبحت تولية النائب تتم من قِبل السلطان في القاهرة)[١]. والملاحظ أن التاريخين عند كل من المقريزي والحنبلي متقاربان، وهٰذا يدعم وجهة النظر التي ذهبنا إليها.

ومن هنا، فإننا نؤكد أنه أصبح في فلسطين ثلاث نيابات وأن التولية فيها من السلطان في القاهرة، وفي رأس كل نيابة أمير برتبة كبيرة، وفي كل نيابة إدارتها ومؤسساتها وقواتها العسكرية ومواردها المالية. وهٰذا يناقض ما ذهب إليه برنارد لويس وكوهن وغيرهما من الباحثين، من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تشتمل على نيابتين فقط هما: نيابة غزة ونيابة صفد[٢]. ويحاول المستشرقون إثبات أن القدس لم تلق الاهتمام الكافي في العصر الإسلامي، كسائر المدن الأخرى، بدليل أن القدس لم تكن عاصمة لدولة أو مركزاً لحكم. لكن الدراسات الحديثة أثبتت بطلان هٰذه المقولة؛ فمدينة القدس كانت تتمتع بمكانة روحية لدى المسلمين، وكان الاهتمام بها كبيراً على مدى العصور، فبنوا فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة أثراً خالداً ما زال باقياً حتى يومنا هٰذا. أما في العصرين الأيوبي والمملوكي، فقد لقيت المدينة المقدسة العناية والرعاية، فمهرها المماليك بمنشآتهم الكثيرة، ثم جعلوا منها نيابة مستقلة، وعيَّنوا فيها الأمراء

(١) مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٢٨٢).

(٢) Cohen & Lewis, Population and Revenue in the towns of palestine in the Sixteenth Century (Princeton: Princeton University Press, 1978). p.9.

كبار، وأصبحت مركز حكم كغيرها من المدن المهمة في بلاد الشام، بل فاقتها أهمية مكانتها الروحية والدينية لدى الجميع. وتمكنت القدس بنائبها وقواتها من أن تقف بقوة وحزم في وجه الأخطار والأطماع الفرنجية الأوروبية والتتارية معاً.

وهٰكذا، فإن فلسطين قُسمت في العصر المملوكي ثلاث وحدات إدارية، أُطلق على كل وحدة اسم نيابة، ولكل نيابة عدد من الولايات التابعة لها. وقد تجاوزت حدود فلسطين في العصر المملوكي الحدود السياسية المعروفة في عصرنا الحاضر، فضمت أجزاء من جنوب لبنان الحالي وأجزاء من الجولان، وأغوار الأردن. وستتناول في هٰذه الدراسة حدود كل وحدة إدارية على نحو مستقل، بحسب الأقدمية التي تأسست تلك الوحدة فيها، ثم نتحدث عن الوظائف العسكرية والمدنية والدينية التي وجدت في هٰذه النيابات بصورة عامة، وارتباط تلك الوظائف بالسلطان في القاهرة أو بالنائب نفسه.

ثانياً: النيابات - حدودها وولاياتها

أ- نيابة صفد:

تقع هٰذه النيابة في الجزء الشمالي من فلسطين، وكانت تشتمل على أجزاء من جنوب لبنان والجولان وأغوار الأردن، وتتكون من إحدى عشرة ولاية، على راس كل منها وال برتبة جندي يعينه نائب صفد. أما الولايات فهي:

- ولاية الناصرة، وهي بلدة صغيرة تبعد عن طبريا ١٣ ميلاً.

- ولاية طبريا، مدينة تقع في غور الأردن على بحيرة طبريا، وتتبعها قَدَس، وكان معها السواد (الجولان) وبيسان من غور الأردن، لكنهما خرجا عنها في عهد القلقشندي.

- ولاية تبنين وهونين، وهما حصنان من جبل عامل يقعان بين بانياس وصور، وقيل إن هونين تابعة لعمل الشقيف.

- ولاية عثليت، كورة فيها قرى متسعة، وآخرها بلاد قاقون، وهي آخر حدود نيابة صفد، وليس فيها مقر ولاية معلوم.

- ولاية عكا، مدينة جليلة على ساحل البحر المتوسط، تبعد عن صفد ٢٤ ميلاً، وكانت قاعدة هٰذا الساحل قبل صفد، ثم أُقيمت صفد مقامها، وأصبحت عكا ولاية.

- ولاية صور، مدينة حصينة على ساحل البحر المتوسط، وهي من أقدم المدن على هٰذا الساحل.

ولاية الشاغور أو الشاغورين، وهي كورة، وتقع بين عكا وصفد والناصرة، فيها قرى متسعة، وليس فيها مقر ولاية معلوم.

- ولاية الإقليم، وهي كورة تقع بين دمشق والشُغْر والخُربة، فيها قرى متسعة وليس فيها مقر ولاية.

- ولاية شقيف أرنون، قلعة حصينة بين دمشق والساحل، وبقربها شقيف تيرون [طورون]، وهي قلعة حصينة على بعد مسيرة يوم من صفد، في جنوب لبنان الحالي، وكانت أحياناً تُضم إلى صفد وأحياناً إلى دمشق، وفي عهد القلقشندي لم تعد تابعة لصفد.

- ولاية جينين، تقع في رأس مرج ابن عامر، وهي مدينة قديمة متسعة، تقع على كتف واد لطيف.

ومن أعمال صفد كل من:

- اللجّون: وهي قرية قديمة إلى الغرب من بيسان، على نصف مرحلة منها، وتقع على خط المواصلات بين دمشق والقاهرة.

- قَدَس، السواد، بيسان، لكنها خرجت عن نيابة صفد وضُمت إلى نيابة دمشق.

- حيفا، قلعة كوكب، قلعة الطور القريبة من الناصرة[1].

---

(١) ابن فضل الله العمري، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: دولة المماليك الأولى»، تحقيق دوروتيا كرافولسكي (بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦)، ص٢٠٧، ٢٠٨؛ ابن فضل الله العمري، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ممالك مصر والشام والحجاز واليمن»، تحقيق =

وهٰكذا، فإن حدود هٰذه النيابة متفاوتة، فتارة تمتد إلى مناطق كثيرة متباعدة، وتارة تتقلص بحيث تشتمل على عدد محدود من الولايات. وقد حدد ابن فضل الله العمري حدود هٰذه النيابة فقال:

- حدها من القِبلة الغور حيث جسر الصِنَّبْرة من وراء طبريا.
- ومن الشرق الملاّحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وبحيرة الحولة.
- ومن الشمال نهر ليطا (نهر الليطاني الحالي في جنوب لبنان).
- ومن الغرب البحر المتوسط[١].

بْ- نيابة غزة:

وتُسمى الشام الأعلى، وتحتوي على مناطق ساحلية وجبلية، فحدّها من الشمال قاقون، ومن الشرق الخليل، ومن الغرب البحر المتوسط، وأما في الجنوب فتمتد إلى سيناء ومنطقة النقب. وفي هٰذه المنطقة زرع وماشية، وهي مجمع حاضرة وبادية، تسكنها القبائل العربية البدوية، وتنتهي حدودها حتى العريش، أول الديار المصرية[٢]. وهي تشتمل على الولايات التالية:

- ولاية البر.
- ولاية الرملة، وتقع مدينة الرملة في سهل من الأرض، والمسافة بينها وبين القدس مسيرة يوم، وميناؤها على البحر المتوسط مدينة يافا، وتقع إلى الغرب من الرملة على بعد ٦ أميال، لكن هٰذه الولاية خرجت عن نيابة غزة فيما بعد وضُمت إلى نيابة بيت المقدس.

= أيمن فؤاد سيد (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٥)، ص١٣٥، ١٣٦؛ ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف» ص١٨٢. ولم يذكر من الولايات سوى: ولاية البر، وولاية الشقيف، وولاية جينين، وولاية عكا، وولاية الناصرة، وولاية صور. وانظر: القلقشندي، مصدر سبق ذكره (٤/١٥١-١٥٥، ٢٤٠).

(١) ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، مصدر سبق ذكره، ص١٨٢.

(٢) ابن فضل الله العمري، «مسالك الأبصار: دولة المماليك الأولى»، مصدر سبق ذكره، ص٢١٦؛ ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، مصدر سبق ذكره، ص١٧٦.

- ولاية لد، وتقع اللد إلى الشمال الشرقي من الرملة، وهي مدينة قديمة تبعد عن الرملة ثلاثة فراسخ، وقد فُصلت عن نيابة غزة وضُمت إلى ولاية الرملة.

- ولاية قاقون، مدينة لطيفة غير مسوَّرة، والمسافة بينها وبين لد مسيرة يوم[١].

- ولاية مرقريتا.

- ولاية بيت جبريل.

- ولاية الداروم[٢].

ج- نيابة بيت المقدس:

وتشمل المنطقة المحيطة بالقدس إلى نهر الأردن، المسمى الشريعة، إلى الرملة طولاً، ومن البحر الشامي (البحر المتوسط) إلى مدائن لوط عرضاً (البحر الميت)، وتتصل حدودها إلى أول قاقون. وغالب هٰذه النيابة جبال وأودية، اللهم إلا ما هو في جنبات تلك الجبال[٣].

ولنيابة بيت المقدس ثلاث ولايات هي:

- ولاية الخليل.

- ولاية نابلس.

- ولاية الرملة[٤].

---

(١) القلقشندي، مصدر سبق ذكره (٤/٩٨-١٠٠).

(٢) ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، مصدر سبق ذكره، ص١٧٧. وانظر: القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٩٩.

(٣) ابن فضل الله العمري، «مسالك الأبصار: دولة المماليك الأولى»، مصدر سبق ذكره، ص٢٠٩؛ ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، المصدر نفسه، ص١٧٧.

(٤) القلقشندي، مصدر سبق ذكره (٤/١٩٩-٢٠٠)؛ ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، المصدر نفسه.

ثالثاً: الوظائف الإدارية في فلسطين في عصر دولة المماليك

تقسم الوظائف الإدارية إلى ما يلي:

أ- الوظائف العسكرية (أرباب السيوف).

ب- الوظائف الدينية.

ج- الوظائف الديوانية.

وسنتناول في الدراسة التالية ذكر تلك الوظائف بصورة عامة، مع الإشارة إلى النيابة التي توجد هٰذه الوظيفة فيها، لأن بعض الوظائف وجِد في بعض النيابات من دون نيابات أُخرى، وذلك بحسب الحاجة الإدارية إلى تلك الوظيفة.

أ- الوظائف العسكرية (أرباب السيوف):

١- نائب السلطنة:

ويعبَّر عن صاحبها بالنائب الكافل، ويقوم النائب عادة مقام السلطان في عامة الأمور، ويعلم على التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك من الأمور المتعلقة بنيابته[١]. وكانت له إدارة خاصة به وخاتم خاص بنيابته، وكان يقيم في قصر خاص سُمي دار النيابة، وله استادار يتكلم في شؤون إقطاعاته وفلاحيه الذين يعملون في هٰذا الإقطاع، ويشرف أيضاً على أمور بيته ونفقاته[٢]. ومن مهمات النائب تفقد حال الرعية، صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، والنظر في القرى والغلات، وإيصال الحقوق إلى مستحقيها، وتولية

---

(١) القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٦.

(٢) السبكي، «معيد النعم ومبيد النقم»، تحقيق محمد علي النجار وزملائه (القاهرة: دار الكتاب العربي بمصر، ١٩٤٨)، ص٢٧.
استادار، كلمة مركبة من كلمتين فارسيتين إحداهما استد ومعناه الأخذ، والثانية دار، ومعناها الممسك، وهو لقب من يتولى قبض أموال السلطان أو الأمير وصرفه والإشراف على إقطاع السلطان أو الأمير (القلقشندي، المصدر نفسه، ٥/٤٥٧).

المناصب لأهليها، وإقامة فقيه في كل قرية لا فقيه فيها، يعلِّم أهلها أمر دينهم، وإلقاء مقاليد الأحكام إلى الشرع، لأنه لا حاكم إلا الله تعالى، والنظر في أمر المفسدين من قطاع الطرق وأهل الفتن، وحل المنازعات التي تحدث بين القبائل البدوية(١).

ومن عادة النائب أن يركب بالعسكر في أيام المواكب، وينزل الجميع في خدمته، وذلك مرتين في الأسبوع، فيخرج إلى ظاهر المدينة، ثم يعود في أُبهة عظيمة وتجميل كبير. وكان السلطان يرسل تقليداً بنيابته كل عام، ويرفق ذلك بخلعة يلبسها النائب، ويشق البلد بها في احتفال كبير. وفي مقابل ذلك كان النائب يقدم إلى السلطان في كل عام عدداً من التقادم والهدايا، وجرت العادة أن يتقبلها السلطان، ثم يعلن رضاءه عن النائب بأن يخلع عليه. هٰذا بالإضافة إلى الأموال التي كان يقدمها النائب إلى خزينة السلطان. وفي العموم، فالنائب سلطان مختصر في نيابته(٢)، والنيابة سلطنة مصغرة. ووجد في النيابة معظم الوظائف الموجودة في مقر السلطنة نفسها، وللنائب استقلاليته في معظم الشؤون الداخلية المتعلقة بنيابته: الإدارية، والمالية، والعسكرية، فهو المتصرف المطلق التصرف في كل أمر(٣). إلا إن جيش النيابة هو جزء من جيش الدولة العام، فإذا احتاج السلطان إليه، ينظم هٰذا الجيش إلى القوات السلطانية في أية مهمة عسكرية تحتاجها الدولة. وفي العموم، فإن النظام الإداري المملوكي يشبه ما نسميه في وقتنا الحاضر النظام الفيدرالي.

وجرت العادة أن يكون النائب أميراً برتبة كبيرة، كنواب صفد وغزة وبيت المقدس، وكانوا برتبة مقدم ألف. أضف إلى ذلك أن كل نيابة كان فيها عدد من أمراء الطبلخاناه، وأمراء العشرات، وأمراء الخمسات(٤).

---

(١) السبكي، المصدر نفسه، ص٢١-٢٣.

(٢) ابن فضل الله العمري، «مسالك الأبصار: دولة المماليك الأولى»، مصدر سبق ذكره، ص١١٤، ١١٥؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره (١٧/٤)؛ يوسف غوانمة، «التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي» (عمّان: دار الفكر، ١٩٨٢)، ص٢١، ٣٢.

(٣) ابن فضل الله العمري، المصدر نفسه، ص١١٥.

(٤) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص١٩٨.

=

٢- نائب القلعة:

وجدت وظيفة نائب القلعة في كل من قلعتي صفد وبيت المقدس، ولم تكن هٰذه الوظيفة موجودة في غزة. ونيابة القلعة مستقلة عن نيابة السلطنة، وليس لنائب السلطنة عليها حديث، وتكون التولية فيها من السلطان في القاهرة بمرسوم شريف، ويُختار عادة من بين مقدمي الألف أو أمراء الطبلخاناه(١). ومن مهماته: يقوم بصيانة القلعة وحفظها، وعمارة ما وهى من بنيانها، أو ما تدعو الحاجة إليه من تجديد أبنيتها، وتشييد أفنيتها، وشد عقودها. كما يتولى المحافظة على الخزانة السلطانية. وكان يصرف جانباً من عنايته في الزردخاناه، والاهتمام بشؤون المؤن والذخائر الموجودة في القلعة. ومن مهماته ايضاً الإشراف على غلق أبواب القلعة عند غروب الشمس وفتحها بعد الشروق، مع احتفاظه خلال ذلك بالمفاتيح(٢). وكان لنائب القلعة أجناد ومماليك يقيمون في القلعة مهمتهم القيام على حفظها، ويشكلون قسماً من جيش النيابة. وكان النائب يرتب جماعة منهم لحراسة القلعة، وهم الحراس أو العسس، حمايةً لأسوارها من عبث المتسللين. كما كان لا يُسمح لأحد من رجال القلعة بمغادرتها إلا بدستور (إذن خاص)، شرط أن يعود في يومه. ويرتب النائب في القلعة طبلاً لاستعلام أوقات الليل، ففي الثلث الأول من

= أمير عشرين وأمير عشرة: فأمراء العشرين هم الطبقة الثانية في صفوف الأمراء المماليك، ولكل أمير عشرون فارساً، أما أمراء العشرة، فهم الطبقة الثالثة في صفوف الأمراء المماليك، ولكل أمير عشرة فوارس، وطبقة أمراء العشرة هم أكثر طبقة في الجيش المملوكي. (القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٥).

(١) القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٥٠، ١٨٥.

(٢) ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، مصدر سبق ذكره، ص٩٥، ٩٦؛ القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٨٥.

الزردخاناه: أو السلاح خاناه، ومعناها بيت السلاح وربما قيل بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد، وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسيّ العربية والنشاب والرماح والدروع، وغيرها من المعدات العسكرية، وكان بعض القلاع يصنع هٰذه الأسلحة في الزردخاناه نفسها الموجودة في القلعة؛ حيث يكون في القلعة صناع السلاح (القلقشندي، المصدر نفسه، ص١١).

الليل يضرب عليه ضربة واحدة، وفي الثلث الثاني ضربتين، وفي الثلث الأخير ثلاث ضربات حتى يؤذن الصبح. وكانت تتكرر هٰذه الضربات في أوقات محددة[١].

وكان نائب القلعة عين السلطان على نائب السلطنة وعلى جميع موظفي الإدارة في النيابة واعمالها، ولهٰذا وضع البريد الطائر (الحمام الزاجل) في تصرفه لإبلاغ السلطان في القاهرة كل جديد كلما دعت الضرورة[٢].

ويقيم نائب القلعة في دار خاصة به داخل القلعة نفسها. وكانت القلاع عادة ضمن أسوار المدينة، كقلعة بيت المقدس، أو في مكان قريب من المدينة يتميز بالحصانة والمنعة، كقلعة صفد.

٣- والي المدينة:

وجدت هٰذه الوظيفة في نيابة صفد ونيابة غزة ونيابة بيت المقدس، وكان يُطلق على متوليها في العصور الإسلامية السابقة صاحب الشرطة[٣]. ومن اختصاصات والي المدينة: المحافظة على الأمن، ومطاردة اللصوص والمفسدين، ومراقبة الخمارين وغيرهم ممن يسيئون التصرف، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم. وكان له الحق في جلد المخالفين من السكارى بالعصا[٤]، والفحص عن المنكرات من الخمر

---

(١) ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، المصدر نفسه، ص٩٥، ٩٦؛ القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٨٥.
العسس: الطواف بالليل، لتتبع أهل الريب.
تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، «المواعظ والاعتبار في ذكرالخطط والآثار» (القاهرة: دار الطباعة المصرية، ١٨٥٣)، الجزء ٣، ص٣٦٢.

(٢) ابن فضل الله العمري، المصدر نفسه، ص٩٦.

(٣) المقريزي، «الخطط»، مصدر سبق ذكره، الجزء ٣، ص٣٦٢؛ غوانمة، «التاريخ الحضاري لشرقي الأردن»، مصدر سبق ذكره، ص٣٤؛ غوانمة، «تاريخ نيابة بيت المقدس»، مصدر سبق ذكره، ص٤٤.

(٤) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٤٣، ٤٤.

والحشيش ونحو ذلك، وسد الذريعة فيه، وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم[١]. ولم يكن لوالي المدينة التجسس على الناس بحجة البحث عن المنكر في بيوتهم، ويمنع أيضاً من هتك حرمة بيوت الناس، وإرعابهم وإزعاجهم، وأخذ أموالهم باسم القضاء على المنكر، ولا يجوز للوالي إيقاع العقاب بمجرد التهمة والظن[٢].

٤ - الحاجب:

كان في كل نيابة من نيابات فلسطين الثلاث في العصر المملوكي حاجب واحد أو أكثر، والحجوبية وظيفة قديمة أُحدثت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وكان موضوعها إذ ذاك حجب السلطان عن العامة، ويُغْلق بابه دونهم، أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته[٣]. وأحياناً كانت هٰذه الوظيفة تُسمى القيادة، وكان الحاجب يسمى قائد الجيش. لكن هٰذه الوظيفة أصبحت في العصر المملوكي من وظائف أرباب السيوف، فصار من جملة مهماته: عرض الجند، وتفقد أحوالهم ونقلها إلى النائب، وتقديم من يرد إلى النائب والاستئذان لهم. كما كان يقوم مقام النائب في كثير من الأحيان[٤]، فإذا غاب لفترة ما حل محله إلى حين عودته[٥].

وكان حاجب غزة برتبة أمير طبلخاناه[٦]، أما صفد فكان فيها ثلاثة حجاب أكبرهم برتبة طبلخاناه، وهو حاجب الحجاب، والحاجبان الآخران كان كل منهما برتبة امير عشرة[٧]. أما نيابة بيت المقدس فكان فيها أمير حاجب، والظاهر أن مهمات خاصة أسندت إليه في القدس، فمجير الدين الحنبلي يقول: «وكان بالقدس أمير حاجب على

(١) المصدر نفسه، ص٤٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤، ٤٥.
(٣) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، (١٩/٤).
(٤) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٤٠؛ القلقشندي، المصدر نفسه (١٩/٤).
(٥) المقريزي، «السلوك»، مصدر سبق ذكره (١٠١٥/٣).
(٦) القلقشندي، مصدر سبق ذكره (١٩٨/٤).
(٧) المصدر نفسه، ص٢٣٣.

عادة غيره من البلاد، وكان يحكم بين الناس، ويرفع إليه الأمور المتعلقة بارباب الجرائم وغيرهما مما يرفع إلى حكام الشرطة»[١].

٥- الدوادار:

ذكرت المصادر وجود وظيفة الدوادار في بيت المقدس وغزة، لكنها لم تكن موجودة في نيابة صفد[٢]. ويذكر السبكي أن هٰذه الوظيفة كانت قديماً تسمى الحاجب[٣]. والدوادارية موضوعها تبليغ الرسل عن النائب وإبلاغ عامة الأُمور، وتقديم القصص إليه والمشاورة فيمن يحضر لمقابلته. ومن مهماته أيضاً تقديم البريد إلى النائب، وتقديم الدواة لأخذ خطه على عامة المناشير والتواقيع والكتب الصادرة من نائب السلطنة[٤]. وكان النائب يكلفه مهمات حربية، ففي سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م كلف الأمير جان بلاط نائب القدس الأمير جانم دوادار القدس مهمة في قرية بيت لقيا، فقُتل هناك بإيعاز من نائب غزة بسبب خلاف وقع بين النائبين[٥].

٦- المهمندارية:

ويعرف صاحبها بالمهمندار، ويقتصرعمله على تلقي الرسل الواردين إلى النائب وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد إلى النيابة من بلاد أُخرى، فينزلهم في دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم[٦]. ووجِدت هٰذه الوظيفة في كل من نيابة غزة ونيابة صفد.

ويشتَرط في المهمندار أن يعتمد مصلحة المسلمين، ويرهب القصّاد ويوهمهم بقوة المسلمين وشدة بأسهم، وعظيم سطوتهم، واتفاق كلمتهم[٧]. وعلى المهمندار أن

---

(١) مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٢٨١).
(٢) المصدر نفسه، ص٣٤١.
(٣) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٢٥.
(٤) المصدر نفسه؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره (٤/ ١٩).
(٥) مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٣٧١).
(٦) القلقشندي، مصدر سبق ذكره (٤/ ٢٤١)؛(٥/ ٤٥٩).
(٧) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٣١-٣٢.

يعامل الواردين إلى النيابة بحسب مراتبهم، وأن ينهي أمور القصّاد إلى النائب بمقدار ما يكون فيه المصلحة، فيبادر أحياناً إلى إكرام بعضهم، ويكف عن إعظام آخر، بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة[١].

٧- نقابة النقباء:

وجدت هٰذه الوظيفة في نيابة غزة، وهي نقيبان، نقيب للميمنة ونقيب للميسرة[٢]. والنقباء يكونون عادة أمراء عشرة، أو جنود حلقة، أما نقيب النقباء فيكون أمير طبلخاناه[٣].

ويقف النقباء عادة في أبواب النائب أو الحاجب، وهم الذين يُطلَب منهم إحضار شخص معين، أو النظر في أمور معينة والتحقق منها. وعلى النقيب أن يترفق بمن يطلبه، وأن يترفق في حل الأمور، ويستخدم اللين بحيث لا يسبب زيادة الأمر سوءاً، أو يؤدي إلى غضب الأمير أو حِدّته[٤].

٨- الأتابكية:

ويسمَّى صاحبها أتابك العساكر، وأصلها أطابك، ومعناه الوالد الأمير، أو أمير أب، والمراد بذلك أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل. وليس للأتابك وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، لكن غاية هٰذا اللقب رفعة المحل وعلو المقام. وقد وجدت هٰذه الوظيفة في نيابتي صفد وغزة، ولم تكن موجودة في نيابة بيت المقدس[٥].

٩- شد الدواوين:

وموضوع هٰذه الوظيفة أن يكون صاحبها رفيقاً لناظر النيابة، ومتحدثاً في استخلاص

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٢.
(٢) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، (١٨٦/٤-١٩٨).
(٣) القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٨٦.
(٤) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٤٢.
(٥) المصدر نفسه؛ ابن تغري بردي، مصدر سبق ذكره، (٣٣١/١٥-٣٣٧)؛ (٢٠/١٦). =

الأموال من الجهات المترتبة عليها، واستخراج الأموال ممن يعسر استخلاصه منه، ومن يتولاها يكون أمير عشرة، وفي أحيان جندياً من جنود الحلقة[١]. ووجدت هٰذه الوظيفة في نيابات صفد وبيت المقدس وغزة[٢] وخصوصاً في القيساريات ودور الوكالة المعدة للتجار الأجانب، فكان شاد دار الوكالة يتسلم المكوس المترتبة على السلع المباعة داخل هٰذه الوكالة ويقدمها إلى النائب.

١٠ - شد الأوقاف:

وموضوعها التحدث في أوقاف المسلمين في صفد وغزة، وعادتها إمرة عشرة وربما كانت طبلخاناه[٣]. أما بيت المقدس فمسؤولية الأوقاف فيها كانت من اختصاص ناظر الحرمين الشريفين، حيث يقوم بتثمير تلك الأوقاف في مصلحة الحرمين الشريفين[٤].

١١ - خزندارية القلعة:

وموضوعها التحدث على الخلع والتشاريف السلطانية في القلعة، وعادتها أربعة طواشية، بعضهم أعلى رتبة من بعضهم الآخر، فأحدهم برتبة طبلخاناه أو أمير عشرين، والثاني دونه، والثالث دونه، والرابع دونه، ولكل منهم توقيع من نائب السلطنة[٥]. ووجدت هٰذه الوظيفة في صفد وبيت المقدس، ويشترط في متوليها أن يكون أميناً، وألاّ يمطل أحداً حقه، بل يؤديه إليه ميسراً[٦].

١٢ - أمير آخورية البريد:

وموضوعها التحدث على خيول البريد في صفد وغزة وبيت المقدس ونواحيها، ويتولاها أمير برتبة أمير عشرة[٧].

---

(١) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، (٤/٢٢-١٨٦).
(٢) السبكي، مصدر سبق ذكرهو ص٢٨؛ القلقشندي، المصدر نفسه، ص٢٣٤، ٢٤٠.
(٣) القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٨٦، ٢٣٤، ٢٤٠.
(٤) المقريزي، «السلوك»، مصدرسبق ذكره، (٤/ ٨١).
(٥) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، (٤/١٨٦-٢٤٠).
(٦) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٢٦.
(٧) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، (٤/١٨٧-٢٤٠).

١٣- تقدمة البريد:

وظيفة كان يتولاها مقدم البريد أو صاحب البريد، وموضوعها التحدث على جماعة البريدية في صفد وغزة وبيت المقدس، ويتولاها شخص أو شخصان يكونان برتبة أمير عشرة أو أمير خمسة، ويكتب لكل منهما توقيع كريم من النائب نفسه(١). وهم الذين يحملون رسائل السلطان أو النائب وكتبه، ويشترط في البريدي أن يكتم الأسرار، وألاّ يكون فضولياً، وأن يكون صادقاً عادلاً. وقد استخدم الأهالي البريد فأرسلوا كتبهم بواسطته(٢).

١٤- ولاية البر:

تعني ولاية البر المنطقة المحيطة بكل من صفد وغزة، إلا إن غزة كانت ولايتها أكثر اتساعاً، بحيث اشتملت أجزاء من سيناء ومنطقة النقب جنوب فلسطين، ولم توجد هٰذه الوظيفة في نيابة بيت المقدس(٣).

ب- الوظائف الدينية:

اختلفت هٰذه الوظائف من نيابة إلى أُخرى، فنشاهد أن بعض الوظائف وجِد في نيابة بيت المقدس، من دون النيابتين الأُخريين، وذلك بسبب المركز الديني للمدينة المقدسة ووجود المسجد الأقصى وقبة الصخرة والحرم الإبراهيمي في الخليل، بالإضافة إلى الأوقاف الكثيرة التي وقِفت لمنفعة تلك المراكز الدينية. أما القضاء، فقد وجِد في كل نيابة أربعة من قضاة القضاة، فلكل مذهب قاضي قضاة، تماماً كما كان الحال في معظم النيابات في بلاد الشام. وسنتحدث عن الوظائف الدينية مبتدئين بتلك الموجودة في بيت المقدس، ثم نتناول تلك الوظائف الموجودة في كل من النيابات الثلاث.

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٨، ٢٤٠.

(٢) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٣٣.

(٣) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص١٩٨، ٢٤٠؛ محمود علي خليل عطا الله، «نيابة غزة في العهد المملوكي» (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٦)، ص١٣٣.

١ - ناظر الحرمين الشريفين:

تُعتبر وظيفة ناظر الحرمين من أقدم الوظائف الكبرى في بيت المقدس، فوجدت في العصر الأيوبي ومنذ أوائل العصر المملوكي، فكان الناظر أميراً كبيراً برتبة طبلخاناه، وهو يجمع عادة بين نظر الحرمين في القدس والخليل، وفي أحيان يتولاها عالم جليل برتبة قاضي القضاة، عرف فضله بالعلوم والفلاح، وربما جمع نائب القدس بين النظر والنيابة(١).

وكانت تولية الناظر تتم بمرسوم سلطاني في القاهرة، فيخلع السلطان عليه ويدخل مدينة القدس وهو يلبس هٰذه الخلعة، فيتلقاه النائب والقضاة وأعيان النيابة، ويدخل المسجد الأقصى حيث يُتلى مرسوم السلطان(٢). وكان نظر الحرمين في القدس والخليل يضاف إلى نظر الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، ويكون متوليها ناظراً واحداً كما حدث في عهد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، حيث ولى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م القاضي شرف الدين عبد الرحمٰن ابن الصاحب نظر الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وحرمي القدس والخليل(٣).

ومن اختصاصات ناظر الحرمين الإشراف عليهما، وبناء وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح. أضف إلى ذلك إشرافه على الأوقاف الخاصة بهما، وتثمير تلك الأوقاف في مصلحة الحرمين(٤). أما أموال الأوقاف الزائدة، فكان يحتفظ بها في صندوق الصخرة(٥). وكان بعض السلاطين يعمل على العناية بأوقاف الحرمين، فيرسم بعمارة ما يحتاج إلى عمارة، وترميم وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح من أموال الدولة(٦).

---

(١) المقريزي، «السلوك»، مصدر سبق ذكره (٤/ ٨١). مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٢٧٢-٢٧٣، ٢٧٥)؛ غوانمة، «تاريخ نيابة»، مصدر سبق ذكره، ص٣٦.

(٢) مجير الدين، المصدر نفسه، ص٣٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٧١.

(٤) المقريزي، «السلوك»، مصدر سبق ذكره (٤/ ٨١).

(٥) مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٢٧٥).

(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٨، ٢٧٩.

٢- مشيخة الصلاحية:

تعتبر المدرسة الصلاحية من أقدم المدارس في بيت المقدس؛ أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي، بعد تحريره بيت المقدس من الفرنج سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[١]، مكان كنيسة قديمة تُعرف بكنيسة صند حنة (St.Ann)، والقديسة حنة هي والدة السيدة مريم العذراء، ويقال إن قبرها موجود في هٰذا المكان[٢]. وتقع المدرسة الصلاحية داخل أسوار مدينة القدس وخارج الحرم من جهته الشمالية، قرب باب الأسباط، فلا تبعد عنه سوى أمتار قليلة، وجعلها [السلطان صلاح الدين] لتدريس المذهبي الشافعي.

والمشيخة الصلاحية من «الوظائف السنّية في مملكة الإسلام»[٣]، ولا تتم توليتها إلا بمرسوم سلطاني من القاهرة[٤]. وعند التعيين يدخل شيخ الصلاحية المدينة، ويشق أسواقها وقد ارتدى التشريف السلطاني، يحف به العلماء والفقهاء والنائب والناظر، وينتهي إلى المسجد الأقصى، حيث يقرأ المرسوم السلطاني[٥]. وأول من تولى مشيخة الصلاحية في عهد صلاح الدين الأيوبي غانم بن علي بن حسين الأنصاري الخزرجي، وتولاها من بعده الكثير من أبنائه وأحفاده. ولعائلة الغوانمة المنسوبة إليه آثار جليلة في بيت المقدس منها: منارة الغوانمة، وبوابة الغوانمة، وحارة الغوانمة، وبقيت مشيخة الصلاحية في ايديهم حتى سنة ٨٩٨هـ[٦].

---

(١) العماد الكاتب الأصفهاني، «الفتح القسّي في الفتح القدسي»، تحقيق محمد محمود صبح (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ص١٤٥، ٦١٢.

(٢) مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٤١)؛

Van Berchem, Corpus inscriptionum (Jerusalem Ville) (Le Cair, 1922), p.91.

(٣) مجير الدين، المصدر نفسه، ص٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٨.

(٥) المصدر نفسه، ص١١٧.

(٦) المصدر نفسه، ص١٤٦، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٩٦، ٣١٩، ٣٦٧.

وشيخ الصلاحية أحد الثلاثة الكبار الذين يصرفون شؤون نيابة بيت المقدس، أما الآخران فهما نائب السلطنة وناظر الحرمين الشريفين. وفي أحيان يتقلد شيخ الصلاحية منصب قاضي القضاة الشافعية في بيت المقدس[١]، أو يجمع بين نظر الحرمين الشريفين ومشيخة الصلاحية[٢]. وكان بعضهم يجمع بين مشيخة الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى، أو بين المشيخة ونصف الخطابة في المسجد الأقصى، ومن هٰؤلاء مجد الدين ابن جماعة وشيخ الإسلام النجمي[٣]. وكان البعض ينيب عنه في نصف المشيخة أحد الشيوخ المقيمين في القدس بينما يظل هو مقيماً في القاهرة[٤].

ولشيخ الصلاحية منزلة خاصة لدى السلاطين، وهٰذا دلالة على ما لهٰذه المدرسة وشيوخها من احترام وتقدير لدى الدولة ورجالها. فإذا أتى شيخ الصلاحية إلى القاهرة يخرج أمير كبير لاستقباله، ويصعد به إلى السلطان في قلعة الجبل، فيُقبل السلطان عليه ويكرمه ويجلسه عن يمينه[٥]، ثم ينزله في دار خاصة أُعدت له. وفي أثناء إقامته في القاهرة يرتب السلطان له في كل يوم مبلغ مئتي درهم، ومن اللحم ثلاثين رطلاً، وفي العادة ينعم عليه بالهدايا والثياب الفاخرة، إضافة إلى ما يهدى إليه من رجال الدولة في القاهرة[٦].

٣- الخطابة:

ونعني بالخطابة خطابة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، والمسجد الإبراهيمي في الخليل. والخطابة من أجلّ الوظائف الدينية في النيابة وأعلاها رتبة «إذ كان النبي ﷺ يفعلها بنفسه، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم»[٧].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨٣.
(٢) المقريزي، «السلوك»، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ق١، ص٤٤٠، ٤٨٣، ٥٢٥.
(٣) مجير الدين، مصدر سبق ذكره، الجزء ٢، ص٢٩٨.
(٤) المقريزي، «السلوك»، مصدر سبق ذكره، الجزء ٣، ق٢، ص٨٥٨؛ مجير الدين، المصدر نفسه، ص٣٠٤، ٣٦١.
(٥) المقريزي، «السلوك»، المصدر نفسه، الجزء ٤، ق١، ص٣١٢.
(٦) المصدر نفسه، ص٣١٢.
(٧) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص٣٩.

ويتم التعيين في إمامة وخطابة المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي من قِبل قاضي القضاة[١]، ثم من ناظر الحرمين في بيت المقدس. وأخيرا صار السلطان يتدخل في التعيين في إمامة المسجد الأقصى والصخرة[٢]، فيأتي التقليد والمرسوم من القاهرة فيدخل الإمام بيت المقدس وهو لابس خلعة السلطان، وهي تشريف وطرحة على العادة، ويقرأ كتاب التقليد في المسجد الأقصى أمام جمهور المصلين والحضور هناك[٣]. وقد تولى آل الغوانمة خطابة المسجد الأقصى مدة طويلة[٤].

وفي بعض الأحيان كان شيخ الخانقاه الصلاحية في بيت المقدس يتولى مشيخة الحرم الشريف[٥]، وكان بعضهم يجمع بين مشيخة الصلاحية وقضاء الشافعية وخطابة المسجد الأقصى[٦]. ثم صارت الإمامة والخطابة في المسجد الأقصى وقبة الصخرة يتقاسمهما اثنان، لكل نصف الخطابة أو الإمامة، ويتم التعيين من السلطان في القاهرة[٧]، وفي احيان تولّى الخطابة في المسجد الأقصى أربعة شيوخ، لكل منهم ربع الخطابة[٨].

---

(١) المقريزي، «السلوك»، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ق١، ص٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٠؛ ابن تغري بردي، مصادر سبق ذكره، الجزء ١٣، ص٩٧.

(٣) مجير الدين، مصدر سبق ذكره، الجزء ٢، ص٢٩٢، ٢٩٥، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٥٥، ٣٦٠، وانظر: المقريزي، «السلوك»، المصدر نفسه، ص١٣٧، ١٤١؛ الجزء ٣، ق٢، ص٩٢٣. التشريف: الخلعة التي يلبسها السلطان أو يمنحها لأحد رجال الدولة كي يلبسها عند قراءة التقليد، وتسمى هٰذه الثياب أسماء تطابق المناسبة التي مُنحت من أجلها مثل (خلعة النيابة، خلعة الوزارة، خلعة السفر، خلعة الرضى). ورفض ثوب التشريف يعتبر إساءةخطرة، والخلعة عادة تكون كاملة من الصوف مبطنة بفرو سمور، أو ثوباً من الأطلس الأبيض فيه بنود مطرزة. أنظر: ماير، «الملابس المملوكية»، ترجمة صالح الشيني (القاهرة، ١٩٧٢)، ص١٠٨، ١١١.

الطرحة: عبارة عن وشاح يُلبس فوق العمامة، ويلتف حول الرقبة، ويسترسل على الكتفين. وكان هٰذا الزي امتيازاً للطبقة الرفيعة من العلماء والفقهاء والموظفين (ماير، المصدر نفسه، ص١٩٣).

(٤) مجير الدين، مصدر سبق ذكره، الجزء ٢، ص١٤٦، ١٩٠، ٢٠٤، ٣٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٦٧.

(٦) المصدر نفسه، ص١١٧، ٣١٩، ٣٢٧، ٣٣٥.

(٧) المصدر نفسه، ص١١٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٩، ٣٣٣، ٣٥٥.

(٨) المصدر نفسه، ص٣٢٧، ٣٤٣، ٣٦٣.

ووجِد في المسجد الأقصى وظيفة رئيس المؤذِّنين، وجرت العادة أن تصرف الجوامِك (الرواتب) إلى هٰؤلاء الخطباء والمؤذِّنين. ووقفت قرى كثيرة في منطقة القدس لهٰذه الغاية؛ فالوثيقة رقم ٢٢ سنة ٧٠٧هـ نصت على وقفية لقرية في أعمال القدس، وكان يسلّم ريع وقفها جوامك للخطيب والمؤذن ومصالح السقاية المنصورية على يد «الجناب الكريم العالي السيفي سيف الدين البدري».»[١].

وكانت وظيفة الخطابة موجودة في نيابتي صفد وغزة، بالإضافة إلى المؤذِّنين الذين كانوا يقومون بأعمال الخطابة والأذان في مساجد النيابتين، ولم تكن هٰذه الوظيفة بالدرجة نفسها التي كانت عليها في المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي في نيابة بيت المقدس.

٤- القضاة:

يُعتبر قاضي القضاة رأس الهيئة القضائية في نيابات فلسطين الثلاث[٢] وهو الذي يقوم بتعيين القضاة في جميع ولايات النيابة. وكان يشغل منصب قاضي القضاة في كل نيابة قاضي القضاة الشافعية. وفي بيت المقدس كان قاضي القضاة الشافعية يجمع إلى ذلك منصب شيخ الصلاحية، وفي أحيان منصب ناظر الحرمين الشريفين[٣].

وفي العصر المملوكي جعل السلطان الظاهر بيبرس القضاء في أربعة قضاة، وقد عمم هٰذا النظام في معظم النيابات في البلاد الشامية والديار المصرية؛ فقد كان في كل من نيابات فلسطين أربعة قضاة: للشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي، ولقاضي القضاة نائب في كل ولاية، وفي أحيان تنفرد كل مدينة بقاضيها[٤].

---

(١) وثيقة رقم ٢٢، سنة ٧٠٧هـ، من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.

(٢) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٩، ص٢٥٥.

(٣) مجير الدين، مصدر سبق ذكره، ائلجزء ٢، ص٢٨٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٨٧، ٣٠٤، ٣١١، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٧٠.

وكان التعيين في منصب قاضي القضاة يتم بمرسوم شريف من السلطان. وكعادة الموظفين الكبار في النيابة، يدخل القاضي المعين المدينة مرتدياً خلعة السلطان، ثم يقرأ توقيعه بحضور النائب والناظر وباقي القضاة وأعيان النيابة[١]. ثم صار القضاة يبذلون الأموال للحصول على وظيفة قاضي القضاة، كما حدث في بيت المقدس؛ ففي سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م تولى منصب قاضي القضاة الحنفي القاضي جمال الدين الديري «بعد مال كبير بذله في الولاية»[٢].

وكان قاضي القضاة الشافعي يرتفع درجة عن باقي القضاة، لذلك يتعين على قاضي الشافعية النظر في الأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال[٣]، ويساعد القاضي في مهمته كل من:

كاتب القاضي: ويشترَط فيه أن يكون عارفاً مدلولات الألفاظ العرفية واللغوية، وحسن الفهم، وشديد الملاحظة، وله دراية بالمحاضر والسجلات[٤].

حاجب القاضي: وهو الذي يستأذن على القاضي، ويرفع الأمور إليه، ويشترط في اختياره أن يكون تقياً، وحسن الخلق، ولا يقبل الرشوة ولا يحجب عن القاضي من يريد مقابلته[٥].

نقيب القاضي: ويتولى تنبيه القاضي على الشهود، وتنبيه الشهود على القاضي[٦].

أُمناء القاضي: وهم الذين يتحفظون في أموال اليتامى والغائبين، ويقومون بصرف

---

(١) المقريزي، «السلوك»، مصدر سبق ذكره (٤/ ٥٢٥).
(٢) مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٢٩٧).
(٣) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٥٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٠؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره (١٠/ ٢٨٢).
(٥) السبكي، المصدر نفسه، ص٦١؛ القلقشندي، المصدر نفسه، ص٢٨٢.
(٦) السبكي، المصدر نفسه، ص٦٢.

زكاة اليتيم لمن يعيّنها القاضي. والأُمناء يختارهم القاضي من أفاضل الناس[(١)].

الشهود: وهم الذين يختارهم القاضي لمساعدته في عمله القضائي، ويسمون عادة «الشهود العدول»، وهم ليسوا شهوداً حقيقيين كما هو مألوف في قضائنا الحالي، وإنما يختصون بالنظر في صحة الإجراءات القضائية، ويقدمون الضمانة على ذلك. ويشتَرط في اختيارهم أن تتوفر فيهم الأمانة، والاستقامة، والتفقه في الدين، وعدم التسرع في الأحكام. ويقوم القاضي دوماً بمراقبة سلوكهم وتصرفاتهم[(٢)].

ولكل من هٰذه الوظائف رواتب خاصة تكفيهم عن الإساءَة إلى وظيفتهم[(٣)]. وتشير المصادر إلى وجود «دار العدل» في كل نيابة، لا تعدو أن تكون إيواناً فسيحاً أو قاعة واسعة، ويختص بهٰذه الدار في العادة مفتٍ بعينه نائب السلطنة. وفي هٰذه الدار ينظر في القضايا والمظالم التي لم يبتّها القضاة، أو يثبتون عجزاً في حلها. ويباشر نائب السلطنة النظر في هٰذه القضايا، ويساعده في ذٰلك عدد من القضاة في أيام خاصة من الأسبوع، وجرت العادة أن يكون في يومي الاثنين والخميس[(٤)].

وكان السلطان يخلع على القضاة في المناسبات والأعياد، فكانت خلعة الشافعي بيضاء، والحنفي والحنبلي حمراء، أما خلعة المالكي فكانت خضراء[(٥)].

٥- المحتسب:

الحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تَرْكه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[(٦)]، قال

---

(١) السبكي، المصدر نفسه، ص٦؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ص٣٨؛ غوانمة، «تاريخ نيابة»، مصدر سبق ذكره، ص٤٠.

(٢) القلقشندي، المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه (١٩٢/٤)؛ (٢٥٥/٩).

(٤) ابن طولون، «مفاكهة الخِلان في حوادث الزمان»، تحقيق محمد مصطفى (القاهرة، ١٩٦٤)، (١٢/٢).

(٥) الماوردي، «الأحكام السلطانية» (بيروت: دار الكتب العالمية، ١٩٧٨)، ص٢٤٠.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٤١؛ السبكي مصدر سبق ذكره ص٦٥، ٦٦.

تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهي وظيفة خُلقية وسلوكية، أوجدها الإسلام لتدعيم أوجه التعاون والتضامن بين الجميع. وكان المحتسب يشرف على التجارة الداخلية والأسواق والمكاييل والأوزان، ويمنع الغلاء والاحتكار، والغش والتدليس[١]، كما يراقب سلوك المجتمع، فيمنع الفسوق والفجور والتبرج، وتعاطي المسكرات. ويشترَط في المحتسب أن يكون حراً عدلاً ذا رأي وصراحة وخشونة في الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة[٢]. ومن صفاته أيضاً الرفق في القول، وطلاقة في الوجه، وسهولة في الخُلُق، مع رأي وصراحة وخشونة في الدين[٣] ومن هنا فإننا نرى أن وظيفة الحسبة في الإسلام قد شملت جميع نواحي الحياة الإجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكان لها أهميتها في حياة الناس عامة.

ووجد في مدينة بيت المقدس وصفد وغزة والخليل والرملة ونابلس محتسب، وكانت التولية في هٰذا المنصب تتم من قِبل نائب السلطنة في نيابات فلسطين.

٦- نظر البيمارستان:

أكثر الأيوبيون والمماليك من بناء البيمارستانات، وقاية لأهل البلاد من الأوبئة والطواعين التي ما فتئت تفتك ببلاد الشام ومصر الفينة بعد الأُخرى. ولم تكن مهمة هٰذه البيمارستانات قاصرة على العلاج، بل أدت دوراً تعليمياً؛ فهي أشبه بكليات الطب، إذ إن الطلبة يُقسمون فِرَقاً، كل فرقة تتخصص بفن معين، فمنهم طبائعية (باطينة)، وطائفة مجبّرين (عظام)، وجرائحية، وفريق كحالين (العيون). ووجِد في البيمارستان قسم للصيدلة، يتعلم الطلاب فيه كيفية تحضير العقاقير وطبخها وعمل المعاجين والمراهم وغيرها.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٤١؛ ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، مصدر سبق ذكره، ص١٢٥.

(٢) ابن الأخوة، «معالم القربة في أحكام الحسبة»، تحقيق محمد شعبان (القاهرة، ١٩٧٦)، ص٥٢؛ ابن بسام، «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»، (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦٨)، ص١٠-١٣.

(٣) ابن شاهين، «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق المسالك» (باريس، ١٨٩٤)، ص٤٥.

ووجد في البيمارستان أزّمة (سجلات) يدوَّن فيها أسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون إليها من أدوية وأغذية وغير ذٰلك. وكان الأطباء يبكرون إلى البيمارستان ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يحتاجون إليه من علاج. وكانت هٰذه المعلومات تسجل في لوح خاص يثبت على سرير كل مريض. ووجِد لكل بيمارستان وقف خاص ينفق ريعه على شؤونه، وقد بلغت النفقات في أحدها خمسة عشر ديناراً يومياً[١].

وقُسم البيمارستان أقساماً؛ فهناك قسم خاص للنساء، وآخر للجراحة، وثالث للحميات، ورابع للرمد، وخُصص قسم في بعضها للأمراض العقلية[٢]. وكان يُخصَّص لكل مريض سرير مستقل لنومه. وبلغ عدد الأطباء في إحدى هٰذه البيمارستانات ستين طبيباً[٣]. ولكل بيمارستان ناظر يشرف على إدارته، ويراقب المرضى والأطباء، ويكون برتبة أمير كبير. ووصف القلقشندي هٰذه الوظيفة بأنها «من أجلّ الوظائف وأعلاها»[٤].

ووجِد في بيت المقدس البيمارستان الصلاحي، الذي أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، مكان الكنيسة المجاورة لدار الإسبتار قرب كنيسة القيامة، وزوده بكل ما يحتاج إليه من العقاقير والأدوية، كما رتب فيه الأطباء الذين يقومون بعلاج المرضى. وذكرت المصادر عن وجود البيمارستان المنصوري في مدينة الخليل، وقد أنشأه السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، ووقف عليه الأوقاف الكثيرة[٥]. والبيمارستان الفخري في مدينة الرملة بناه القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله، ناظر الجيوش المصرية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قبل سنة

---

(١) ابن جبير، «رحلة ابن جبير» (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨١)، ص٢٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٠.

(٣) بنيامين التطيلي، «رحلة بنيامين: ٥٦١هـ-٥٦٩هـ»، نقلها إلى العربية عزاز حداد (بغداد، ١٩٤٥)، ص١٣٤، ١٣٥.

(٤) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، (٤/ ٣٨).

(٥) مجير الدين، مصدر سبق ذكره، (٢/ ٧٩، ٨٩).

٧٣٢هـ/ ١٣٣١م[١]. ووجد بيمارستان في مدينة غزة بناه السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقام ببنائه الأمير علم الدين سنجر الجاولي، عندما تولى نيابة بيت المقدس وغزة، ووقف عليه أوقافاً جليلة[٢]. كما قام الأمير تنكز بن عبد الله، نائب دمشق، ببناء بيمارستان في مدينة صفد، وذلك في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ووقف عليه أوقافاً كثيرة، منها القيسارية التي بناها الأمير تنكز في مدينة عجلون لهٰذه الغاية[٣].

٧- نظر الأيتام:

وهو ديوان يتولى الإشراف على أموال الأيتام وتنميتها وتثميرها وحفظها، ووجِد هٰذا الديوان في مدينة صفد، ومن الذين تولّوه، الشيخ إبراهيم بن آبيك الصفدي المتوفى سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م[٤].

٨- وكالة بيت المال:

وهي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وآدر وغير ذلك، والمعاقدة على ذٰلك، وما يجري هٰذا المجرى، ولا يليها إلا أهل العلم والديانة. ويكون مجلسه في دار العدل، ويكون تارة دون المحتسب، وتارة فوقه، بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه. ووجِدت هٰذه الوظيفة في نيابة صفد[٥].

---

(١) ابن تغري بردي، مصدر سبق ذكره (٩/٢٩٦).

(٢) ابن فضل الله العمري، «دولة المماليك الأولى»، مصدر سبق ذكره، ص٢١٦.

(٣) النويري، «نهاية الأرب في فنون الأدب»، الجزء ٣١، لوحة ٩٠ (مخطوط)؛ غوانمة، «التاريخ الحضاري لشرقي الأردن»، مصدر سبق ذكره، ص٨٣.

(٤) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٦٤. يسميه (ديوان الأوقاف) ومتوليه ناظر الوقف؛ الصفدي، «الوافي بالوفيات»، تحقيق ديدرنغ، ١٩٤٩، الجزء ٥، ص٣٣٠، ٣٣١؛ طه ثلجي الطراونة، «مملكة صفد في عهد المماليك» (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١)، ص٢٥٦.

(٥) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٦٥؛ ابن فضل الله العمري، «دولة المماليك الأولى»، مصدر سبق ذكره، ص١٢٢؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره (٤/٣٦-٣٧، ٢٣٤).

٩- الإفتاء:

ويُقصد بها إفتاء دار العدل، وفي العادة يجلس النائب في دار العدل يومين في الأسبوع، فإذا حضر النائب إلى دار العدل يجلس في صدر الإيوان، ويجلس قاضيان، أحدهما شافعي والآخر حنفي، عن يمينه، وقاضيان آخران، أحدهما مالكي والآخر حنبلي، عن يساره، ووكيل بيت المال تحت القاضي المالكي، ويجلس كاتب السر امامه على الذي من يساره، وكاتب الدست خلفه، وحاجب الحجاب جالس أمام النائب على القرب منه. ويفصل النائب ومعه المفتيان في القضايا التي لم يستطع القضاة العاديون بتّها، وولايتها تكون من قِبل النائب بتواقيع كريمة(١). ووجدت هٰذه الوظيفة في نيابات فلسطين الثلاث، ويُشتَرط في المفتي ألاّ يتسرع في الإفتاء، معتمداً على ظواهر الألفاظ غير متأمل فيها، عندئذ يوقع الخَلْق في جهل عظيم، ويقع هو في ألم كبير(٢).

١٠- التداريس:

ويقوم بهٰذه الوظيفة أساتذة وشيوخ مشهود لهم بالعلم والفضل. وأنواع هٰذه التداريس: الفقه، والحديث، والتفسير، والنحو، والعلوم العقلية، وغيرها من العلوم(٣). وشهدت المدن الفلسطينية في العصر المملوكي نهضة علمية رائدة؛ فقد أُقيمت فيها المدارس الكثيرة، حتى أنها بلغت في المدينة المقدسة نيفاً وأربعين مدرسة. وقد استأثرت المدينة المقدسة بالكثير من العلماء والفقهاء الذين هاجروا إليها من بغداد بعد سقوطها على يد هولاكو، بالإضافة إلى هجرة أُخرى آتية من الأندلس، حيث كانت القدس «محط رحالهم وغاية مقصودهم وآمالهم»(٤).

---

(١) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ١٩٢، ٢٣٤.

(٢) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص١٠٤.

(٣) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، ج٤، ص٣٩.

(٤) ابن الصيرفي، «نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان»، تحقيق حسن حبشي (القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣)، ص٦١.

ونتيجة لاستقطاب بيت المقدس هٰذا العدد الكبير من العلماء والفقهاء ورجال العلم، فقد أصبحت في العصر المملوكي محج طلاب العلم، ياتون إليها من جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي، يدرسون في مدارسها ويأخذون العلم على علمائها. وقد شمل السلاطين المماليك رجال العلم برعايتهم وأسبغوا عليهم فيضاً من تشجيعهم وعنايتهم. وكانت المدارس في ذٰلك العصر أشبه ما تكون بالمعاهد العلمية العليا أو الجامعات في العصر الحاضر[١]. أما هيئة التدريس فكانت تتكون من: المدرس، والمعيد، والمفيد، والمنتهي[٢].

وقد خُصصت الأوقاف الكثيرة لهٰذه المؤسسات العلمية ليُنفق منها على المدرسة ومدرسيها وطلابها؛ ففي سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م رتب السلطان الأشرف قايتباي لمدرسته في القدس ٦٠ صوفياً، وجعل لكل صوفي في كل شهر ١٥ درهماً، أما الطلبة فخصص لكل طالب في كل شهر ٤٥ درهماً، أما شيخ المدرسة فجعل له في كل شهر ٥٠٠ درهم[٣].

ويُشترط في المدرس، كما يقول السبكي: أن يحسن إلقاء الدرس، وتفهيمه للحاضرين، فإنْ كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم المشكلات العميقة من الموضوع، ويخوض بهم عبابه الزاخر، ومن أقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب، ويجلس يلقيها ثم ينهض[٤].

---

(١) سعيد عاشور، «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» (القاهرة، ١٩٦٢)، ص١٥٠.
(٢) السبكي، مصدر سبق ذكرهو ص١٠٨، وانظر: القلقشندي، مصدر سبق ذكره، (٥/ ص٤٦٤).
(٣) مجير الدين، مصدر سبق ذكره (٢/ ٢٩٤).
(٤) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص١٠٦.

ج- الوظائف الديوانية:

١- ناظر النيابة:

وجِدت هٰذه الوظيفة في نيابات فلسطين في العصر المملوكي، ويعادل الناظر في اختصاصاته اختصاصات الوزير، لكن منصب الوزارة لم يلبث أن تغير اصطلاحه في العصر المملوكي، فأُطلق عليه «نظارة». وكانت هٰذه الوظيفة من أجلّ الوظائف الإدارية، وكان الناظر يعيَّن بمرسوم يصدره السلطان من القاهرة[١].

٢- ديوان الإنشاء:

وجِد في كل نيابة ديوان الإنشاء، وكان يتولاها «كاتب السر» في كل من نيابة صفد ونيابة غزة، أما نيابة بيت المقدس فكان يتولاها «كاتب الدرج أو كاتب الدست». ويقوم كاتب السر أو كاتب الدست بتولي ديوان الإنشاء، فهو الذي يطلع على أسرار النائب، وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل. إذ إنه يعلم بجميع المكاتبات والردود على الكتب الواردة إلى النيابة[٢]، ذلك لأنه هو الذي يقوم بقراءة تلك الكتب الواردة على النائب، وتفهيمه إياها، وكتابة أجوبته، وأخذ خط النائب عليها. بالإضافة إلى تصريف المراسيم الواردة والصادرة عن النيابة، والجلوس في دار العدل لقراءَة القصص والتظلمات الواردة من الأهالي[٣]. وإذا تولى ديوان الإنشاء كاتب للسر، فعندئذ يساعده في مهماته كاتب دست واحد أو أكثر.

ويحرص السلطان على أن يكون كاتب السر من خاصته الموثوق بهم، كي يطالعه بخفيات أمور النيابة، وما يحدث فيها مما قد يخفيه النائب عن السلطان[٤]. فهو إلى

(١) القلقشندي، مصدر سبق ذكره (٤/١٨٨)؛ (٩/٢٥٧).
(٢) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٣٠؛ القلقشندي، المصدر نفسه (٥/٤٦٥).
(٣) القلقشندي، المصدر نفسه (١١/ ٢٩٤)؛ ابن تغري بردي، مصدر سبق ذكره (١٥/ ٢١٤).
(٤) القلقشندي، المصدر نفسه (٩/٢٥٨).

جانب عمله الأصلي كان عيناً على النائب، وكان يخبر السلطان بكل خبر قريب أو بعيد بواسطة البريد[١].

٣- ناظر ديوان الجيش:

وجِد في كل نيابة من نيابات فلسطين الثلاث ديوان الجيش، ويتولى هٰذا الديوان ناظر الجيش، يتم تعيينه بمرسوم سلطاني من القاهرة، ومهمته تنحصر في ضبط الإقطاعات الخاصة بالنيابة، وتلك المقْطَعة للأمراء والأجناد، والكتابة بالكشف عنها، وأخذ خط النائب عليها بعد أخذ رأيه، ثم الكتابة إلى السلطان بشأن الإقطاعات المتوفرة عن أصحابها بالموت ونحوها، حيث تحمل إلى ديوان الجيش في الديار المصرية. وبمقتضى ذلك يخرج المنشور السلطاني بشأن هٰذه الإقطاعات[٢]. وكان تحت إمرة الناظر في كل نيابة ديوان خاص يثبت فيه مناشير هٰذه الإقطاعات الصادرة من السلطان في القاهرة[٣]. وهو في هٰذه الحال يضبط كليات النيابة وجزئياتها في الإقطاعات وغيرها، ويساعده في مهمته كتاب وشهود[٤].

وكان ارتباط الفلاحين بهٰذا الديوان، ومن قبائح هٰذا الديوان إلزام الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة، وإنه لا يجوز للفلاح ترك الأرض إلا بعد مرور ثلاثة أعوام، وإن ترك قبل ذلك يلزم ويعاد إليها قهراً[٥].

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ١١، ص٣١٤.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٤، ص١٤١، ١٩٠، ٢٤٢؛ الجزء ٩، ص٢٥٨؛ الجزء ١٢، ص٢٣٢.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٤، ص٣٠، ٣١، ١٩٠.

(٤) المقريزي، «الخطط»، مصدر سبق ذكره، الجزء ٣، ص٣٦٨؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص٣١.

(٥) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٣٤.

ووجِد في كل نيابة جيش خاص بها، يتكون من المماليك وجنود الحلقة والتركمان[١]. ويتألف هٰذا الجيش من الفرسان والمشاة، وبلغ عدد أفراد كل جيش في نيابات فلسطين الثلاث ألف فارس، ما عدا المشاة والمتطوعة من الأهالي[٢]. وهٰذا يعني أنه وجِد في فلسطين ٣٠٠٠ فارس ومثل هٰذا العدد من المشاة، وهو جيش محترف يساعده المتطوعة من أهالي فلسطين ورجال القبائل العربية في المنطقة.

٤- ناظر بيت المال:

ولا يتولى هٰذه الوظيفة إلا ذو العدالة من أهل العلم والديانة، ومهمته النظر في أموال النيابة، حيث يرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله بالتصرف فيه إما قبضاً وإما صرفاً[٣]. ويساعده في مهمته في العادة شهود بيت المال، وصيرفي بيت المال، وكاتب المال[٤]. وتكون ولاية هٰؤلاء من قبل النائب[٥]. وكان لكل نيابة من نيابات فلسطين في العصر المملوكي ديوان بيت المال. وقد ذكرت الوثيقة رقم ١٣٤، تاريخ ٧٨٥هـ، وجود «ناظر بيت المال» في القدس الشريف، أما الوثيقة رقم ١٤٨، تاريخ ٧٤٠هـ، فقد نصت على وجود «وكيل بيت المال بالقدس الشريف»[٦]. وكان في هٰذه الوظيفة أحياناً ناظر الحرم الشريف. ووجد في بيت المقدس (بيت المال)، ونعتته وثائق المتحف الإسلامي في القدس بـ «بيت المال المعمور بالقدس الشريف»[٧].

---

(١) ابن فضل الله العمري، «دولة المماليك الأولى»، مصدر سبق ذكره، ص٢٠٦.

(٢) ابن شاهين، مصدر سبق ذكره، ص١٠٤، ١٠٥؛ غوانمة، «التاريخ الحضاري لشرقي الأردن»، مصدر سبق ذكره، ص٤٥؛ غوانمة، «تاريخ نيابة»، مصدر سبق ذكره، ص٤٩.

(٣) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص٣١؛ الجزء ٥، ص٤٦٥.

(٤) المصدر نفسه، الجزء ٤، ص٣١.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

(٦) وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدس، رقم ١٣٤، تاريخ ٧٨٥هـ، ورقم ١٤٨، تاريخ ٧٤٠هـ.

(٧) وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدسو رقم ١٣٨، ورقم ١٣٩، تاريخ ٧٤٥هـ، ورقم ١٤٩، تاريخ ٧٩٥هـ.

=

٥- الكاشف:

جرت العادة أن يجهَّز لكل عمل من الأعمال في سائر البلاد، كبناء الجسور السلطانية والبلدية، أمير يعبَّر عنه بالكاشف، ويعرف بذلك في تعريف مكاتبته عن الأبواب الشريفة في القاهرة[١]. أما في النيابات، فكان لكل نيابة عدد من الولايات ويعين في هٰذه الولايات وال، فإنْ كان برتبة طبلخاناه سُمي كاشفاً، وهٰذا ما كان متبعاً في كل من ولايات: الرملة ونابلس والخليل؛ فقد جرت العادة أن يعيِّن النائب في كل ولاية «كاشفاً» ينوب عنه في حكم الولاية[٢]، ويساعده بعض الأجناد في حفظ الأمن والنظام في الولاية، وفي أحيان يتولى هٰذه الولاية أمير برتبة أمير عشرين أو أمير عشرة[٣]، أما في الولايات الصغيرة التابعة لنيابتي صفد وغزة فقد تولاها ولاة برتبة جندي[٤].

رابعاً: تصريف الأمور الإدارية في نيابات فلسطين

أصبح النظام الإداري في العصر المملوكي أكثر تطوراً وتنظيماً مما كان عليه في العصور السابقة؛ فالنظام الإداري المملوكي كان نظاماً «لا مركزياً»، فكل نيابة كان لها دواوينها الخاصة بها، وكل ديوان من تلك الدواوين خُصص له مكان معين، فيه الكتّاب الذين يباشرون أعمالهم فيه[٥]. ولكل نيابة حرية التصرف بشؤونها الداخلية، أما الشؤون الخارجية السياسية والعسكرية فكانت من اختصاص السلطان في القاهرة. وتقدم النيابات عادة العون العسكري إلى الدولة عندما يُطلب منها ذلك؛ فقوات كل نيابة ومواردها المالية تصبح في خدمة الدولة والصالح العام عندما تتهددهما الأخطار الخارجية.

---

(١) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٣، ص٤٤٤، ٤٤٥؛ الجزء ٤، ص١٩٩.
(٢) مجير الدين، مصدر سبق ذكره، الجزء ٢، ص٣٧٤.
(٣) القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص٢٠٠.
(٤) المصدر نفسه، ص١٩٩.
(٥) السبكي، مصدر سبق ذكره، ص٢٩.

وكان في قمة هٰذا الجهاز الإداري النائب الذي وصفته المصادربأنه «سلطان مصغَّر»؛ فهو المتصرف المطلق التصرف في كل أمر يتعلق بنيابته: يراجع أمر الجيش، والمال، والخبر (البريد). ولا يتصرف كل ذي وظيفة في نيابته إلا بأمره، ولا يفعل أمراً معضلاً إلا بمراجعته[١]. فهو الذي يستخدم في معظم الوظائف في نيابته ما عدا بعض الوظائف الكبرى، فكان التعيين فيها يتم من السلطان في القاهرة، كناظر الحرمين الشريفين، ومشيخة الصلاحية في نيابة بيت المقدس، ونائب القلعة، وقاضي القضاة في جميع النيابات.

وكان ديوان الإنشاء الديوان الذي يقوم بجميع مهمات النيابة الكتابية؛ فهو يشبه وزارة الخارجية في وقتنا الحاضر، إذ إن جميع الرسائل الواردة إلى النيابة يتسلمها هٰذا الديوان، ثم يعرضها كاتب السر على النائب، فيأخذ خطه عليها، ثم يقوم بتسفيرها وتصريف المراسيم الصادرة عن النائب وروداً وصدوراً[٢]. وكانت هٰذه الرسائل والكتب تُحفظ في ديوان الإنشاء، بمعنى أن لكل نيابة محفوظات خاصة تُحفظ تلك الوثائق والمراسلات فيها.

وأما الديوان التالي من حيث الأهمية، فهو ديوان الخزانة أو بيت المال. فقد كان لكل نيابة مواردها المالية من المكوس أو الخراج أو الضرائب الأُخرى التي كانت تفرضها الدولة، فمنها ما كان يُجبى من السكان مباشرة أو من المكوس الذي كان يُفرض على الزائرين والوافدين إلى فلسطين في مواسم الحج، أو من مكوس السفن التجارية الغربية التي كانت ترسو في الموانىء الفلسطينية لنقل السلع الشرقية وجلب سلع الغرب الأوروبي إلى فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة. فقد كانت هٰذه الأموال تُجمع ثم توضع في بيت المال الخاص بالنيابة، وكان جزء من هٰذه الأموال يرسل إلى السلطان في القاهرة، أما ما يزيد فكان يُحفظ في خزانة بيت المال، التي هي مستودع أموال النيابة[٣].

---

(١) ابن فضل الله العمري، «دولة المماليك الأولى»، مصدر سبق ذكره، ص١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٠.

(٣) ابن فضل الله العمري، المصدر نفسه، ص١١٥؛ الأسدي، «التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار»، تحقيق عبد القادرطليمات (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٧)، ص٧٧. حيث يقول: «وكان يتحصل من كل مملكة (نيابة) من المال، وما يوفي بمصروف ذلك العمل، ويتوفر بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج إليها».

ويأتي بعد ذٰلك ديوان الجيش، إذ إن أراضي فلسطين في معظمها كانت في العصر المملوكي إقطاعات عسكرية، وكانت هٰذه الإقطاعات تكبر أو تصغر بحسب رتبة الأمير المقطَع، إلا إننا نجد أن إقطاعات الأمراء في مصر أكبر منها في الديار الشامية؛ فبعض أكابر الأمراء المئين المقربين من السلطان كانت إقطاعاتهم تبلغ ٢٠٠ ألف دينار جيشية (الدينار الجيشي هو وحدة حساب يتراوح بين ١٠-٨ دراهم)، أما غيرهم فدون ذٰلك، إلى أن يصل إلى ٨٠ ألف دينار جيشي في السنة. أما إقطاعات أمراء الطبلخاناه فتبلغ ٣٠ ألف دينار وما يزيد وينقص عليها إلى ٢٣ ألف دينار. وأما أمراء العشرات فنهايتها ٧ آلاف دينار إلى ما دون ذلك. وأما إقطاعات جنود الحلقة فمنه ما يبلغ ألفاً وخمسمئة دينار، ومن هٰذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدمين عليهم، ثم ما دون ذٰلك إلى ٢٥٠ ديناراً، وأما إقطاعات جند الأمراء فيتوقف على ما يراه الأمير من زيادة أو نقصان[١].

وأما إقطاعات بلاد الشام فإنها أقل من إقطاعات الديار المصرية، فتبلغ ثلثي ما يعطى في مصر، ما عدا الأمراء الكبار من أمراء المئين المقربين[٢]. وكانت هٰذه الإقطاعات تثبت في ديوان جيش السلطان في القاهرة، وأما في النيابات فهناك ديوان للجيش فيه أسماء الأمراء والأجناد المُقطَعين وإقطاعاتهم، فإذا توفي شخص أو نزع منه إقطاعه يُرسَل الإسم إلى القاهرة، فيسقط إسمه في ديوان الجيش، ويستبدل هٰذا المُقطَع بمقطع آخر، ويبلغ الأمر إلى النائب ليثبت اسمه في ديوان الجيش في النيابة[٣].

وكان السلطان ينعم على أمرائه بالخيول؛ فالأمراء الكبار ينعم عليهم بخيول مسرجة ملجمة، وينعم على الباقين بخيول عري. وتختلف هٰذه الإنعامات بحسب رتبة الأمير وقربه من السلطان. كما أن السلطان يرتب للأمراء المئين والطبلخاناه والعشرات الرواتب في كل يوم من اللحم وتوابعه كلها، والخبز والشعير والزيت، ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة في كل عام[٤]. أما أمراء الشام فكان ينعم السلطان على بعضهم بقباء واحد

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر نفسه، ص٩٤.
(٢) المصدر نفسه ص٩٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٩٤، ١٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ص٩٥.

يُلبس في وقت الشتاء، ما عدا أولئك الذين يقصدون السلطان لمهمة ما فيحسن إليهم. وينعم السلطان على بعض الأمراء بأنواع أُخرى من الإنعامات كالعقار والأبنية الضخمة التي تزيد قيمتها أحياناً عن مئة ألف دينار، بالإضافة إلى أنواع الكساوي من القماش المنوّع[١].

أما القلاع والحصون، فكان الاهتمام بها كبيراً، لذا عُين في كل قلعة نائب وحاكم شرعي، وخطيب، ومؤذِّن، وكحّال، وجرائحي، وحفظة. ولحفظتها جوامِك (رواتب) لا إقطاعات. وفي هٰذه القلاع آلات التحصين وذوو أعمال وصناعات، بالإضافة إلى الحجارين والنجارين والحدادين وما تدعو الضرورة إليه[٢]. وارتبط البريد بنائب القلعة، الذي كان عليه أن يخبر السلطان في القاهرة بكل صغيرة وكبيرة تحدث في النيابة، إذا كان يُطلب منه تزويد السلطان بهٰذه المعلومات، فهو والحال هٰذه عين السلطان على النائب وباقي موظفي الدولة في النيابة، كما ضمت إليه القوات العسكرية التي كانت ترابط في القلعة.

ووجِد في كل مدينة «والي المدينة» أي أصحاب الشرط، وهم في العادة يستعملون متجددات ولاياتهم في كل منها: ممن هم على المحلات من قبلهم، ثم يكتب الوالي ومتولي الشرطة تقريراً يومياً جامعاً بكل ما يحدث في المدينة من قتل أوحريق أو مخالفات، ويرسله إلى النائب. فأما تتبع الناس في أحوال أنفسهم فيمنع صاحب الشرطة وأعوانه من فعل ذٰلك، إذ لكلٍ حريته الشخصية التي لا يجوز التعدي عليها[٣].

وهٰكذا، فإن جميع الدواوين في النيابة مرتبطة بديوان الإنشاء ارتباطاً مباشراً؛ إذ يتسلم هٰذا الديوان المكاتبات كافة كي تُعرض على النائب لأخذ خطه عليها، ومن ثم تُكتب الردود، وتُصرف الأمور بأمر من النائب نفسه. وهٰذا يعني أن الشؤون الإدارية في كل نيابة لا بد من أن تمر من خلال ديوان الإنشاء، وهو أنشط ديوان في النيابة.

---

(١) المصدر نفسه ص٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٦.

وقد ارتبطت الدولة المملوكية بالنيابات بشبكة هائلة من الإتصالات والمواصلات، فلم تكن تحدث صغيرة وكبيرة إلا ويعلم السلطان في القاهرة بها. فقد جرت العادة أن النواب يطالعون السلطان بكل ما يتجدد عندهم من مهمات الأمور، وتؤخذ أوامره، وتعود هٰذه الأوامر والتعليمات بما يراه السلطان إلى النائب. ويتم ذلك بواسطة البريد السطحي أو البريد الطائر (الحمام الزاجل)،أو بواسطة المناور. وهناك مراكز للبريد منتشرة في جميع ربوع السلطنة، تربط المدن والنيابات. وخصص في كل مركز عدد من خيول البريد، وللسلطان من الجند أناس بريدية في حضرته، وفي كل بلد لحمل الكتب والعود بأجوبتها(١). فإذا حضر بريدي بكتاب من إحدى النيابات، أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السر أو الإنشاء، فيتناول السلطان الكتاب فيفتحه، ويجلس كاتب السر فيقرأه عليه ويأمر فيه بأمره(٢). أما الأخبار المهمة السريعة،فكانت تُنقل بواسطة الحمام الزاجل، ولها مراكزها المنتشرة في أنحاء السلطنة. وكانت هٰذه الرسائل تُكتب على ورق خفيف صغير لا يتجاوز سلامية الإصبع، ويكتب عليها بخط رفيع يسمى الغبار، فإذا وصلت الحمامة أخذها البريدي ونقلها إلى الدوادار وكاتب السر، فيدخلان فيها على السلطان، فإذا كان نائما أيقظاه، فيتناول السلطان الرسالة ويقرأها كاتب السر، ويؤخذ أمر السلطان إما بالرد عليها وإما بالاستعداد لأمر ما إنْ كان الأمر يتعلق بأمن الدولة(٣).

وكانت هناك صيغة معينة للمكاتبات، فيخاطَب كل صاحب وظيفة بحسب رتبته أو الوظيفة التي يتولاها؛ فنائب دمشق أكبر النواب قدراً ورتبة لدى الدولة المملوكية، باعتبار دمشق العاصمة الثانية بعد القاهرة، لذا كان يُخاطَب بالعبارة التالية:

ضاعف الله نعمة الجناب العالي، وقد استقر الآن في الدولة الصالحية أعز الله نصر الجناب الكريم العالي الأميري الأجلي الكبيري العالمي العادلي المؤيدي الممهدي المشيدي العوني الغياثي الذخري الزعيمي المقدمي الظهيري الكافلي الفلاني، عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين، نصر الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش

(١) المصدر نفسه، ص١٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٦.

مقدم العساكر، عون الأمة، غياث الملة، ممهد الدولة، مشيد المماليك، ظهير الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين[١].

أما نائب صفد فكان يخاطَب بالعبارة التالية:

وشكر هممه التي وفت، وعزائمه التي كفت، وسر بكفالته بلدا منذ وليه قيل صفد قد صفت. صدرت هٰذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه سلاماً لا تزال شعائره به تقام، وثناء منذ هبّ على بلده قيل إن هواها يشفي الأسقام[٢].

ونحو ذٰلك كان يخاطَب كل من نائب غزة ونائب بيت المقدس.

وكان سكان فلسطين عرباً مسلمين، ووجِد بينهم النصارى واليهود لكن بنسب قليلة. أما في بيت المقدس فكان النصارى يشكلون نسبة كبيرة زمن المقدسي، وكانوا أصحاب السلطة في المدينة المقدسة[٣]. وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) وجود النصارى واليهود في بيت المقدس، وأن أعداداً كبيرة منهم تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيس[٤]. أما في المدينة المقدسة فكان السكان النصارى العرب في تناقص، فولِيَم الصوري يقول: إن مواطني المدينة المقدسة من السوريين (السريان) كانوا في تناقص نتيجة للمحن والمصائب، حتى أن عددهم لم يكُن شيئاً في المدينة[٥]. وشجع الفرنج أيضاً هجرة النصارى الأهليين إلى القدس، فتذكر المصادر أن قسماً من نصارى شرق الأردن في وادي موسى والبلقاء وعمّان نزح إلى القدس[٦]، بعد

(١) ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، مصدر سبق ذكره، ص٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٣) المقدسي، «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» (ليدن: بريل، ١٩٠٩)، ص١٦٧.

(٤) ناصر خسرو، «سفرنامه»، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت، ١٩٧٠)، ص٥٥.

(٥) William of Tyre, A History of deeds done beyand the Sea (New York, 1943), Vol. 1, p. 507.

(٦) القفطي، «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» (بيروت: دار الآثار)، ص٢٤٨؛ غوانمة، «تاريخ نيابة»، مصدر سبق ذكره، ص١٢٠.

أن طلب الفرنج منهم ذلك بالإغراء والإكراه، ووعدوهم بحياة أفضل، واستقبلوهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم[١]. وبعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م عاد السكان العرب المسلمون إلى القدس، فزادت نسبتهم في العصر الأيوبي ثم في العصر المملوكي، حتى أصبحوا يشكلون نسبة ٧٠٪ - ٨٠٪ من السكان[٢].

ونصارى فلسطين كانوا من أصل عربي، بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول أوروبا المختلفة والأحباش[٣]. وتركز معظمهم في المدن التالية: القدس، وبيت لحم، والناصرة. أما أهم الطوائف المسيحية التي وجِدت في القدس في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد)، فهي اللاتين، والسوريون (السريان)، والمقصود بهم طائفة اليعاقبة، والأرمن، واليونان (الأرثوذكس)، والنساطرة، ثم الهنود، والأحباش، والجيورجيون[٤].

وقد حظي النصارى العرب (الملكانية) واليعاقبة والقبط في فلسطين بالتسامح والمعاملة الحسنة، فمارسوا طقوسهم الدينية بحرية تامة. وكثيراً ما عمد السلاطين المماليك إلى إصدار المراسيم التي تنص على إعفائهم من بعض الضرائب، ومعاملتهم معاملة خاصة[٥]. وسكن النصارى الأديرة والكنائس الكثيرة في المدينة المقدسة وبيت لحم والتي بلغت عشرين كنيسة، أكبرها كنيسة القيامة التي كانت تتسع لثمانية آلاف شخص[٦]. ووجِد في بيت المقدس حارة سميت حارة النصارى بجانب باب الخليل[٧].

---

(١) William of Tyre, op.cit. p.507.
Rey, Les Colonies Franque de Syrie aux XII et XIII Siecles (Paris:1883), p.77.

(٢) Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land (Jerusalem: Israel University Press, 1970),P. 215.

(٣) ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص٧٠؛ غوانمة، «تاريخ نيابة»، مصدر سبق ذكره، ص١٢٠.

(٤) Rey, op.cit, pp. 76-77.

(٥) غوانمة، «تاريخ نيابة»، مصدر سبق ذكره، ص١٢١.

(٦) ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص٧٥.

(٧) مجيرالدين، مصدر سبق ذكره (٢/٥٣).

أما اليهود، فكانوا قلة في فلسطين في العصر الإسلامي؛ ففي القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)، وجِد في بيت المقدس عدد من اليهود، كما وجِد فيها كنيس. وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من أنحاء متفرقة من العالم[١]، وسكنوا في حارة خاصة أُطلق عليها «حارة اليهود»[٢]. وفي فترة الاحتلال الفرنجي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج، فهجروا المدينة المقدسة ومعظم أنحاء فلسطين[٣]، وامتد تعسف الفرنج لمقابر اليهود، فدمروا مقابرهم، واستخدموا حجارتها في بناء بيوتهم. وفي منتصف القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد)، قدم الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي إلى فلسطين، وزار معظم مدنها، وقدم لنا إحصاء ديموغرافيا خاصاً باليهود؛ فوجد منهم في بيت جبريل ٣، وفي بيت لحم ١٢، وفي الرملة ٣، وفي يافا ١، وفي عسقلان ٢٠٠، وفي طبريا ٥٠، أما بيت المقدس ونابلس فلم يجد فيهما يهودياً واحداً. وكانت دمشق آنذاك تمثل أكبر تجمع يهودي في بلاد الشام، فوجد فيها ٣٠٠٠ يهودي[٤]. ثم بدأ اليهود يتسللون إلى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج، وزاد عددهم في العصر المملوكي، وامتهنوا التجارة والصياغة والدباغة كعادتهم[٥]. ولم يكن عددهم كبيراً، ففي القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد) كانوا زهاء ٥٠٠ فقط[٦].

لقد تمتع أهل الذمة في فلسطين من اليهود والنصارى في العصر المملوكي بتسامح

---

(١) ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص٥٥.

(٢) مجير الدين، مصدر سبق ذكره، (٢/ ٥٢-٥٦).

(٣) غوانمة، «تاريخ نيابة»، مصدر سبق ذكره، ص١٢٢.

(٤) Benjamin of Tuledo, (Early Travels in Palestine), Edited by: Thomas Wright (New York: 1968), pp.81, 82,84, 91.

(٥) Ibid, pp. 85-87.

(٦) نقولا زيادة، «فيلكس فابري في فلسطين»، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (عمّان: الجامعة الأردنية، ١٩٨٠).

ديني، ومارسوا حقوقهم كاملة من دون تعصب، وزاولوا مهنهم بحرية تامة، وعاشوا مع المسلمين العرب في المدن والقرى، وإنْ كنا نجد بعض النصارى العرب يشكل نسبة كبيرة في بعض المدن والمناطق، مثل نصارى وادي موسى والكرك في شرق الأردن، والقدس، والناصرة، وبيت لحم، وبيت جالا في فلسطين[١].

وكان للنصارى في بلاد الشام اثنان من البطاركة، الأول في انطاكية والثاني في بيت المقدس، وكانت بطريركية بيت المقدس تحكم نصارى فلسطين وشرق الأردن[٢]. وفي العصر المملوكي ذكرت المصادر وجود هٰذا البطرك في مدينة دمشق، وإليه مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم والفصل بينهم بحكم مذهبهم في مواريثهم وأنكحتهم، وإليه أمر الكنائس والديارات والرهبان ورعاية شؤونهم[٣].

أما اليهود، فكان لهم رئيس يتكفل أمورهم وإقامة حدود التوراة بينهم، بما شرعه موسى الكليم من غير تحريف ولا تبديل، وكان مركزه مدينة دمشق. أما السامرة، فهم طائفة من اليهود كانت تسكن مدينة نابلس، وكان لهم رئيس يقوم برعاية هٰذه الطائفة القليلة العدد. وكان هٰؤلاء يتمسكون بالموسوية من غير تبديل ولا تحريف، وكان رئيسهم يحكم في طائفته وفي أنكحتهم ومواريثهم وكنائسهم القديمة، وكان هٰؤلاء على خلاف مع طائفة اليهود الآخرين[٤].

---

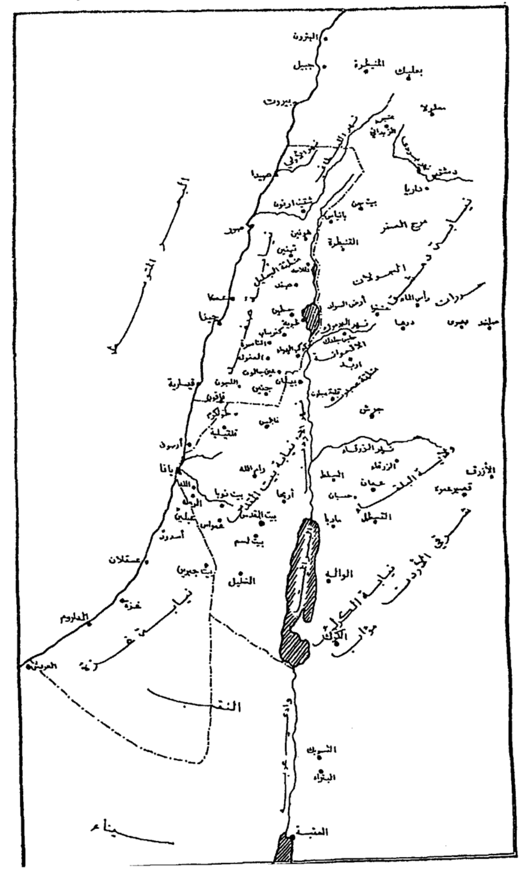
(١) أبو الفداء، «تقويم البلدان»، (بغداد: مطبعة المثني، ١٨٥٠)، ص٢٤٧.

(٢) Rey, op. cit., p.89.

(٣) ابن فضل الله العمري، «التعريف بالمصطلح الشريف»، مصدر سبق ذكره، ص١٤٥، ١٤٦؛ القلقشندي، مصدر سبق ذكره، الجزء ٤، ص١٩٤؛ الجزء ١٢، ص٤٢٥، ٤٢٦.

(٤) ابن فضل الله العمري، المصدر نفسه، ص١٤٤؛ القلقشندي، المصدر نفسه، ص١٩٤؛ الجزء ١٢، ص٤٢٨.

* خارطة لنيابات فلسطين من جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي *



الموضوع السادس

التجارة في دمشق في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)

(رؤية من خلال تاريخ ابن حجي الحسباني الدمشقي)

التجارة في دمشق في أوائل القرن التاسع الهجري
(الخامس عشر الميلادي)
رؤية من خلال تاريخ ابن حجي الحسباني الدمشقي

يصف المؤرخون دمشق في الربع الأول من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، بأنها مدينة جميلة حسنة الترتيب ذات أبنية جليلة، تحيط بها متنزهات غوطة دمشق وبساتينها ذات الأشجار والثمار والفواكه المختلفة والأزهار المتنوعة العطرة، والمياه الجارية من أنهار وينابيع وجداول عديدة. وفي بساتين دمشق العمائرُ الضخمة، والجواسقُ العليّة والبرك العميقة والبحيرات الممتدة، تتقابل بها ألاواوين والمجالس وتحف بها الغراس والنصوب المطرزة بالسَّرو الملتف، والحُور الممشوق القد. وهي في منبسط من الأرض، مكشوفة الجوانب شرقاً وغرباً وجنوباً، أما في الشمال فيطل عليها جبل قاسيون الشهير. وعند أقدامه تقع المدينة العريقة ذات الجوامع والمدارس والخوانق والربط والزوايا والأسواق المرتبة المتشعبة. أما بيوتها ودورها فهي جليلة ذات سقف مُذْهبة، مفروشة بالرخام المتنوع، حولها البرك والماء الجاري، وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أكثر من مكان. وغالب بناء مدينة دمشق بالحجر، ودورها جميلة مزخرفة مرخّمة، يستعمل في عمارة تلك الدور خشب الحور الذي يؤتى به من غوطة دمشق، وأجلُّ حاضرتها ما هو في جانبيها الغربي والشمالي.

ومن معالم مدينة دمشق قلعتها الحصينة التي تقع في جانبها الغربي، وتحيط الأسوار العالية بها وبالمدينة معاً، ويحيط بالقلعة خندق يملأ بالماء عند الخطر. وبالقرب من القلعة يقع (القصر الأبلق) وهو قصر مبني بالحجر الأسود والأصفر بتناسق غريب، وأحكام عجيب، وهٰذا القصر من بناء السلطان الظاهر بيبرس، ويوجد في القصر دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون بألوان بديعة جميلة، وقد زينت

جدران هٰذه القاعات بالرخام المفصل بالصدف، والفَصّ المُذْهب إلى سُجُف السقوف. فهٰذه دمشق بأشيائها البديعة التي تغني شهرتها عن الوصف، ويقوم فيها مقام الإطناب[١].

وقد جعل المماليك بعد معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م من دمشق نيابة مستقلة، وأصبحت نيابة دمشق من أجل النيابات وأعظمها وأشهرها، بل أن دمشق في عصر دولة الماليك الأولى والثانية، كانت العاصمة الثانية بعد القاهرة، وقد اشتملت هٰذه النيابة على معظم بلاد الشام[٢].

ولم تفقد دمشق أهميتها التاريخية والحضارية على مر العصور، بل كانت دوماً مركز إشعاع علمي وثقافي وعمراني، ذات ثقل عسكري، حتى أن جيش دمشق كان يأتي في المرتبة الثانية بعد جيش مصر في عصر دولة المماليك. وكان نائبها يتمتع بسلطات كبيرة وامتيازات كثيرة. حتى أن بعض النيابات لم يكن يسمح لها بمخاطبة أو مكاتبة دار السلطنة بالقاهرة إلا عن طريق نائب دمشق. وقد وصفت نيابة دمشق لما تتمتع به من صلاحيات بأنها سلطنة مصغرة[٣].

أما تجارة دمشق، فقد كانت تجارة كثيفة سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي، فهناك الأسواق العديدة المتشعبة الزاخرة بصنوف السلع المختلفة. فالأهالي من المدن والقرى المحيطة بدمشق، ومن أفراد القبائل العربية القاطنين في ولاية البر التابعة إليها، أو من أولئك التابعين إلى الصفقة القبلية (حوران والجولان وعجلون والبلقاء)، كانوا يأتون إلى دمشق للتزود بالسلع وبكل ما يحتاجونه من كساء وطعام

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية، مطابع كونستانس (ب-ت)، (٤/ ص٩٣-٩٥) وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية المصورة، مطابع كونستانس، القاهرة (ب - ت) (٧/ ١٩٥).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، (٤/ ٩٧).

(٣) القلقشندي، المصدر السابق، (٤/ ١٨٠-١٨٤).

ولوازم مختلفة، لأن دمشق كانت مركزاً ومحوراً للتجارة الداخلية في بلاد الشام. وقد خدم حركة التجارة الداخلية هٰذه، أسواقها وقيسارياتها العديدة، نذكر منها قيسارية ابن غراب الواقعة تحت قلعة دمشق[١]، أما أسواقها فكان كل سوق من أسواق دمشق يختص بسلعة معينة وانسحب ذلك على الحوانيت كحانوت الأحدب بالمطرزتين الذي كان يباع فيه العدس والعجة والسنبوسك والحنطة[٢]. وسوق البزورين الواقع غربي دار الطعم وهو من بناء الأمير جقمق الحاجب الصفوي سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م[٣].

ومن السلع الرائجة في دمشق والمنتجة محلياً السلع الغذائية والنباتية، نذكر منها الدبس والحلاوة السكرية، والسكر، والفستق، والقمح ومنتجاته، والحليب واللبن، والجوز، والأرز. وكانت أسعار هٰذه السلع غالية في أحيان ورخيصة في أحيان أخرى حسب ظروف الموسم، أو بحسب القوة الشرائية للنقد المتداول آنذاك. ففي سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، بيع قنطار الدبس بنحو ألف درهم، أما الجوز فبيع الرطل بنحو ثمانية دراهم، والفستق بيعت أوقيته بدرهمين، أما السكر فكان يباع الرطل بثلاثين درهما، وبيع قنطار الأرز بخمسمائة درهم، وكانت هٰذه الأسعار مرتفعة كما ذكر المؤرخ ابن حجي[٤] أما القمح فكان المجلوب منه إلى دمشق في شتاء هٰذا العام كثيراً، وخفضت أسعاره حتى بيع الكيل ما بين الستين والسبعين درهماً، ونتيجة لذلك رخصت أسعار الخبز. أما اللبن فكان كثيراً في هٰذه الفترة ورخصت أسعاره حتى بيع اللبن التركماني كل رطل بثلاثة دراهم أو اقل، أما الحليب فبلغ سعره درهمين ونصف. وكان اللبن يباع عادة الرطل بأربعة دراهم أو أكثر، والجبن بدرهمين[٥]. والملاحظ أن أسعار السلع كانت ترتبط

---

(١) ابن حجي، الذيل على تاريخ ابن كثير، أو تاريخ ابن حجي، تحقيق عمر الشامي، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك، ١٩٩٩م، ص٣٦٩.

(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٥٤.

(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٠١.

(٤) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٠٥.

(٥) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٠٥.

الكيل: من المكاييل المستخدمة في العصر المملوكي فالكيل يساوي ستة إمداد، أما الغرار

بقيمة النقد، ففي هٰذا العام راجت الفلوس بمدينة دمشق رواجاً ظاهراً، والسبب في ذلك أن الدرهم صار يساوي ثمانية وأربعين فلساً، فكان قبل ذٰلك يساوي أربعة وعشرين فلساً. ثم ارتفعت حتى أصبح كل درهم يساوي اثنين وثلاثين فلساً، ثم عادت إلى الارتفاع فصار الدرهم يساوي ثمانية وأربعين فلساً[١]. هٰذا التأرجح في سعر صرف الدرهم انعكس على السلع ارتفاعاً وهبوطاً. وكان (الجلابة) أي الذين يجلبون السلع لبيعها في أسواق دمشق لا يقبلون أثمان سلعهم إلا بالدراهم الفضية، فلما صار سعر صرف الدرهم بثمانية وأربعين فلساً، صاروا يفضلون الفلوس عكس ما كانوا أولاً، «وذلك لأنهم يأخذونها فيبيعونها خارج البلد بالسعر الأول (الدرهم = ٢٤ فلساً) والسبب رخص العملة»[٢]. وهٰكذا فقد ارتبطت أسعار السلع الأساسية في دمشق، بأسعار صرف العملة المتداولة، وقد أدى هٰذا إلى التذبذب في الأسعار عامة ارتفاعاً وهبوطاً. ويذكر ابن حجي أنه في شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م أحجم الناس في دمشق عن التعامل بالفلوس وزهدوا فيها، وكان أرباب الدولة يقصدون أن يجعلوها بالميزان، كل رطل من الفلوس بعشرة دراهم، ونتيجة لذلك تعطلت معايش الناس، وعطلت الأسواق وغلت الأسعار[٣].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السكر كان سلعة استراتيجية وهامة في دمشق، ولأهمية ذٰلك كانت مزارع قصب السكر في الأغوار (في وادي الأردن) حكراً على السلطان وبعض الأمراء، ونتيجة لذلك فقد عين السلطان في منطقة الأغوار أميراً سمي (استادار

= فتساوي اثنا عشر كيلا.

ويذكر ابن حجي في أحداث سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م أن الخبز كان رخيصاً، ففي شهر ربيع الآخر بيع الخبز الطيب الصافي كل رطلين إلا ثلث بدرهم، وأحياناً الرطلين بدرهم، أما خبز المعروك والتنوري فبيع كل رطل وثلث بدرهم (ابن حجي، ص٣٩، ٤٢).

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٨٤.

(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٨٥.

(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٩٣.

الأغوار) كان يقيم في بيسان، كي يشرف على زراعة قصب السكر، وتحصيل المكوس على المحاصيل الزراعية الأخرى. كما وإن زراعة القصب وعصره وانتاج السكر كانت تحت إشراف نائب دمشق مباشرة ففي رجب من سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م كان استادار الاغوار هو ابن العلائي، وقد عزل وولي مكانه بدر الدين حسن الذي كان استادار المستأجرات، أي ذاك الذي يجمع الرسوم وأجرة الأراضي[١]. وقد كان محصول السكر في هٰذا العام كثيفاً حتى أن نائب دمشق مكث في الغور مدة خمسة شهور للإشراف على عصر القصب وصناعة السكر، فابن حجي يقول: وكان قصب السكر في هٰذا العام كثيراً جداً يتجاوز الحد[٢]. حتى أن نائب دمشق أمر في سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٦م للبيمارستان النوري بدمشق مائة قنطار سكر تصرف له سنوياً[٣].

ولا شك أن تذبذب الاسعار والتضخم المالي الذي أصاب الشام في أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كان نتيجة للظروف السياسية والعسكرية والأمنية ببلاد الشام، فقد تعرضت بلاد الشام ودمشق على وجه الخصوص إلى حملة عسكرية تتارية بقيادة تمرلنك سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م. وقد أعطانا ابن حجي المعاصر لهٰذه الفترة وابن مدينة دمشق نفسها صورة حية لما آلت إليه الأحوال في بلاد الشام، ورسم لنا صورة تراجيدية مأساوية فهو يقول: «ولقد أخبرني غير واحد أنه كان الواحد من التتاري يمر منهم والإثنين بالجمع الكثير، فيأخذ ما أراد من النساء وغيرهم ولا يقدر أحد منهم على دفعه مما حصل عندم من الخوف والجبن والضعف الحسي والمعنوي»[٤]. ولم

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٤، ٥٥.

(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٦١.

(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص١٢٠.

وعن صناعة السكر وتكريره انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصر العامة للكتاب، مطابع كونستاتس (ب - ت) (٧/ ٢٦٤-٢٧٢).

(٤) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٤٤.

يجد الناس شيئاً يأكلونه، وعز القمح حتى بيع المد بأربعين درهماً وأزيد، وأخذ الناس في أكل الخبازي، وربما خلط معها شيء من الحشيش، وأكل الناس الجراد. وصار الناس حفاة عراة، وأعيان الناس عليهم العبي والجلود المقطعة، وهم يبيعون الجراد، وينادون على ما تأخر من خلق المتاع، واحترق كثير من دمشق بعد رحيل التتار عنها ولم يكن لأحد قدرة على إطفاء تلك الحرائق[١]. ووقع الجفل في بلاد الشام وترك الأهالي مدينة دمشق وخرجوا إلى المناطق المجاورة كحوران وعجلون، واختبأ خلق كثير في مخابىء حبراص (في منطقة الكفارات - اربد من شمال الأردن الحالي) وقد تمكن التتار من اكتشافهم فقتلوا منهم أربعمائة وخمسين شخصاً، ونهبوا الأغنام والأبقار والدواب في تلك المناطق[٢].

ونتيجة لهٰذه الظروف الصعبة التي المّت ببلاد الشام مع أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وضعف السلطة المركزية في دمشق وغيرها من نيابات بلاد الشام، عمت الفوضى في القرى والريف والبادية، فانتهزت القبائل العربية ذٰلك، وبدأت تهاجم المراكز الحضرية من مدن وقرى، وتقطع الطرق على المسافرين وتنهب وتقتل من يمر بها، فخيفت السبل والطرق، وأصبحت هٰذه القبائل العربية مصدر قلق ومتاعب للسلطة وقوات المماليك، بينما كانت سابقاً تقوم بمهمة درك الطرق في البلاد نظير اقطاعات وأموال تدفعها الدولة لهم. واضطرت قوات دمشق العسكرية إلى مهاجمة تلك القبائل في أنحاء مختلفة من البلاد، ففي صفر من سنة ٨١٩هـ/ ١٤٠٦م توجه نائب دمشق نوروز ومعه العسكر قاصدين الأعراب بنواحي صرخد فكبسهم، وجاء بجمال كثيرة استولى عليها منهم. كل ذٰلك من أجل أن يستتب الأمن والأمان، وتصبح الطرق والمسالك آمنة، وقد شاركت العشرات من أهالي القرى في تلك الحملات[٣].

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٤٤.

(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٣٩.

(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص١٧٠، ٥٤٨، ٥٥٢، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٧.

وبسبب هٰذه الظروف الصعبة التي مرت بها دمشق خاصة وبلاد الشام عامة، لجأت سلطات المماليك إلى فرض الأموال على المواطنين في القرى والمدن. فابن حجي يقول في أحداث شهر جمادى الأولى من سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م: «واستهل هٰذا الشهر والناس وأرباب القرى والبساتين يطلب منهم ما قرر عليهم من الشعير أو بدله، والناس في ضرر من تلك الجهة، واستادار النائب هو المتولي ذٰلك»[١]. علماً بأن الزراعة كانت قليلة لما وقع من خراب البلاد بالظلم الواقع عليهم كالمصادرات وفرض الأموال الكثيرة على الأراضي حتى شق ذٰلك على الناس[٢]. ويذكر ابن حجي في هٰذا السياق فيقول: «ودخل هٰذا الشهر (شعبان من سنة ٨٠٩هـ) والناس من أرباب القرى والبساتين في المصادرة بما قرر عليهم من الذهب، بسبب عمارة قلعة (دمشق)، وفي اقتطاع الأوقاف والأملاك والظلم الزائد، نسأل الله الفرج»[٣]. ثم يذكر أن المصادرات والظلم تضاعفت في الشهر نفسه، وأذن للتجار المسافرين إلى القاهرة في التوجه، ثم قبض عليهم ومنعوا وطلب منهم مال، وقد شبه الناس هٰذه الأمور بتلك التي حدثت في أيام تمرلنك، وجعلوا هٰذه أبشع[٤]. وكانت قلعة دمشق قد تهدم السور المحيط بظاهرها، بالإضافة إلى بعض أبراجها في غزوة تمرلنك فصودر الناس بسبب عمارتها، وأخذ من الذهب ما فرضوه على القرى والأملاك شيء كثير، وكان أكثره يوضع في خزانة النائب، ويعمر بغيره، وربما سخروا الناس في كثير من الأوقات»[٥]. ومن مظاهر هٰذا الظلم الذي تعرض له الدمشقيون ما ذكره ابن حجي المؤرخ الدمشقي المعاصر لهٰذه الأحداث فهو يقول في أحداث شهر رجب من سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م: «ويوم الأربعاء العشرين منه، طلب من

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٦٣، ص٦٢٠.
(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٧١.
(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٧٢.
(٤) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٧٣.
(٥) ابن حجي، المصدر السابق، ٦٠٦.

التجار قاطبة على اختلاف أنواعهم أموال، قيل أن ذٰلك لنفقة المماليك ثلاثة أشهر، ثم شد عليهم في الطلب، وأوذوا وفعل بهم كأيام تمرلنك. وفرضوا على جميع الحوانيت جليلها وحقيرها، والخانات والحمامات، وعلى جميع أرباب المعايش، حتى على الذين يبيعون الخزف تحت القلعة، حتى على البقالين. وضجت الناس وامتلأت الأرض جوراً وظلماً، وانقطعت الأسباب، وبطلت المعايش[١].

مما سبق نجد أن التجارة الداخلية عانت كثيراً من ظلم وجور التتار والمماليك معاً، فتعرضوا لفرض الأموال والمكوس العديدة والمصادرات، ولم يسلم من ذٰلك تجار دمشق وغيرها من المدن الشامية حتى أن الفلاحين نالهم ظلم كبير خصوصاً وأن نظام الاقطاع العسكري الذي كان سائداً آنذاك على كل بلاد الشام، زاد الأمور ظلماً وجوراً، وتأذى الناس من هٰذه المظالم الكثيرة. وقد كانت دولة المماليك بحاجة ماسة إلى الاموال، ولم يكن من سبيل لجمعها إلا عن طريق فرضها بالقوة على المواطنين. ومع ذٰلك فقد سارت الحياة العامة على طبيعتها، وزاول الناس حياتهم العادية، المزارعون والفلاحون، والتجار، وأصحاب الحرف، كل فرد يقوم بواجبه رغم المعاناة التي تعرضوا لها، ووصفها المؤرخون، فالحياة مستمرة من جميع النواحي الحضارية والعمرانية والعلمية والثقافية، فهٰذه سنة الحياة وديمومتها.

أما عن التجارة الخارجية، فقد كان لدمشق علاقاتها التجارية مع الأقطار المجاورة وأوروبا، وكانت القوافل التجارية تسير من دمشق إلى القاهرة براً، كما أن هناك قوافل تجارية أخرى كانت بين الحجاز ودمشق، أو بين حلب ودمشق. أما تجارة دمشق وبلاد الشام مع أوروبا فكانت عن طريق البحر بواسطة الموانىء الشامية كطرابلس، وبيروت، وصيدا، وعكا، وهناك تجارة بحرية أخرى كانت قائمة بين دمشق وعدن وجنوب الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر إلى أيلة (العقبة)، ومن ثم تنقل براً إلى دمشق.

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٦٢٦.

وخدمة للتجارة الخارجية فقد وجدت في مدينة دمشق أبنية خصصت للتجار الأجانب أطلق عليها (دار الطعم) أو (دار الوكالة)، يتولاها شخص يدعى (شاد دار الطعم) يقوم بجبي المكوس من التجار[١]. وهي بخلاف القيساريات أو القياسر. فالقياسر لا تختلف في وظيفتها عن الفنادق والخانات، وبها حوانيت تؤجر للتجار للبيع والشراء أو لخزن سلعهم وأقامتهم[٢]. وهٰذه القياسر تستخدم للتجار المحليين أما التجار الأجانب فخصصت لهم الوكالات أو دور الطعم، وهٰذه الأبينة كان بعضها يحتوي على كنيسة ومكان لسكنى التجار من دول أوروبا كجنوا والبندقية وبيزا وغيرها. ووجدت هٰذه الأبنية في معظم المدن الشامية مثل دمشق، حلب، القدس، عكا، طرابلس، صور، صيدا، بيروت، وعجلون، وإلى جانب تلك الوكالات ودور الطعم وجد القناصل الذين يرعون مصالح بلادهم التجارية لدى دولة المماليك[٣]. ووجد في دمشق (دار للوكالة) واثنتان من (دور الطعم)، وقد ذكرها ابن حجي في تاريخه، فعند حديثه عن القاضي علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي البعلبكي المعروف بابن اللحام المتوفى سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، قال بأن والده كان لحاماً بسوق دار الوكالة[٤]. أما (دار الطعم) الأولى فجاءت في أحداث سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، فعند حديثه عن جقمق الحاجب الصفوي قال بأنه هو الذي بنى سوق البزورين غربي دار الطعم[٥]. أما (دار الطعم الثانية فجاء ذكرها في أحداث سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م، فعند حديثه عن الفقيه جمال الدين عبد الله بن بدر الهمداني قال بأنه كان يسكن بالدرب الذي يقع عند دار الطعم[٦].

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق ص٢٧٤.

(٢) يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢، ص٨٣.

(٣) يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢، ص٩٠.

(٤) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٧٤.

(٥) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٠١.

(٦) ابن حجي، المصدر السابق، ص٦٢١.

وكان التجار الأجانب يشترون السلع الشامية والشرقية القادمة عبر عدن والبحر الأحمر كالتوابل والأفاويه والأحجار الكريمة واللبان. ومن دمشق يصدرون القماش الدمقس والحرير، فذكر ابن حجي عن وجود أنوال الحرير في مدينة دمشق في أحداث سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م عندما تحدث عن الفقيه زين الدين عمر بن الحمصي، فقال عنه وله أنوال حرير وكان يدولبها على يده[١]، وكان يتم تصدير هٰذه السلع كالبهار مثلاً عن طريق ميناء بيروت وطرابلس وعكا وصيدا. ذكر ابن حجي في أحداث سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م أن الفرنج هاجموا مدينة طرابلس في يوم الثلاثاء الثامن عشر من المحرم وجاء في تفاصيل هٰذه الحملة أن الفرنج دخلوا إلى ميناء طرابلس وكانوا في ثلاثين شينا/ يتبعها قراقر[٢]. إلا أنهم وجدوا مقاومة شديدة، فركبوا مراكبهم وأبحروا إلى بيروت، وكان عدد الفرنج بحدود العشرة آلاف مقاتل قدموا من جنوه وقبرص ورودس، وقد استنجد نائب طرابلس بنائب دمشق ملك الأمراء شيخ الخاصكي، الذي جيش الأجناد وسار بهم لنجدة طرابلس. ولكنه وجد أن الفرنج أبحروا نحو بيروت، فتبعهم إلى هناك وحدثت معركة بين الطرفين داخل أزقة بيروت، فَقتل من الفرنج ستين نفراً. عندئذ ركب الفرنج في مراكبهم وأبحروا إلى صيدا، فسارت قوات دمشق براً إلى صيدا فوصلتها بعد ثلاثة أيام، وتصدت لهم، فعاد الفرنج إلى مراكبهم متوجهين إلى بيروت وكان ابن حجي حاضراً هٰذه الواقعة فقال: «كروا على أعقابهم راجعين إلى ناحية بيروت، ووقفوا مقابل الميناء ساعة، وأنا ممن كان حاضراً بميناء بيروت فجمعنا الناس وجيشنا الجيوش»[٣].

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٦٣.

(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٧٤.

الشين: أو الشيني والجمع شواني، من السفن الحربية الكبيرة، وكان من أهم القطع الكبيرة في الأسطول، وكانت مستخدمة لدى المسلمين والفرنج (درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، مطابع الأهرام التجارية، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٤م، ص٨٣).

القراقر: مفردها قرقور، وهو نوع من السفن الكبار تستخدم في البحر المتوسط وتستخدم في نقل السلع، وأحياناً تستخدم كسفينة حربية (درويش النخيلي، المرجع السابق، ص١٢٠-١٢٢).

(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٧٦.

=

وقد تمكن الفرنج وهم في طريقهم إلى بيروت قادمين من طرابلس من الاستيلاء على مركب خليل الملاح النصراني الدمياطي، وكان محملاً بصنوف السلع المختلفة، وقد بلغت قيمتها أكثر من خمسمائة ألف درهم. وكانت هٰذه البضائع لمجموعة من التجار وقد بلغت أجرة حملها ونقلها نحو مئتي ألف درهم. وعند دخولهم إلى بيروت استولوا على كميات كبيرة من البهار للتجار الكتلانيين[١] «نسبة إلى قطلونية بأسبانيا».

وكانت حركة التجارة بين الموانىء الشامية وأوروبا قائمة، فهي تبحر إلى الموانىء الشامية طيلة فصل الربيع والصيف تجنباً لأنواء البحر وعواصفه وأمواجه العالية. ففي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م حدثت زلزلة شديدة في بلاد الشام وبالسواحل والجبال، وأصابت جزيرة قبرص وتخربت منها أماكن كثيرة، وقد أخبر بذٰلك التجار الفرنج الذين نزلوا الساحل الشامي يوم السبت الثاني عشر من شعبان (٢٤ شباط ١٤٠٤م)[٢]. وكانت حركة الاتصالات بين تجار الفرنج على الساحل الشامي وبلادهم قائمة، ففي احداث سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م ذكر ابن حجي: «وكتب الفرنج من البحر إلى إخوانهم بالشام، بأن ابن عثمان انكسر وربما قتل، فاتهموا بأنهم يريدون بذلك ترخيص البضائع»[٣].

ولازدهار التجارة الدمشقية والشامية مع أوروبا عبر موانىء الساحل الشامي، كان لا بد من توفير السلع المطلوبة أوروبياً. نذكر منها سلع الشرق الأقصى التي جلبت بواسطة التجار الدمشقيين المتواجدين في عدن واليمن. أو بواسطة التجار الذين كانوا يشترونها من جدة ومكة في مواسم الحج، أو من خلال المراكب التي تنقلها من عدن واليمن عبر البحر الأحمر إلى أيلة (العقبة) على البحر الأحمر شمالاً.

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٧٦.
(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٤٠٩.
(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٣٣.

ومن التجار الذين سافروا إلى عدن بقصد التجارة نذكر زين الدين بن عبد القادر الذي توجه في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م إلى الحج، وبعد أدائه مناسك الحج أبحر من جدة في تجارة إلى عدن فباع وربح، وعاد ومعه تجارة، إلا أن أجله أدركه هناك، فاستولى على أمواله ومركبه أصحاب تلك النواحي وصاحب مكة[١]. وذكر ابن حجي كذٰلك في أحداث سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م أن الخواجا المعروف بابن سقير، أحد مشاهير التجار الشاميين قد توفي في عدن هٰذا العام، بالإضافة إلى أن شمس الدين محمد بن علاء الدين الحريري التاجر توفي أيضاً بعدن في هٰذا العام[٢].

وذكر ابن حجي في أحداث ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، وبلغني في كتاب الشريف الفاسي، ومن أخبار التجار ما يدل على أن صاحب اليمن كثير الظلم، وحكوا عنه أنه أخذ لتاجر يقال له الحاج أرغون الفاخوري اثني عشر ألف مثقال مسكا. وفي هٰذه السنة ورد لابن حجي كتاب آخر مؤرخ في الرابع من شعبان جاء فيه أن صاحب هرمز توفي وولي مكانه ولده، فنشر العدل ورد المكس إلى ربع ما كان يؤخذ أيام والده على التجارة القادمة من الشرق الأقصى[٣].

وهٰكذا فإن الأحداث السابقة تؤكد أن تجار دمشق كانوا على اتصال مباشر بتجارة الهند والصين، وكانت تلك المراكب ترسو في عدن، بعدما تمر في هرمز، وكانت هٰذه السلع تمكس في هرمز وعدن. وهٰؤلاء التجار الذين كانوا يشتغلون بتجارة الشرق الأقصى فقد أطلق عليهم اسم تجار الكارم أو الكارمية[٤]. وقد أقام بعضهم في عدن

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص١٣٧.

(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٦٣٠.

(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٩٣.
هرمز: مدينة في الخليج العربي على ساحل بلاد فارس وهي فرضة كرمان ترسو فيها السفن القادمة من الهند والشرق الأقصى (ياقوت، معجم البلدان، ٥/ ٤٠٢).

(٤) الكارمية أو تجار الكارم، هم جماعة من التجار كانوا يحتكرون تقريباً التجارة مع الهند والشرق الأقصى وشرقي أفريقية، وشكلوا أكبر قوة مالية في دولة المماليك دون قوة الحكومة، وكانت مصر المركز الرئيسي للكارمية، كما كانت دمشق المركز الثاني، وكانت لهم قواعدهم في اليمن وهي مركز التوزيع الأساسي لبضائعهم (جوايتاين، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م، ص٢٧٩، ٢٨٠. =

لهٰذه الغاية، وكان موسم الحج فرصة للتجار للبيع والشراء، فتذكر المصادر بأن ما لا يقل عن ثمانين ألف جمل كانت تصل إلى مكة وميناثها جدة في موسم وصول سفن الهند التي يوقت وصولها في مواسم الحج. وتسير من هناك إلى دمشق ثم تعود ببضائع الشام وأوروبا إلى مكة وعدن لتنقل إلى الهند والصين. أما سلع المشرق التي يحملها معهم التجار في هٰذه القوافل فهي: التوابل، كالفلفل والبهار، والزنجبيل، وجوز الطيب، والعطور: كالمسك، والعنبر، والكافور وخشب الصندل، والقرنفل. والأحجار الكريمة: كاللؤلؤ، والفيروز، والعقيق الأحمر، والعقيق اليماني، والمرجان، بالإضافة إلى الصمغ العربي، والورق، والنيلة، والحرير الصيني، والحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير، والذهب، والعاج، وكانت القوافل تحمل عند عودتها السلع والتحف التي كانت البلاد الشرقية تتلهف عليها مثل: المنسوجات المصرية والدمشقية، بأنواعها، والتحف النحاسية المكفتة بالفضة، وافرية السمور، وأخشاب الصنوبر، والخيول العربية التي كانت تجد سوقاً رائجة في الهند والصين[١].

اهتم المماليك بالتجارة سواء بين مصر وبلاد الشام أو التجارة الشرقية وأصبح البحر الأحمر آنذاك شريان التجارة الدولية، وقد جنى المماليك من هٰذه التجارة أرباحاً طائلة. وللمحافظة على ازدهار حركة التجارة هٰذه أقاموا الطرق، وانشأوا الخانات (الفنادق)، على طول طرق الاتصالات والمواصلات في مصر والشام خدمة للتجارة الداخلية والدولية. فأقاموا ديواناً للمكوس في (العقبة) لتمكيس السلع القادمة بحراً، فابن إياس يقول: «وكانت بها قصر يسكن فيها قباض المكوس بسبب مراكب التجارة التي ترد هناك من الهند واليمن والصين»[٢]. وقد بلغ مقدار ما يحصل في هٰذا المركز ثلاثة آلاف دينار

---

(١) ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق وليم بوير، كلفورنيا، (٣٢٧/١).
يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرق الأردن، ص٨٩.
يوسف غوانمة، أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، دار هشام، الأردن، ١٩٨٤م، ص٧٤.

(٢) ابن إياس، نشق الأزهار في عجائب الأقطار، مخطوط بدار الكتب المصرية، لوحة ٨٧، يوسف غوانمة، أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص٧٣.

سنوياً. أما السلع القادمة بطريق القوافل من اليمن وعدن في طريقها إلى مصر فكانت تمكس في (بويب العقبة) جنوبي العقبة الحالية[١]. أما القوافل المتجهة إلى دمشق فتمكس في (جسر الحسا) قرب الكرك، وكان المتحصل في هٰذا المركز عشرة آلاف مثقال من الذهب سنوياً[٢]. وقد أقام المماليك الدرك على الطرق حفاظاً على أمنها وسلامة المتنقلين عليها، وأوكلوا هٰذه المهمة للقبائل العربية الساكنة قرب تلك المسالك نظير اقطاعات وجوامك (رواتب) يدفعها المماليك إليهم[٣].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مدينة حلب قد ازدهرت تجارتها في دولة المماليك الثانية (الجراكسة) وأصبحت أهم مركز لتجارة الشرق في شمال بلاد الشام. ففي أواسط القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بلغ عدد الجمال التي تصل إلى حلب خمسة عشر ألف جمل. ولكن أهميتها بدأت تضعف في نهاية القرن نفسه بسبب إغلاق الطرق البرية عبر آسيا الصغرى نتيجة لحروب العثمانيين مع جيرانهم، ولم يبق لحلب سوى مصدر واحد ألا وهو طريق البحر الأحمر، فقد كانت السفن تفرغ شحناتها في العقبة، ومنها تنقلها القوافل براً إلى حلب[٤]. تماماً كمدينة دمشق، وبذلك فإن إيلة (العقبة) أصبحت بوابة بلاد الشام على البحر الأحمر وتجارة الهند والصين واليمن والسواحل الشرقية لإفريقية.

وكان التعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية، ووجد في دمشق (دار الضرب) تخصص لسك النقود، ففي السابع عشر من جمادى الآخرة سنة

(١) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤ ق١، تحقيق سعيد عاشور، ص٢٥٦.

(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٤م، ص١٣٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى (١٤/ ٣٧٧)، يوسف غوانمة التاريخ الحضاري لشرقي الأردن، ص٦٢.

(٤) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٥٠.

٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م أخرجت السلطات في دمشق فلوساً جداً من دار الضرب[١]. وفي رمضان سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م ارتفعت الأسعار كثيراً والتلاعب بالنقود في وزنها وقيمتها، فابن حجي يقول عن أسباب الغلاء آنذاك: «وسببه الفلوس، فإنها في كل وقت تضرب جدداً، ويصغر حجمها ووزنها، وينادى على التي قبلها بالرخص فيشترونها، ويأخذونها إلى دار الضرب فبعد أيام تضرب، وتعاد العتق منها إلى الميزان، فحصل من الناس أمر كبير»[٢]. وذكرت المصادر أن الشاميين تعاملوا بالدنانير الفلورية (نسبة إلى فلورنسا)، وقد سعر الدينار الفلوري في سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م كل دينار بثلاثين درهماً، ولما كثر استخدامه هبط سعره إلى أربعة وعشرين درهماً، ثم عاد إلى الارتفاع فنودي عليه كل دينار بخمسة وثلاثين درهماً[٣]. والظاهر أن دولة المماليك صارت تتعامل بالدنانير الفلورية في هٰذه الفترة، ففي رجب من سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م ألقي القبض على ناظر الجيش بمدينة دمشق وألزم بتقديم عشرين ألف دينار فلوري، فالتزم وأطلق سراحه. ثم فرضوا على كل بستان فلورتين، فجاء على المزة ستمائة فلورية، وعلى كفرسوسة مثلها، أما النيرب فألزمت بدفع سبعمائة فلورية، وطال ذٰلك كل غوطة دمشق. أما تجار دمشق فقد فرضوا عليهم عشرة آلاف دينار فلوري[٤]. والظاهر أن الثقة بالدينار الفلوري كانت كبيرة لنقائه واكتمال وزنه، أما نقود المماليك فقد تلاعب بها السلاطين في وزنها ونقائها، ففي سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م، نودي بدمشق على الفلوس أن كل رطل بتسعة دراهم، وكانت قد كثرت وصغرت، وصارت تصرف منها العشرة بخمسة وعشرين وأكثر، وبلغت الثلاثين. أما الدينار الفلوري فبلغ السبعين والثمانين وغلت الأسعار بسبب ذلك[٥].

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٩٦.
(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٤٥٦.
(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٦٢.
(٤) ابن حجي، المصدر السابق، ص٤٤٧.
(٥) ابن حجي، المصدر السابق، ص٤٥٦.

وعرفت أسواق مدينة دمشق مهنة السمسرة والصيرفة، نذكر منهم شمس الدين محمد بن محمد الأعرج الذي كان سمساراً في القلعة وابن البجاس الذي سعى أن يكون سمساراً، فقام عليه السماسرة ومنعوه من ذلك لأنه ليس كفؤاً لهٰذه المهنة[١]. أما لصيرفي شمس الدين المعروف بأخي صدقة، فقد أظهر في شهر ربيع الآخر سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م أنه انكسر، واختلف هو وشريكه، ورفع أمره إلى نائب دمشق، فتحرر ن موجوده لا يفي بأموال الناس على ما أظهر من مال، وقيل أن ما بيده لا يفي بربع موال الناس، ومع ذلك شرعوا في قسمة ماله على ذلك وتعجب الناس من أمره[٢]. وذكر ابن حجي، شمس الدين الصيرفي وقال بأنه كان من أعيان الصيارفة، ثم ترك واشتغل بالبحر، وكان متجولا ذا ثروة زائدة[٣].

أما التجارة البرية فكانت تنتقل بواسطة القوافل المخصصة لهٰذه الغاية، ومع هٰذه لقوافل ينتقل الأفراد سواء في طريقهم إلى دمشق أو مغادرتها، ففي محرم سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م وصل من مصر إلى دمشق قفل شامي كبير ووصل معهم برهان الدين بن الشيخ وعلى يده توقيع سلطاني بقضاء الحنفية بدمشق. وفي جمادى الأولى من السنة فسها توفي اسماعيل البقاعي بقرية سعسع بحوران، بينما كان متوجهاً إلى مصر برفقة نفل سلطاني، واستخدم التجار كذٰلك قوافل الحاج الشامي فنقلوا بضائعهم بمرافقتها[٤]. وكانوا يقومون بالبيع والشراء في المحطات التي كان يقيم فيها الحجاج في طريقهم إلى لحجاز، أو أثناء عودتهم إلى دمشق. وتقام الأسواق الموسمية في هٰذه المحطات وكانت فرصة طيبة للقبائل العربية وأهالي القرى والمدن القريبة من خط سير قوافل لحجاج لبيع ما عندهم وشراء ما يحتاجونه. وكانت المدة التي يمكثها الحجاج في ذهابهم وإيابهم ثلاثة شهور[٥].

---

١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٠٦، ٤٩٤.
٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص١٢٦، ١٢٧.
٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٧٩.
٤) ابن حجي، المصدر السابق، ص٥٤٨، ٦٠٣، ٦٢١.
٥) ابن حجي، المصدر السابق، ص١٩٢.

أما القوافل المتجهة إلى مصر أو القادمة منها، فكانت تمر بغزة وأم الفحم وجنين وبيسان ثم إلى اربد، وأذرعات ثم سعسع في طريقها إلى دمشق. وكان القفل المصري المتجه إلى دمشق يسير أحياناً إلى غزة ومنها إلى الرملة ثم إلى القدس ومن القدس يسير القفل إلى الأغوار فاربد (شمال الأردن الحالي) ثم يمر بقريتي سعسع والبريج في حوران وصولاً إلى دمشق[١]. ولكن الملفت للنظر كذلك هو أن طريق (عقبة فيق) في الجولان كانت مطروقة في بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وأنها كانت طريقاً للبريد كذلك. ففي شهر محرم من سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م يقول ابن حجي: وصبيحة يوم السبت توجهنا مسافرين على البريد إلى الديار المصرية أنا والشيخ محمد قويدار، ومعنا الامير يلبغا المنجكي رسولاً إلى السلطان بالقاهرة. وقد ساروا من دمشق إلى قرية (عدوان) القريبة من نوى في حوران، وفي الصباح الباكر واصلوا سيرهم فوصلوا إلى (فيق) ومنها إلى (عقبة فيق)، ووادي اليرموك في وقت غروب الشمس. فقطعوا غور الأردن ليلاً ووصلوا الصبح في قرية الطيبة إحدى قرى طولكرم، ومنها إلى خان جنين، ثم إلى نابلس فقرية يبنى الواقعة بين عسقلان والرملة، ومنها إلى قرية بربرا القريبة من غزة، ومن ثم إلى مدينة غزة، فوصلوها في خمسة أيام منها يومان أقاموا بهما في نابلس، فأقاموا في غزة يومين ومها ساروا إلى قطية في سيناء ثم إلى بلبيس ومنها إلى قلعة الجبل بالقاهرة[٢].

أما وسيلة النقل الأخرى بين دمشق والقاهرة فكانت بحراً، عبر موانىء طرابلس وبيروت وعكا وصولاً إلى دمياط فالقاهرة. ولم تكن المراكب مخصصة فقط لنقل السلع والبضائع بين مصر وبلاد الشام، بل كان هناك خط ملاحي بين تلك الموانيء لنقل المسافرين. ففي شهر ربيع الآخرة سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٧م وصل من بلاد مصر إلى

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٧٩.
(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٤٨٥، ٤٨٨.

سواحل الشام قمح كثير في البحر إلى طرابلس وبيروت، فحصل لأهل طرابلس بذلك رفق وكانوا في شدة[١]. وكان الفرنج في شهر صفر (أيلول) من السنة نفسها قد هاجموا مدينة طرابلس، وكان بالبحر آنذاك مراكب بها جماعة من تجار الفرنج فآووا إليهم واحتموا بهم، ثم أن الفرنج شاهدوا في مياه طرابلس خمسة مراكب للمسلمين كانت محملة بالبضائع في طريقها إلى الديار المصرية. فهاجموها واستولوا على اثنين منها وأسروا خمسة وثمانين نفراً من المسلمين كانوا على ظهر المركبين، بعدما هرب منهم جماعة وغرق آخرون[٢]. وفي شهر ربيع الآخر من سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م توجه المسافرون إلى مصر صُحْبة الحراقة، وكان من بين المسافرين الشيخ محمد المغربي، وشمس الدين بن الحجاج وزوجته وأبناؤه[٣]. وفي شهر رجب من نفس السنة سافر الأمير سودون الجلب من الشام إلى القاهرة ومعه عدد من الأمراء في حراقة عن طريق دمياط[٤]. وفي شهر ذو القعدة من سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م وصل رسل السلطان المتوجهين من الديار المصرية بحراً إلى دمشق، وذلك بعد أن ركبوا من القاهرة وأبحروا في النيل إلى دمياط فوصلوا إلى عكا بعد عشرين يوماً من مغادرتهم للقاهرة[٥]. وفي شهر ذو الحجة من السنة نفسها وصل القاضيين أحدهما شقيق ابن حجي، والثاني المدعو ابن الآدمي إلى عكا بحراً، ومن هناك سافروا براً عبر أراضي صفد إلى دمشق[٦]. وهكذا كان السلطان في القاهرة يرسل رسله إلى نائب دمشق بحراً عبر موانىء الشام، عكا، بيروت، طرابلس[٧].

---

(١) بن حجي، المصدر السابق، ص٢٩٤.

(٢) ابن حجي، المصدر السابق، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٣) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٤٠.

الحراقة: جمعها حراقات وهي نوع من السفن الحربية التي ترمي بالنيران استعملها المسلمون في العصور الوسطى (درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص٣٢).

(٤) ابن حجي، المصدر السابق، ص٣٥٠.

(٥) ابن حجي، المصدر السابق، ص٦٣٨، ٦٣٩.

(٦) ابن حجي، المصدر السابق، ص٦٤١.

(٧) ابن حجي، المصدر السابق، ص٦٤٢.

خاتمة

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي الحسباني الدمشقي الحافظ المؤرخ ولد سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، وكان من المبرزين في علوم شتى وله عدة مؤلفات منها كتاب في التاريخ، يذكر البعض أنه ذيل على كتاب ابن كثير، والبعض يقول عنه (تاريخ ابن حجي). وهٰذا السفر لم يصلنا منه إلا جزء من سنة ٨٠١-٨١٠هـ، وهٰذه الفترة كانت فترة هامة وحرجة في تاريخ دمشق وبلاد الشام لتعرضها إلى غزوة تمرلنك عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م. وقد شاهد ابن حجي هٰذه المعاناة التي لقيها الدمشقيون والشاميون بعامة، وأعطانا صورة حقيقية لما آل إليه المواطنون آنذاك، من ذل وجبن وتبلد بالأحاسيس، بسبب ضعفهم الحسي والمعنوي ومع ذلك فهو يظهر الشجاعة التي واجه بها أهالي دمشق (العوام) قوات تمرلنك بعد هروب السلطان وقواته إلى مصر فقاتلوا في أزقة دمشق قتالاً شديداً[١] ولكنه يتحدث في نفس الوقت عن تخاذل المماليك في قتال التتار، وعودة السلطان فرج إلى القاهرة. ونتيجة لذلك انحل حبل الأمن، فطمع الأعراب واستولوا على غلال البلاد، لاختلاف المماليك، ولين النائب، مع ما حصل لهم من التخاذل في قتال تمرلنك. توفي ابن حجي سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م وهٰذا يعني أن هٰذه المعلومات التي دونها في تاريخه مذكرات يومية ومشاهدات حقيقية رآها بنفسه فكتب عنها بصدق المؤرخ الناقد الباحث عن الحقيقة.

ولقد لفت انتباهي دقته في التاريخ لمدينة دمشق كيف لا وهو ابنها وأحد علمائها ومؤرخيها المشهود لهم بالدقة والشفافية. وقد انفرد في تفاصيل الأحداث اليومية منها هطول الأمطار ووفرة المياه أو قلتها وبيعها للمزارعين والأسعار وغلاؤها أو رخصها. كما

---

(١) ابن حجي، المصدر السابق، ص١٢٣١.

تحدث عن التجارة وطرق القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة، أو تلك التي تسير مع ركب الحاج الشامي في طريقها إلى الحجاز. ثم أعطانا صورة صادقة عن الظلم الاجتماعي الذي عانى منه أهالي دمشق خاصة وبلاد الشام عامة، وأنواع المكوس ومقاديرها. وتعرض إلى المصادرات التي لحقت بالتجار والأهالي، وفرض الأموال وتحصيلها على البساتين والفلاحين حول دمشق وفي حوران. وتحدث عن ضريبة اختص بها المماليك وهي ضريبة الأراضي والبيوت المستأجرة. وعن تفشي الرشوة وشراء الوظائف[١]، حتى أن وظيفة القضاء نالها الفساد الإداري والاجتماعي فتولى بعض القضاة مناصبهم نظير مبالغ يدفعونها للسلطان في القاهرة.

وهناك معلومات كثيرة عن التجارة الخارجية، ووجود أعداد من التجار الدماشقة في عدن واليمن للاتجار بسلع الهند والصين التي كانت تصل إلى دمشق براً عبر الحجاز ومنطقة شرقي الأردن، أو من خلال البحر الأحمر إلى أيلة (العقبة) ثم براً إلى دمشق. وأورد لنا ابن حجي معلومات عن وجود دار الوكالة ودار الطعم في مدينة دمشق وقد اختصت هٰذه الأبنية بالتجارة الخارجية وإقامة التجار الأجانب من أوروبا. كما أمدنا بمعلومات عن نشاط الحركة التجارية في الموانىء الشامية كطرابلس وبيروت وعكا، فالمراكب والتجار الفرنجة كانوا يبحرون إلى هٰذه الموانىء للتجارة ونقل السلع المشرقية والشامية إلى أوروبا، وبالمقابل فقد كانوا يأتون بالسلع الأوروبية المطلوبة في بلاد الشام. وكانت الدنانير الفلورية (الفلورنسية) رائجة في دمشق، بالإضافة إلى أن دار الضرب في مدينة دمشق، كانت تقوم بضرب الدراهم الفضية، والفلوس النحاسية، ولم يأت ذكر للتعامل بالدنانير الذهبية المضروبة في دمشق، وربما لقلة الذهب لدى المماليك. وقد أعطانا ابن حجي معلومات جيدة عن التضخم المالي وغلاء الأسعار

(١) يذكر ابن حجي في أحداث شهر شعبان من سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م أن ابن الآدمي صدر الدين دفع ثمانية آلاف مثقال من الذهب نظير توليه وظيفة كتابة السر بدمشق (ابن حجي، ص١٥٧، ١٥٨).

لكثرة الفلوس وهبوط قيمتها الشرائية نتيجة للزغل (الغش) الذي أصاب النقد المماليكي آنذاك في وزنه ونقائه.

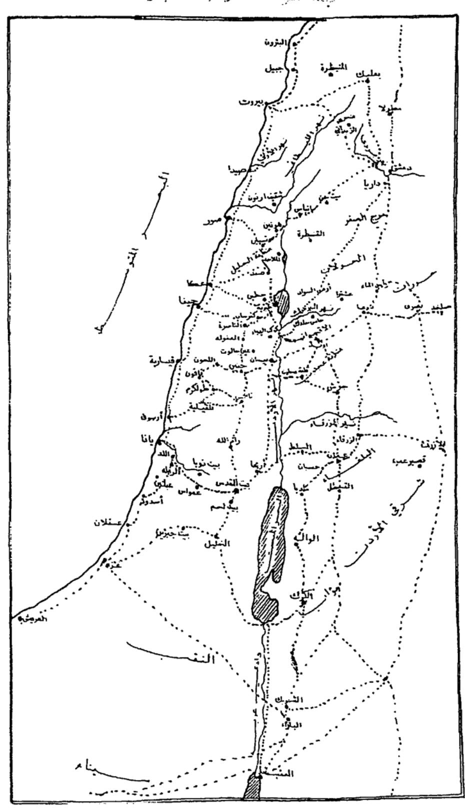
وتطرق ابن حجي إلى زراعة قصب السكر في الأغوار، فالإشراف على زراعة القصب وعصره وإنتاجه يكون من قبل نائب دمشق مباشرة لأن معظم الحقول المزروعة قصباً كانت أراضي سلطانية. لذا عين على الأغوار أمير سمي (استادار الأغوار) للإشراف على إنتاج السكر الذي كان يشكل دخلاً جيداً لدولة المماليك. فكان السكر الشامي سلعة مطلوبة في أوروبا تصدر عن طريق الموانيء الشامية. وكان الباقي يطرحه النائب بأمر من السلطان على التجار والأهالي بأسعار مرتفعة، وكان ذلك يسبب تذمراً وظلماً لهم(١).

أما طرق القوافل وحركة المواصلات والاتصالات فكانت تتم براً عبر حوران وشرقي الأردن إلى الحجاز أو عبر حوران إلى اربد وبيسان في غور الأردن ثم إلى غزة ومنها إلى سيناء فالقاهرة. ولكن ابن حجي انفرد بذكر طريق للتجار والمسافرين كان عن طريق عقبة فيق في الجولان عبر وادي اليرموك إلى الغور وجنين ثم إلى غزة ومصر. وكان الأمراء يسافرون مع هٰذه القوافل براً، أو عن طريق خط ملاحي كان نشطاً في هٰذه الفترة، فقد كان هٰذا الخط يربط القاهرة ببلاد الشام وكانت المراكب تخرج من القاهرة فتبحر في النيل إلى دمياط، ومنها إلى موانيء الشام عكا وبيروت وطرابلس. وقد قدم لنا ابن حجي صورة حية لحركة المواصلات البحرية النشطة خلال فترة موضوع الدراسة.

---

(١) يقول ابن حجي في صفر من سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م وأخذ النائب في طلب ذوي الأموال وطرح السكر عليهم، وغير ذلك من المظالم (ص١٠٩).

خارطة للمواقع التاريخية لجنوب بلاد الشام
حركة المواصلات وطرق التجارة



الموضوع السابع

بعض أوضاع مصر والشام في عصر سلاطين المماليك كما رآها خلدون



بعض أوضاع مصر والشام في عصر سلاطين المماليك
كما رآها ابن خلدون

تمهيد:

إن العلاقات بين المغرب الإسلامي ومشرقه قديمة منذ فجر الإسلام، وظلت تلك العلاقات قائمة رغم اختلاف الدول وتعدد الحكام. فإذا ألم بالمشرق الإسلامي خطر، بادر المغاربة إلى نجدته وتقديم العون والمساعدة إليه، وكذا فعل المشارقة وخصوصاً في العصر المملوكي، فقد كان البحارة المغاربة عنصراً فاعلاً في اسطولهم.

وستركز هٰذه الدراسة على العلاقات التي كانت قائمة بين السلطان الظاهر برقوق وابنه فرج وملوك المغرب، وهي الفترة التي عاصرها ابن خلدون. فهو يتحدث عن علاقات المماليك بالموحدين بافريقية قائلاً: «ولم تزل ملوك المغرب على القدم، ولهٰذا العهد يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم، ويوجبون لهم الفضل والمزية، بما خصهم الله من ضخامة الملك، وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين، وكانت المهاداة بينهم تتصل بعض الأحيان، ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال»[١].

فالعلاقات كانت قائمة بين الملوك والحكام، ويظهر ذلك في مواسم الحج، حيث يجتمع في القاهرة حجاج المغرب والأندلس، ثم يسيرون صحبة الركب المصري إلى الديار المقدسة. وفي أحيان كان يحضر مع الحاج المغربي كبار رجال الدولة مصطحبين معهم الهدايا النفيسة للسلاطين المماليك، فيستقبلهم السلاطين استقبالاً حسناً ويقدمون إليهم كل التسهيلات الممكنة لأداء مهمتهم، وعند عودتهم يرسلون معهم الهدايا الثمينة لملوكهم ويودعونهم بكل حفاوة وتكريم[٢]. ومثل هٰذه الزيارات والهدايا كان من شأنها

---

(١) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (١٠/ ١٠٢٦).

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه، (١٠٢٨/١٠).

استحكام عقدة المودة بين الحكام والملوك والسلاطين. ولم تكن هٰذه العلاقات قاصرة على أعيان الدولة وحكامها، بل كان للأهالي وللقبائل العربية وزعمائها في المغرب العربي علاقاتها الشخصية مع السلاطين المماليك، الذين كانوا يتلقونهم بالحفاوة والتكريم وخصوصاً في مواسم الحج. ففي سنة ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) وأثناء وجود ابن خلدون في القاهرة، قدم للحج كبير العرب من هلال وهو يعقوب بن علي بن أحمد أمير رياح القاطنين بضواحي قسنطينة وبجاية والزاب، في وفد من بنيه وأقربائه، والأمير عون بن يحيى من الكعوب أحد شعوب سليم، القاطنين بضواحي تونس والقيروان والجريد، فتلقاهم السلطان الظاهر برقوق بالتكريم، وقدم لهم كل عون، وبعد أن قضوا فرضهم، عادوا إلى بلادهم مكرمين معززين[١].

وكان للعلاقات العلمية والثقافية بين المشرق والمغرب، أثر كبير في رفد الحركة العلمية والثقافية وتكاملها بين شطري عالمنا العربي، مما يدلل على وحدته الوطنية والدينية والثقافية والقومية. فالعلماء والطلاب كانوا يرحلون إلى المشرق لطلب العلم أو للاتصال بكبار رجال العلم هناك، وخدمة لهٰؤلاء الطلاب فقد وجد في مدينة دمشق وقف للطلاب المغاربة يصرف ريعه على القادمين منهم إلى دمشق طلباً للعلم[٢]. ووجد في بيت المقدس «حارة المغاربة»، وسميت كذلك لكونها موقوفة عليهم وسكنهم فيها[٣]. وقد كان لعلماء المغرب احترامهم وتقديرهم، حتى أن ابن خلدون كان معروفاً

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠٢٩/١٠).

(٢) ابن جبير، الرحلة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٢٠، ٢٣٢. ويقول ابن جبير: (فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هٰذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها... وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهٰذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فأدخل أيها المجتهد بسلام) ص٢٣٢.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب عمان - الأردن، ١٩٧٣، (٥٢/٢).

في المشرق الإسلامي قبل أن يستقر في مدينة القاهرة سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م)، فحال وصوله إليها تسامع به طلاب العلم، فوفدوا إليه ينهلون من علمه، فجلس للتدريس في الجامع الأزهر[١].

ابن خلدون في مدينة القاهرة:

ركب ابن خلدون البحر من تونس في منتصف شعبان ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) متجهاً إلى الاسكندرية في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج[٢]، فوصل الاسكندرية بعد أربعين يوماً، وكان سلطان مصر آنذاك الملك الظاهر برقوق، وله عشرة أيام في دست السلطنة[٣]. وقد أُخِذَ ابن خلدون بمدينة القاهرة، فوصفها بقوله: (فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك. . .)[٤].

وقد اتصل ابن خلدون بالسلطان برقوق، فأكرمه وقدمه، وفي ذلك يقول ابن خلدون: (فأبر اللقاء، وأنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم)[٥]. ثم عينه في سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) قاضي قضاة المالكية، فجلس للحكم في المدرسة الصالحية بين القصرين[٦]، ولكنه استعفى منها، فأعفاه السلطان سنة ٧٨٧هـ (١٣٨٥م)، آخذاً بعين الاعتبار ظروفه النفسية والمعاناة التي كان يعاني منها، بسبب غرق أهله وأولاده في البحر في طريقهم إلى الاسكندرية للالتحاق به. وفي سنة ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) طلب الاذن في أداء فريضة الحج، فأذن له السلطان، فغادر القاهرة إلى الحجاز عن طريق

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه، المجلد ١٤، ص١٠٦٠.
(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠٥٧/١٤).
(٣) نفس المصدر والجزء، ص١٠٥٨.
(٤) نفس المصدر والجزء، ص١٠٥٨.
(٥) نفس المصدر والجزء، ص١٠٦٠.
(٦) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص١٠٦٧.

البحر[١]. وبعد عودته كانت فتنة الناصري، أحد الأمراء الكبار الذي ثار في حلب ضد السلطان برقوق، فانضم إليه بعض نواب بلاد الشام، فتمكن من الاستيلاء على بلاد الشام ومصر ونفى السلطان إلى الكرك، وذلك سنة ٧٩١هـ (١٣٨٨م)[٢]. ولكن الظاهر برقوق تمكن بمساعدة من أهالي الكرك، وعرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم[٣]، وبعض الأمراء والمماليك في بلاد الشام، من أن يعيد سيطرته على الأمور في دمشق وبلاد الشام، وأن يواصل سيره إلى القاهرة، فدخلها في صفر ٧٩٢هـ (١٣٩٠م)، وتقلد السلطنة وعاد إلى سريره[٤]. وبقي ابن خلدون أثناء هٰذه الفتن والثورات منعزلاً عاكفاً على العلم والقراءة والتدريس، حتى رجع السلطان برقوق إلى ملكه، فأعاد إليه ما كان قد أجراه إليه من رعاية وعطف. وفي سنة ٨٠١هـ (١٣٩٨م) قلده قضاء المالكية مرة ثانية[٥]، ولكن الحياة لم تطل بالسلطان برقوق فتوفي في شوال من نفس السنة، فبويع ابنه فرج بالسلطنه من بعده[٦]. وقد ارتبط ابن خلدون بالسلطان فرج وشاركه في رحلاته وتنقلاته، فهو شاهد عيان لتطورات الأحداث الداخلية والخارجية في مصر والشام منذ قدومه إلى مصر سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م)، ولحين وفاته فيها سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م).

ابن خلدون في مدينة دمشق:

تعرضت بلاد الشام في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى الغزو التتاري بقيادة هولاكو، وقد جبن الملوك الأيوبيون آنذاك، ولم يقفوا في مواجهة تلك

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص١٠٧٥.

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠/١٠٤٢).

الكرك: بفتح الكاف والراء وكاف أخرى، إسم لمدينة وقلعة مشهورة في طرف الشام من نواحي البلقاء من ناحية جبال الشراه (ياقوت معجم البلدان، ٣٦٢/٤) «والمدينة الآن تقع في جنوب الأردن)».

(٣) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠/١٠٤٧).

(٤) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠/١٠٥٧).

(٥) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/١١٧٧).

(٦) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/١١٧٨).

القوات. بل أن الملك الناصر يوسف صاحب دمشق سار بقواته إلى مصر بنية الالتجاء إليها، تاركاً عاصمته دون حماية، فتعرضت دمشق وأهلها لأسوأ كارثة في تاريخها الوسيط. ولكن السلطان قطز صاحب مصر تمكن من إيقاف مدهم بعد معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م)، فانحسر هٰذا المد ليستقرّ التتار خلف الفرات، وليكونوا حتى بعد دخولهم الإسلام شوكة تقض مضاجع المماليك في بلاد الشام ومصر. لذا عمد الظاهر بيبرس إلى بناء خط من الدفاعات المتمثلة بالقلاع والحصون على حدود البلاد من ناحية الفرات، وربط تلك التحصينات بشكبة هائلة من الاتصالات والمواصلات تمثلت بالمناور والبريد الطائر والسطحي، بحيث إذا خرج الخبر من قاطع الفرات صباحاً يصل القاهرة مساءً، وإذا خرج مساءً يصل القاهرة صباحاً. فأي حركة تتارية كانت القاهرة تعلم بها بسرعة فتستعد لها، وترسل قواتها لصدها والإيقاع بها، وقد حاول التتار أكثر من مرة اجتياح البلاد الشامية، ولكن الدولة المملوكية كانت تقف لهم بالمرصاد[١].

وفي عام ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) تقدمت قوات التتار بقيادة تيمور لنك نحو بلاد الشام، فاجتاحوا حلب وحماه وحمص وبعلبك فنهبوا وسبوا وتقدموا إلى مدينة دمشق. فلما وصل الخبر إلى السلطان فرج بن برقوق في القاهرة، خرج في عساكره سابقاً القوات التتارية، كي لا يمكنهم من دخولها وليصدهم عنها، فوصل قبل وصول قوات تيمور لنك، فحدثت مناوشات بين الطرفين كانت حربهم سجالاً[٢]. وفي هٰذه الأثناء نمي إلى أسماع السلطان فرج أن بعض الأمراء المماليك يخططون للعودة إلى مصر، للثورة فيها ضد السلطان، مما اضطر السلطان العودة إلى مصر، ليقف في مواجهة أعدائه. فركب الناس خلف السلطان باتجاه الديار المصرية تاركين دمشق لمصير مجهول (وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عليهم الأنباء)[٣].

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٢٢١/١٤).
(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص١٢٠١.
(٣) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص١٢٠٢.

وهنا يتدخل العلماء، والفقهاء، وأهل الرأي لإنقاذ مدينتهم من الدمار والسبي والنهب، فابن خلدون شاهد عيان لتلك الأيام العصيبة من تاريخ مدينة دمشق فهو يقول: «وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تِمُر على بيوتهم وحرمهم...»[١]، ثم يستطرد قائلاً: «فخرجت إليه (تيمور لنك) من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمت عنده خمساً وثلاثين يوماً»[٢]. وكتب تيمور لنك للقضاة الرقاع بالأمان، واتفقوا على فتح المدينة، وأن يتولى المدينة من قبله الأمير شاه ملك -أحد رجاله- وأن يملك أمرهم بعز وولاية[٣]. ثم جاء الخبر بفتح باب المدينة، فسار تيمور لنك بحاشيته نحو دمشق، وجلس عند باب الجابية «ودخل إليه القضاة وأعيان البلد، ودخلت في جملتهم، فأشار إليهم بالانصراف، وإلى شاه ملك نائبه أن يخلع عليهم في وظائفهم، وأشار إليّ بالجلوس فجلست بين يديه»[٤].

ولكن تيمور لنك نقض الأمان الذي أعطاه لدمشق وقضاتها، فهدم القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل دمشق على قناطير من الأموال استولى عليها. ولم يكتف بذٰلك، بل أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة، فاستوعبوا أناسيها، وامتعتها، وأضرموا النار فيها، فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأموي. فارتفعت إلى سقفه، فسال رصاصه، وتهدمت سقفه وحوائطه «وكان أمراً بلغ مبالغه من الشناعة والقبح»[٥]. وعانت دمشق عناءً ما بعده عناء، واحترق في واقعة تيمور لنك هٰذه العديد من الكتب والمؤلفات، وكانت خسارة دمشق الثقافية والعلمية والعمرانية تضاهي خسارة بغداد على يد هولاكو قبل قرن ونصف تقريباً.

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/١٢٠٢).
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٠٢.
(٤) المصدر نفسه، ص١٢١٠.
(٥) المصدر نفسه، ص١٢١١.

انطباعات ابن خلدون عن أوضاع الدولة المملوكية

أولاً: الداخلية:

عاش ابن خلدون في كنف الدولة المملوكية مدة أربع وعشرين سنة (٧٨٤-٨٠٨هـ)، وتولى قضاء المالكية أكثر من مرة، والتدريس في عدة مدارس، وكان مقرباً من السلطان برقوق وابنه فرج، محبوباً من بعض أمراء الدولة وأعيانها، له طلابه ومريدوه. وخلال إقامته في مصر والشام، سجل ابن خلدون انطباعاته عن الأوضاع الداخلية في الدولة المملوكية نذكر منها ما يلي:

أ- الصراع على السلطة:

ينفرد ابن خلدون في اعطائنا صورة أكثر وضوحاً عن قيام الدولة المملوكية، لم يذكرها جمهرة مؤرخي العصر المملوكي، وذلك بسبب نظرته الحيادية، واستقلاليته في الرأي والفكر. فالصراع على السلطة الذي استشرى في أواخر الدولة الأيوبية، دفع الملك الصالح نجم الدين أيوب «الاستكثار من العصابة لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك، والإكثار منهم»[1]. فاشترى أعداداً كبيرة، وأقام لتربيتهم اساتيذ (معلمين) لحرفة الجندية، واسكنهم في طباق خاصة، بعد أن علمهم الآداب الدنية والخلقية، وأصبح لهؤلاء نفوذهم وقوتهم في الدولة. وبعد موت الملك الصالح نجم الدين أيوب أثناء مقارعته للحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، استدعت شجر الدر زوجة الملك الصالح ابنه تورانشاه لاستلام السلطة. فوصل من حصن كيفا (شمالي حلب)، ومعه عدد من مماليكه، فقربهم منه، واختص بهم دون بقية الأمراء المماليك الذين كانوا قائمين بالدولة من عهد أبيه منهم:

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١١٤١).

أقطاي وآيبك، وقلاوون «فأنفوا من تصرفات مماليك تورانشاه، واستعلائهم بالحظ من السلطان، وسَخِطَوهم وسَخِطُوه، وأجمعوا قتله، فقتلوه واستحدثوا هٰذه الدولة التركية»[١] وذلك في محرم ٦٤٨هـ (مايو (أيار) ١٢٥٠م). وهٰذا يدلل على أن قتل تورانشاه، كان نتيجة خطة مدروسة من قبل الأمراء الكبار وشجر الدر، للاستئثار بالسلطة وإقامة دولة جديدة. وهٰذا ما تغاضى عنه المؤرخون الآخرون كأبي الفداء، وابن آبيك، والمقريزي، وأبي المحاسن وغيرهم، ونحن بدورنا نقر رأي ابن خلدون ونؤيده.

ثم إن الأمراء المماليك لم يكونوا ليؤمنوا بمبدأ الوراثة على العرش، بل كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً على أساس الخشداشية (الزمالة)، وأن من حق كل منهم أن يصبح سلطاناً، ما دام يملك العصبية من المماليك الآخرين. فاستكثروا من المماليك استغلاظاً لشوكتهم، واكتشافاً لعصبيتهم، وطلباً في الجاه بسبب سطوتهم، وقوتهم، فوفروا الاقطاعات لمن يستخدمون، وخصوهم بالأمرة والمراكز العليا في الدولة، وانصرفت الوجوه عن سواهم[٢]. ولم يكتفوا بذلك بل راحوا ينصبون السلاطين (الأطفال)، كي يستبدوا بهم، ويصبحوا تحت وطأة سيطرتهم. وتنافسوا على الملك، وطفقوا يقتلون بعضهم بعضاً[٣]، فانتشرت الفوضى في البلاد، وانعكس ذلك سلباً على كل مقدرات الدولة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية.

وقد أدى هٰذا الصراع بين الأمراء، إلى قيام الفتن والثورات في مصر وبلاد الشام، فقامت ثورات عديدة في: دمشق، وحلب والكرك، قادها السلاطين والأمراء الكبار، اكتوت البلاد بنارها. ولم يقتصر ذلك على طبقة المماليك، بل دفعوا العامة للمشاركة في تلك الفتن والثورات، وأطلقوا لهم العنان في نهب ممتلكات خصومهم، فينهبونها

---

(١) المصدر نفسه (١٤/ ١١٤٣).

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠/ ١٠٠٢-١٠٠٣).

(٣) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١١٤٥).

ويخربونها[١]. ثم أنهم أجبروا الفقهاء والعلماء على إصدار الفتاوى ضد خصومهم، كما فعلوا مع الظاهر برقوق، إذ أكرهوا العلماء على إصدار فتوى تجيز قتاله، لأنه استعان بعدد من نصارى الشوبك لقتال خصومه[٢].

ب- الظلم الاجتماعي:

رغم أن ابن خلدون عاش في كنف الدولة المملوكية مكرماً معززاً، إلا أنه كان صادقاً في رصد أحداثها كما شاهدها وعاينها، بعين ثاقبة، ناقدة مجربة. فيذكر أن هٰذه الدولة كانت قوية مرهوبة الجانب في عهد الظاهر بيبرس، وقلاوون، وأبنائه الأشرف خليل والناصر محمد، لأن «الترف لم يأخذ منهم، والشدة والشكيمة موجودة فيهم، والبأس والرجولة شعار لهم»[٣]. وظل هٰذا الأمر حتى نهاية عهد الناصر محمد بن قلاوون، الذي طالت أيام ملكه، فاستكثر من المماليك الذين هم عصبته، ورتب للدولة المراتب، وزاد في اقطاعات الأمراء المماليك، وأوسع لهم في العطاء، فزادت أرزاقهم، واتسعت بالترف أحوالهم. وعم الأمن والاطمئنان البلاد، فرحل التجار إلى مصر والشام، فارتقت وتقدمت امكانيات الدولة الاقتصادية. وتنافس الأمراء على اتخاذ المدارس والربط والخوانق والبيمارستانات، وعم الرخاء البلاد، وأصبحت هٰذه الدولة «غرة في الزمان، وواسطه في الدول»[٤]. وبعد موت الناصر محمد بدأ الضعف والانحلال ينخر في جسم

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠/١٠٠٦)، (١٤/١١٥٦).

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه، (١٤/١١٥٩).

الشوبك: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف. قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة قرب الكرك (البغدادي، مراصد الاطلاع، ٢/١٣٢). (وهي في جنوب الأردن قرب البتراء).

(٣) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/١١٤٤).

(٤) ابن خلدون، نفس المصدر والجزء، ص١١٤٥.

الخوانق: أماكن أنشأها الموسرون لإقامة الفقراء من الصوفية، وللخوانق وظيفة تعليمية بجانب وظيفتها التعبدية، ولهٰذه الخوانق أوقاف يصرف ريعها على طلبة العلم والصوفيين المقيمين فيها. (ابن خلدون، ١٤/١٠٩٨). =

الدولة بسبب تنافس الأمراء على السلطة، وقتل بعضهم بعضاً، وانعكس ذلك على الأحوال العامة في البلاد، وبدأت الدولة في تراجع. ولكي يبقوا على مخايل العز والنعم في المساكن والجياد والمماليك والزينة، عمدوا إلى جمع الأموال بطرق غير مشروعة، فزادوا في الضرائب، واستكثروا منها، واشتطوا في طلبها. كل ذلك كان على حساب المواطنين والأهالي، فعانوا من الجور والظلم والعسف، حتى أن العديد من الفلاحين هجروا الأرض، وامتهنوا الرعي وحياة البادية، مما كان له أثره السلبي على العطاء الحضاري في البلاد.

ولقد أدت هٰذه السياسة، من كثرة الضرائب التي تجبيها الدولة وتعددها إلى شغب التركمان والعرب، فيثورون عليها، ويمتنعون عن أدائها «لما عندهم من الاعتزاز»[1]، وكانت نقمة الدولة شديدة عليهم، فيقتلون ويفتكون بهم[2]. وقد استنزفت هٰذه الفتن والثورات مقدرات الدولة العسكرية والمالية، فعجزت الدولة عن تمشية أحوالها. كما أن الطواعين والأوبئة التي أصابت البلاد، كانت عاملاً هاماً في إضعاف الدولة، وتدني اقتصادياتها، وتغير في البنية الاجتماعية فيها، فملك الاقطاعات من ليس كفؤاً لها، بسبب انحلالها بموت أصحابها. بالاضافة إلى ضعف العسكرية المملوكية بموت أعداد كبيرة من الجنود، مما دفع السلاطين إلى جلب مجموعات جديدة منهم، لم يكونوا بنفس المواصفات التي كانت تفرضها النظم المملوكية في أول عهدها، فاستقدموا المماليك الكبار في السن (الأجلاب)، والذين كانوا عنصر شغب وفساد في البلاد، فكثيراً ما كانوا يعمدون إلى نهب المتاجر في القاهرة ودمشق وحلب، ويعتدون على حرم الناس وأموالهم، وأساؤوا إلى المؤسسة العسكرية المملوكية التي قامت على مُثُلِ نظام الفروسية في العصور الوسطى. ونتيجة لذٰلك أصبح المواطنون العرب من أهالي مصر

---

(١) ابن خلدون (١٠/١٠٠٨)، (١٤/١١٥١).

(٢) المصدر نفسه (١٠/١٠٠٩).

وبلاد الشام، مواطنين من الدرجة الثانية، فالمماليك كانوا هم الطبقة المتميزة في الدولة، بيدهم كل الوظائف العليا في الدولة. ولم يكن من حق المواطنين، تقلد أي منصب عسكري أو إداري كبير، فالمماليك كانوا طبقة منعزلة عن عامة الناس، همهم جمع الأموال، والاستبداد بمقدرات الوطن والمواطنين.

ج- فساد الحكم والقضاء:

يصور ابن خلدون الحالة السيئة التي وصل إليها الحكم والقضاء في الدولة المملوكية، فيذكر أن الحكام الذين يصلون إلى تلك المناصب، هم أولئك الذين رضي عنهم الأمراء وكبار رجال الدولة. وكان يعمد هٰؤلاء إلى التلبيس والخداع في الأحكام، بسبب اعتصامهم بأهل الشوكة، فغالبهم مختلطون بالأمراء، معلمون للقرآن، وأئمة في الصلوات، فيخدعونهم بالعدالة، فيظنون فيهم الخير، ويزكونهم عند القضاة. فيتولون مناصب الحكم بطرق غير مشروعة، مما كان سبباً في تفشي المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس. بل أن الفساد انسحب على كتاب دواوين القضاة، والموقعين، والشهود العدول فكثيراً ما كان هٰؤلاء الكتاب يسجلون العقود بالصيغة والشروط التي يريدها الأمير أو صاحب الشأن. وهم بذلك يموهون على القضاة بجاههم، ويتصرفون كذلك، معتمدين على حماية أولي الأمر لهم. ووصل الأمر ببعضهم أن تسلطوا على العقود المحكمة، فيوجدون السبيل إلى حلها بوجه فقهي أو كتابي «ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه، أو منحة، وخصوصاً في الأوقاف»[1] فتعرضت الأوقاف إلى الاعتداء، عن طريق الامتلاك أو البيع، متخذين اختلاف المذاهب المنصوبة للحكم، وسيلة لتحقيق ذلك[2]. فالقضاء في العصر المملوكي كان على المذاهب الأربعة، ولكل مذهب قاضي قضاة «ففشا في ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر (الخطر) في العقود والأملاك»[3].

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٠٦٨/١٤).

(٢) ابن خلدون، نفس المصدر (١٠٦٩/١٤).

(٣) ابن خلدون، نفس المصدر (١٠٦٩/١٤).

أما مناصب الافتاء والتدريس فتقلدها من هم ليسوا أهلاً لهٰذا المنصب، فتسربت الرشوة والفساد إلى كل مناصب الحكم والقضاء والتدريس في الدولة المملوكية. واستشرى هٰذا المرض واستحكم أمره، فلم تقلد هٰذه المناصب للشخص الكفؤ، وتمكن من الوصول إليها المنتحلون وضعاف النفوس، ووصل الأمر إلى درجة أن بعض الحكام والقضاة كانوا يشترون وظائفهم من السلطان نظير مبالغ كبيرة من المال. ولكي يبقى القاضي في منصبه، كان لا بد له من «مرضات الأكابر، ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت، بناءً على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه»[١]. وقد عانى ابن خلدون كثيراً من ذلك، فتألب الجميع ضده، بعدما رفض السير والانجراف في ركابهم، والحكم بغرضهم.

وهٰكذا فالصورة التي نقلها ابن خلدون في سفره عن انطباعاته عن أوضاع الدولة المملوكية الداخلية، تؤكد إطلاعه الدقيق على خبايا تلك الدولة. وهي صورة قاتمة انعكست سلباً على الدولة المملوكية بخاصة، وعلى المجتمع الشامي والمصري بعامة، فزادته تفككاً وانهياراً.

ثانياً: الخارجية:

أ- علاقات الدولة المملوكية بالمغرب الإسلامي:

يؤكد ابن خلدون أن من أسباب توطيد أواصر الصداقة وتمتين العلاقات بين الدول تبادل الهدايا والسفراء، فهي برأيه عنصر هام من عناصر السياسة يحتاجها كل ملك أو سلطان[٢]. وقد أوضحنا أن العلاقات بين المشرق الإسلامي ومغربه، ظلت قائمة طيلة

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١٠٧١).

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١١٦٤).

العصور الإسلامية المختلفة، علاقات دينية وثقافية وسياسية وعسكرية. ويذكر ابن جبير أن المغاربة قدموا مساعداتهم لنور الدين زنكي في حربه ضد الفرنج، وانجدوه بعدد من المقاتلين(١)، وبذلك امتزجت دماء المسلمين من المشرق والمغرب على أرض فلسطين.

وقد عرف المغاربة بقدرتهم على ركوب البحر، ومهارتهم في قيادة السفن، فكانت لديهم أساطيلهم التي وقفت في مواجهة الأساطيل الأوروبية ردحاً من الزمن، وحجّمت وجودهم في غرب البحر المتوسط. ثم امتد هٰذا النشاط إلى شرق البحر المتوسط، فصلاح الدين الأيوبي «هادي يعقوب المنصور ملك المغرب من بني عبد المؤمن، واستجاش به بأسطوله في قطع مدد الفرنج عن سواحل الشام»(٢). وكان صلاح الدين قد رتب سفارة إلى الموحدين في تونس، على رأسها رسوله عبد الرحمٰن بن نجم الدولة بن منقذ أحد أمراء شَيْزر(٣). ولكن هٰذه السفارة لم تتم، بسبب الخلاف الذي كان قائماً بين الخلافتين العباسية والموحدية. ويذكر ابن خلدون أن ملوك تونس من الموحدين، كانوا يتعاهدون ملوك مصر من المماليك بالهدية في الأوقات(٤).

وعندما دهمت حملة لويس التاسع ملك فرنسا تونس سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م)، سارع الملك الظاهر بيبرس إلى نجدة المستنصر بالله أبو عبد الله محمد الحفصي الموحدي، وكتب إليه يخبره عن عزمه في مساعدته ونجدته. وبادر إلى حفر الآبار في الصحراء الغربية، ليعتمد عليها الجند في طريقهم إلى تونس، كما كتب إلى عربان برقة بان

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٧.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق (١٤/ ١١٦٤).

(٣) ابن خلدون، نفس المصدر (١٤/ ١١٦٤).

شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماه يوم، وينسب إليها أمراء بني منقذ وكانوا ملوكها (ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٣٨٣).

(٤) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١١٦٨).

يسارعوا إلى نجدة تونس، ولكن قوات بيبرس لم تصل تونس، بسبب فشل حملة لويس التاسع ومصرعه هناك[١].

وقد ازدادت العلاقات بين دولة بين دولة بني مرين في المغرب الإسلامي، ودولة المماليك، فأرسلوا الهدايا والسفارات إلى سلاطينهم، طلباًفي تمتين أواصر الصداقة والمحبة، ولتسهيل مهمة الحجاج المغاربة في طريقهم إلى بلاد الحجاز[٢]. من ذلك ما هادى به يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين، السلطان الناصر محمد ابن قلاوون سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م)، وقد رد الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٠٥هـ (١٣٠٥م)، على هٰذه الهدية بهدية عظيمة، جمعت طرائف بلاد المشرق، مما يُستغرب جنسه وشكله، وأرسلها مع أميرين من أمرائه[٣]. وفي سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧م)، أرسل السلطان أبو الحسن ملك المغرب هدية للناصر محمد بن قلاوون، تحدث بها الناس دهراً وبقي شأن هٰذه الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم وأسمارهم»[٤]. وبالمقابل بعث الملك الناصر محمد لسلطان بني مرين هدية، بالغة القيمة، وبقي التعجب من تلك الهدية دهراً على الألسنة[٥].

ولعب ابن خلدون دوراً له أهميته في تمتين العلاقات السياسية بين الملك الظاهر برقوق وملوك تونس، فبعث لملك تونس رسالة يطلب منه أن يهدي صاحب مصر عدداً من الخيول المغربية، لما فيها من تحمل الشدة والصبر على المتاعب، فبعث ملك تونس إلى الظاهر برقوق خمسة جياد انتقاها من مراكبه

---

(١) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٧٦، ٧٧، ١١٣، ١١٤.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق (١٤/١١٦٥).

(٣) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/١١٦٦).

(٤) ابن خلدون، نفس المصدر (١٤/١١٦٧).

(٥) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص١١٦٨.

الخاصة[١]. كذلك أرسل الظاهر برقوق هدية إلى الملك أبي العباس أحمد بن أبي سالم من ملوك بني مرين بفاس مع شيخ الأعراب بالمغرب يوسف بن علي بن غانم، ومعه رسالة طلب فيها شفاعة للشيخ يوسف بسبب خلاف حصل بينهما، فقبل سلطان بني مرين الشفاعة وأعاده إلى منزلته[٢].

وبالمقابل انتقى صاحب فاس الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر برقوق، ولكنه توفي قبل إرسالها، فأرسلها أخوه أبو عامر صحبة يوسف بن علي. ثم أن العلاقات السياسية كانت جيدة متواصلة بين سلطان مصر الظاهر برقوق، وكلاً من: أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص الموحدي سلطان تونس؛ وسلطان تلمسان من بني عبد الواد؛ وسلطان فاس والمغرب من بني مرين. ففي سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٩م)، أرسل إليهم الهدايا مع رسول خاص اسمه قطلوبغا بن عبد الله، فأكرم ملوك المغرب رسول الظاهر برقوق، وبعثوا معه الهدايا النفيسة[٣]. ويعلق ابن خلدون على تلك الاتصالات قائلاً: «وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكر جميل، بما تناولت بين هٰؤلاء الملوك من السعي في الوصلة الباقية على الأبد، فحمدت الله على ذلك»[٤]. وهٰكذا فقد كان ابن خلدون خير سفير لبلاده لدى البلاط المملوكي، فعمل أثناء وجوده في مصر على تقوية العلاقات السياسية بين المغرب الإسلامي ومشرقه، واستمرار بقائها. ولم يكتف بذلك بل عمل على تقوية وتطوير العلاقات السياسية بين الدولة المملوكية، ودولة بني الأحمر في غرناطة، ففي سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م)، تسلم ابن خلدون كتاباً من أبي عبد الله زَمْرك، كاتب سر السلطان أبي الأحمر في غرناطة، فيه شعر ونثر، ويسأل في كتابه عن أخبار الأندلس[٥]. كما أرسل مع هٰذا الكتاب قصيدة في مدح الملك الظاهر

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص١١٦٩.
(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١١٦٩).
(٣) ابن خلدون، نفس المصدر (١٤/ ١١٧٠-١١٧١، ١١٧٥).
(٤) نفس المصدر (١٤/ ١١٧٧).
(٥) نفس المصدر (١٤/ ١٠٧٦-١٠٨٩).

برقوق سلطان مصر، وطلب منه أن يعيد كتابتها بالخط المشرقي ويقدمها للسلطان. ويقول ابن خلدون: «ورفعت النسخة والأصل للسلطان، وقرأها كاتب سره عليه»(١). فابن خلدون كان دبلوماسياً وسياسياً محنكاً، له صلاته القوية مع حكام المشرق والمغرب على حد سواء، وقد ساعدته تلك الصلات في تطوير العلاقات بين الطرفين وتقويتها.

ب- علاقات الدولة المملوكية بالتتار:

يتحدث ابن خلدون عن الخلاف الذي حدث بعد وفاة الرسول ﷺ، وتشيع قوم من العرب لعلي بن أبي طالب، وأدى في نهاية الأمر إلى تشعب المذاهب. فانساق مذهب من مذاهبهم إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فظهرت شيعته بخراسان، وهم الذين انتزعوا الملك من بني أمية، مكونين الدولة العباسية(٢). واتسعت أملاك هٰذه الدولة، وعظمت الأمة العربية والإسلامية في عصرها، من جميع النواحي السياسية، والفكرية والعلمية، والثقافية، والاقتصادية. ولكن خامر هٰذه الدولة، ما يخامر الدول عادة من الترف والراحة، فبدأ أمرها في النكوص، وكثر المنازعون للعباسيين من بني علي وغيرهم. فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب وهم العبيديون في سنة ٢٩٦هـ (٩٠٨م)، المنتسبين إلى عبد الله المهدي بن محمد، بمساعدة من قبائل كتامة، وقبائل البربر، وتمكنوا من الاستيلاء على المغرب ومصر(٣). ومثل هٰذا الصراع حدث في المشرق الإسلامي، فغلب البويهيون على بغداد، وحجروا على الخليفة العباسي، واستبدوا في الملك(٤). وبقي الأمر كذلك حتى ظهرت قوة جديدة من الأتراك من بني

(١) نفس المصدر (١٤/١٠٨٨).
(٢) المصدر نفسه (١٤/١١٨٩).
(٣) المصدر نفسه (١٤/١١٨٩).
(٤) المصدر نفسه (١٤/١١٩٠).

سلجوق، فتقدموا إلى خراسان بزعامة طغرلبك، فملكوها وملكوا طبرستان من يد الديلم، ثم أصبهان، وفارس من أيدي بني بويه. وأخيراً تقدم طغرلبك سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) إلى بغداد، فغلب عليها من يد بني معز الدولة بن بويه المستبدين على الخليفة العباسي القائم بأمر الله[١]. فحجر طغرلبك على الخليفة واستبد بالأمور دونه، ثم امتد سلطانه إلى بلاد البحرين، وعُمان، وبلاد الشام، وجزء من الأناضول (واستوعب على ممالك الإسلام كلها، فأصارها في ملكه»[٢].

ويرى ابن خلدون أن النفوذ العربي في الدولة العربية الإسلامية في المشرق الإسلامي انتهى منذ منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، فتسلم الأتراك السلطة في العراق والشام، وتسلمها من بعدهم أولئك الذين رُبوا في كنفهم، وتحت رعايتهم، كالزنكيين، والأيوبيين، ثم المماليك. ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله: «وانقبضت العرب راجعة إلى الحجاز، مسلوبة من الملك، كأن لم يكن لهم فيه نصيب»[٣].

أما الجناح الغربي من الأمة العربية الإسلامية، فقد خرج الافرنج على بقايا بني أمية وانتزعوا الملك من أيديهم، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها، وفي المغرب الإسلامي اقتطع ملوك صنهاجة افريقية، واستقل الملثمون المرابطون بالمغرب الأقصى والأوسط، ومن بعدهم المصامدة الموحدون[٤]. وفي مصر ضيق الأتراك السلاجقة على

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٨٧.

طبرستان: بلدان واسعة تقع بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل، وهي كثيرة المياه والأشجار والفواكه، والنسبه إليها (الطبري) (ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ١٣١).

أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصبهان اسم للاقليم كله وهي من نواحي الجبل (البغدادي، مراصد الاطلاع، ١/ ٨٧).

(٢) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١١٩٢).

(٣) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/ ١١٩٢).

(٤) نفس المصدر(١٤/ ١١٩٣).

الدولة الفاطمية، وأخذوا يزاحمونهم في بلاد الشام، ونشبت الصراعات عنيفه بين الطرفين، واكتوت بأتونها الديار الشامية، فزادتهاتمزقاً وتفتتاً، وقضت على مقدراتها الاقتصادية، فأصابها الخور والخذلان. ولم تقو على الصمود أمام أول هجمة فرنجية من الغرب الأوروبي، فتمكنت تلك الحملة من احتلال الساحل الشامي وتوجت تلك الفتوحات باحتلال بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) مكونين مملكة بيت المقدس اللاتينية، ولكن اليقظة العربية الإسلامية تظهر على يد عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود الذي تمكن أيضاً من اسقاط الدولة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) ايذانا بمولد دولة جديدة، بقيادة صلاح الدين الأيوبي هي الدولة الأيوبية، والتي امتد نفوذها إلى مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن.

إلا أن دولة السلاجقة فشلت واختلت بسبب صراعاتها الداخلية، لتمهد الطريق لظهور قوة التتار بزعامة جنكيز خان ومن بعده هولاكو، فلم تقو الدولة السلجوقية الوقوف أمام هٰذا المد. فاجتاحت قوات هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وقتل الخليفة المعتصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، ثم دمرت قواته بغداد وتقدمت نحو بلاد الشام وعاثت فيها فساداً[١]. وفي خصم هٰذه الأحداث ظهرت دولة جديدة في مصر من مماليك الأيوبيين، وتمكن سلطانهم قطز من الانتصار على التتار في معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨هـ (سبتمبر (أيلول) ١٢٦٠م). وتمكن المماليك من ايقاف الزحف التتاري واضطرهم للتراجع إلى المناطق الكائنة خلف نهر الفرات في شمال الشام، وكان لهٰذا الانتصار أثره في نفوس المواطنين في مصر والشام، فاعترفوا بهٰذه الدولة الجديدة، دولة قوية تحميهم من الأخطار الخارجية التتارية والفرنجية معاً. ومع أن قسماً كبيراً من التتار دخلوا في الإسلام، إلا أن علاقاتهم بالدولة المملوكية، كانت علاقات عداوة وبغضاء، وحاولوا أكثر من مرة اجتياح بلاد الشام، ولكن المماليك كانوا لهم

(١) نفس المصدر (١٤/ ١١٩٥).

بالمرصاد[١]. ولم يكتف التتار بذلك بل سعوا إلى عقد تحالف مع الفرنجة في الساحل الشامي لضرب المماليك، وأرسلوا سفاراتهم إلى البابا في روما لهٰذه الغاية، وتلقى ملوكهم سفارات فرنجية وبابوية[٢]. وأخيراً اعتلى عرش التتار تيمورلنك، الذي كان معاصراً لابن خلدون، وقد استولى تيمورلنك على بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند، وبخارى، وخوارزم، ثم تقدمت قواته إلى طبرستان، وخراسان، وأصبهان فملكها جميعاً. وأخيراً زحف إلى بغداد فانتزعها من يد صاحبها أحمد بن أويس الذي استجار بالملك الظاهر برقوق سلطان مصر، فأجاره ووعده بالمساعدة. وعندما حاول تيمورلنك التقدم نحو الديار الشامية كان الظاهر برقوق يقف في مواجهته، فلم يجرؤ تيمورلنك على لقياه[٣]. وبعد وفاة برقوق تقدم تيمورلنك نحو بلاد الشام، فاجتاز الفرات، وتقدمت قواته إلى حلب، فحاصرها، واقتحم التتار المدينة من كل ناحية «ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة، واستباحة الحرم مالم يعهد الناس مثله»[٤]. ووصل الخبر إلى مصر، فخرج السلطان الناصر فرج بقواته لملاقاة القوات التتارية وللمدافعة عن الديار الشامية والمصرية معاً.

---

(١) يوسف غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص١٥٧ -١٦٣.

(٢) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص٧٥.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق (١١٩٨/١٤).

سمرقند: مدينة تقع فيما وراء النهر، وهي مدينة نزهة، طيبة، تحيط بها الرياض الجميلة والمياه الغزيرة، والمنسوب إليها يسمى (السمرقندي) (ياقوت، ٣/ ٢٤٧).

بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، وبينها وبين نهر جيحون يومان، وهي مدينة قديمة نزهة البساتين وبينها وبين سمرقند سبعة أيام (البغدادي، مراصد الاطلاع، ١/ ١٦٩).

خوارزم: اسم لناحية كبيرة عظيمة قصبتها الجرجانية، وهي ولاية متصلة العمارة، متقاربة القرى كثيرة البيوت والقصور، أكثر ضياعها مدن ذات أسواق وهي على نهر جيحون (البغدادي، مراصد الاطلاع، ١/ ٤٨٧).

(٤) ابن خلدون، المصدر نفسه (١١٩٩/١٤).

وقد شارك ابن خلدون في هٰذه الحملة، فهو والحالة هٰذه شاهد عيان لكل الأحداث التي جرت في بلاد الشام، سواء بين المماليك أنفسهم، أو تلك التي حدثت بين المماليك والتتار، أو بين التتار وأهالي مدينة دمشق، وما فعله التتار بهم.

وهنا نود الحديث عن انطباعات ابن خلدون عن التتار من خلال اتصاله بهم ومعرفته إياهم، خصوصاً وأن تيمورلنك قربه وأكرمه، وكانت له منزلة خاصة لديه. ورغم ما فعله تيمورلنك بدمشق خاصة وبلاد الشام عامة، إلا أن ابن خلدون لم يكن قاسياً في نقده إليهم، فكل ما كتبه عن أعمالهم في دمشق وغيرها لا تتجاوز سطوراً قليلة، فما هي العوامل التي دعت ابن خلدون يتصرف مثل هٰذا التصرف؟

قد يكون للعامل النفسي أثره، فابن خلدون أُبعد عن الحكم أكثر من مرة، بسبب مؤامرات الأمراء المماليك، وتدخلهم في شؤون الحكم والقضاء وتصريف الأحكام حسب أهوائهم، وهٰذا ما رفضه ابن خلدون، حتى عند خروجه إلى الشام لم يطلبه السلطان فرج للسفر في معيته، ولكن الذي قدم إليه هو الأمير يشبك الشعباني الدوادار الكبير للسلطان فرج، طالباً منه السفر في ركاب السلطان إلى الشام، فرفض ابن خلدون باديء الأمر ثم قبل فهو يقول: «ثم أظهر العزم عليّ بلين القول، وجزيل الإنعام، فأصخيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث (وثمانمائة)[١]. فابن خلدون لم يكن مرتاحاً من هٰذه الرحلة، بسبب اقصائه عن الحكم، فهو يسير في ركاب السلطان، كانسان عادي، وهٰذا يتنافى مع طموحات ابن خلدون، الذي تطلع دوماً للسلطة والحكم، سواء في المغرب أو في المشرق.

---

(١) ابن خلدون، المصدر نفسه (١٤/١٢٠١).

الدوادارية: وظيفة من وظائف أرباب السيوف في الدولة المملوكية، وموضوعها تبليغ الرسل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه والمشورة فيمن يحضر لمقابلته. ووجدت وظيفة الدوادار في كل النيابات تقريباً في مصر والشام (القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٤١٩، يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، ١٩٨٢م، ص٣٤، ٣٥).

ثم ان تصرف المماليك في دمشق لم يعجب ابن خلدون، فقاموا بفتنة ومؤامرة ضد السلطان فرج بينما كانوا يواجهون قوات تيمورلنك ورحل قسم منهم عائداً إلى القاهرة لاتمام ما خططوا له. مما اضطر السلطان العودة إلى القاهرة خشية على ملكه، فابن خلدون يقول: «ثم نُمي إلى السلطان وأكابر أمرائه أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة، يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتقاض الناس وراءهم واختلال الدولة بذلك»[١].

ولم يرتح ابن خلدون لتصرف المماليك غيرالمسؤول، فالمماليك لم يشعروا بانتماء حقيقي لهٰذه الديار التي يعيشون فيها، وإلا لما تركوا دمشق وأهلها لقمة سائغة للقوات التتارية، لا لشيء إلا بسبب صراعاتهم، وأطماعهم الشخصية في السلطة والحكم، وقتل بعضهم بعضاً. وإن جاز لنا أن نلتمس العذر لابن خلدون لعدم قسوته في نقد التتار الذين أكرموه وأكرموا العلماء الآخرين معه. فسبب ذلك انطباعاته السيئة عن الدولة المملوكية، وعن الأمراء الذين تصرفوا ذلك التصرف المشين. ولم يكن بمقدور ابن خلدون نقد المماليك وتجريحهم في تاريخه، لأنه كان يعيش في كنفهم وتحت رعايتهم، وكان يخشى فتكهم به، لذا عندما كتب عن تيمورلنك، كتب عنه باسهاب ذاكراً مجالسه، وتقديره للعلم والعلماء، والمناقشات التي كانت تدور في حضرته[٢]. ولا شك أن ذلك كان رداً خفياً ونقداً لاذعاً للماليك، لتقاعسهم عن نجدة دمشق وبلاد الشام والدفاع عنها.

---

(١) ابن خلدون، نفس المصدر (١٤/ ١٢٠١).

(٢) ابن خلدون، نفس المصدر (١٤/١٢٠٣ -١٢١٤) ومع ذلك فابن خلدون يصف التتار قائلاً: (والقوم في عدد لا يسعه الاحصاء، وان قدرت ألف ألف فغير كثير، ولا تقول انقص، وإن خيموا في الأرض ملأوا الساح... وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران، وابتلائهم بأنواع العذاب، على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادي الأعراب) (١٤/ ١٢٢٢).



الموضوع الثامن

العلاقات التجارية بين أيلة (العقبة)
وعدن في العصر الإسلامي

العلاقات التجارية بين أيلة (العقبة) وعدن في العصر الإسلامي

في العصور القديمة:

كان لأيلة علاقاتها مع البحر الأحمر وسواحله الغربية والشرقية ومع الدول المجاورة في فلسطين والساحل الفينيقي منذ القرن العاشر قبل الميلاد. وتمتعت أيلة منذ تلك العصور القديمة بموقع فريد في رأس خليج يبلغ طوله ١٨٠كم ولا يزيد عرضه في أقصى اتساع عن ٢٥كم، ويمتاز قاعه بشدة التضرس والعمق الذي يصل إلى حوالي ١٢٨٧متراً[١]. ويعتبر هٰذا الخليج جزءاً رئيسياً من الأخدود الذي يشمل البحر الأحمر ويمتد شمالاً إلى وادي عربة والبحر الميت ووادي الأدرن وسهل البقاع في وسط سورية[٢]. وتكون السواحل الصخرية معظم جهات الجانب الغربي لهٰذا الخليج ذات الحافات الانكسارية التي تصطدم أمواج البحر بسفوحها. وقد ساعد امتداد الخليج هٰذا في أن يكون ميناء أيلة ميناء محمياً من أعاصير البحر وأنوائه. وتتحكم بمدخله الجنوبي جزيرة تيران (جوتابا) التي تشكل نقطة استراتيجية هامة في طرفه الجنوبي، ويمتاز خليج العقبة بقلة الشعاب المرجانية قياساً على كثرتها في البحر الأحمر، فإن ضيق الخليج ومرور السفن يساعدان على استمرار تحرك المواد الرسوبية التي يتألف منها قاعها، وهٰذه الحركة لا تساعد بالتالي على تكون الشعاب المرجانية[٣].

ويعتبر ميناء أيلة باب البلاد الشامية على المحيط الهندي وافريقية والشرق الأقصى. ومن هنا جاءت أهميتها الاستراتيجية والتجارية. أضف إلى ذلك أن موقعها في فم رأس

---

(١) محمد فاتح عقيل، أهمية الموقع الجغرافي لسواحل مصر العربية، بحث في كتاب البحرية المصرية، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٣م، ص٣٩.

(٢) محمد فاتح عقيل، المرجع السابق، ص٣٦.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٣.

الخليج جعلها تتحكم في طرق المواصلات البرية التي تربط مصر والشمال الافريقي بالحجاز والجنوب العربي. وتبرز علاقتها الواضحة بالبحر الأحمر والتجارة الشرقية وسواحل البحر المتوسط منذ عام ٩٧٥ق.م. فالفينقيون على الساحل الشامي قدموا للملك سليمان الخبرة الفنية في ركوب البحار وبناء السفن التي أخذت طريقها باتجاه الشرق حاملة سلع الهند والصين إلى فلسطين وسواحل البحر المتوسط. أما علاقات الفراعنة بالبحر الأحمر والجنوب العربي فتعود إلى عهد الفرعون (مرنرع)[١]، والمصادر والنقوش القديمة لا تسعفنا عن وجود مثل هٰذه العلاقات مع أيلة والسواحل الجنوبية لسورية، فأول اشارة وصلت إلينا عن علاقات أيلة التجارية تلك التي ذكرتها التوراة في عهد الملك سليمان.

ولكن الأهمية الملاحية والتجارية للبحر الأحمر وموانئه تبرز واضحة منذ عصر البطالمة، فقد كانت السفن القادمة من الهند والصين تفرغ حمولتها في ميناء عدن جنوب بلاد العرب، دون أن يسمح لها اجتياز بوغاز باب المندب[٢]، ومن ثم تأخذ هٰذه السلع طريقها إلى الشمال عن طريقين: الأول بحري يسير بمحاذاة الساحل الافريقي أو في محاذاة ساحل بلاد العرب حتى أقصى الشمال في البحر الأحمر حيث أيلة والقلزم[٣]. أما الطريق الثاني فهو بري يمر بسبأ ومعين ويثرب ثم إلى البتراء، ومن هناك إلى غزة والبحر المتوسط. وقد كان السبئيون والمعينيون في القرن الثالث قبل الميلاد وسطاء التجارة الشرقية والمسيطرين على الطريقين البحري والبري معاً[٤]، ورغم الصعوبات

---

(١) نجيب ميخائيل. البحرية المصرية في العصر الفرعوني. بحث في كتاب تاريخ البحرية المصرية جامعة الاسكندرية. ١٩٧٣م ص٦٤.

(٢) جورج حوراني. العرب والملاحة في المحيط الهندي. ترجمة يعقوب بكر. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة. ١٩٥٨. ص٦٤.

(٣) محمد عواد حسين. البحرية المصرية في عهد البطالمة. بحث في كتاب البحرية المصرية جامعة الاسنكندرية. ١٩٧٣م. ص٥٢. وأنظر Todd, The Ancient World, London, 1938 p. 288.

(٤) جورج حوراني. المرجع السابق. ص٦١.

الملاحية في البحر الأحمر بسبب شعابه المرجانية، فقد كان قبلة تجار العالم القديم جميعاً. وكان بطليموس الأول (٣٢٣-٣٨٣ق.م) السباق في إرسال البعوث الكشفية لارتياد البحر الأحمر وسواحله الافريقية والعربية، بل تعدى ذلك إلى المحيط الهندي[1]. ولكن بطليموس الثاني فيلادلفوس أعطى اهتماماً أكبر بتجارة البحر الأحمر وسواحله وموانئه، فقد تمتع بعقلية تجارية واقتصادية ووسع من دائرة نفوذه عبر جوف سورية coele syria الذي ادخلها بطليموس الأول تحت النفوذ البطلمي في سنة ٣١٨/٣١٩ ق.م بل امتد اهتمامه إلى البحر الأحمر والشعوب الساكنة حوله، فأرسل (أريستون) Ariston في مهمة استطلاعية إلى بلاد الأنباط فبلغ أيلة في خليج العقبة، ثم زار ثمود في الحجاز، كما زار مملكتي معين وسبأ في الجنوب العربي، وبلغ باب المندب ثم قفل راجعاً إلى مصر[2]. أما بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦ق.م) فقد ركز اهتمامه على الشواطيء الشرقية لافريقية للحصول على الفيلة لمجابهة الفيلة الهندية التي كان يستخدمها السلوقيون في سورية واستخدم لنقلها ميناء بيرنيكي Bernice شرقي أسوان متجنباً في ذلك الأنباط في شمال البحر الأحمر الذين كانوا يهاجمون السفن البطلمية ويستولون عليها[3].

وقد أدرك بطليموس فيلادلفوس مقدار السيطرة النبطية على تجارة البحر الأحمر والجنوب العربي، فقام بحملة ضد الانباط خلال العامين ٣٧٨/ ٣٧٧ق.م فهاجم منطقة البتراء والبحر الميت للحد من النفوذ والسيطرة النبطية على خطوط التجارة والملاحة

---

(١) محمد عواد حسين. المرجع السابق، ص١٥٣.

(٢) محمد عواد حسين، المرجع السابق، ص١٥٣.

جورج حوراني، المرجع السابق، ص٥٣.

منذر عبد الكريم البكر، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٠م، ص٣٩٢.

(٣) جورج حوراني، المرجع السابق، ص٥٧.

الشرقية[١]. بالاضافة إلى اهتمامه بمدينة عمّان التي منحها اسمه (فيلادلفيا) كي تستطيع الوقوف في وجه المد النبطي نحو الشمال.

رفض الأنباط هٰذا التدخل البطلمي في شؤون تجارتهم، فأخذوا يهاجمون السفن البطلمية في البحر الأحمر، مما اضطر فيلادلفوس إلى إرسال الحملات البرية والبحرية ضدهم[٢]. بل عمد إلى إنشاء ميناء امبيلوني Ampelone على الساحل الشرقي للبحر الأحمر[٣]، وأقام فيه حامية عسكرية لحماية السلع الواردة إليه من ساحل الحجاز والجنوب العربي ضد غارات الأنباط وقد قاوم الأنباط هٰذا الاجراء فشنوا غارات بحرية على تجارة البطالمة في البحر الأحمر، إزاء ذلك أرسل بطليموس الثاني حملات عسكرية هاجمت الأنباط في عقر دارهم، بل أنه أقام في عمّان (فيلادلفيا) فرقة عسكرية للوقوف في وجه التجارة النبطية المتجهة نحو الشمال[٤]. وظل ميناء امبيلوني نشيطاً حتى عهد بطليموس السادس (١٨٠-١٤٥ق.م) حين قضى عليه الأنباط وأنشأوا مكانه ميناء ليوكي كومي[٥] Leuce Come.

استعاد السلوقيون جوف سورية Coele Syria في عهد بطليموس الخامس سنة ١٩٨ق.م[٦] فحولوا جزءاً من تجارة البحر الأحمر نحو الموانيء السورية. إلا أن العلاقات البطلمية ببلاد الأنباط وخليج العقبة ظلت حتى عهد كليوبترا ففي سنة ٣٧ ق.م تزوجت كليوبترا من انطونيوس القائد الروماني وكانت هدية زواجها أن منحها

---

(١) محمد عواد حسين، المرجع السابق، ص١٣٨.
(٢) جورد حوراني، المرجع السابق، ص٥٩.
(٣) منذر عبد الكريم، المرجع السابق، ص٣٩٣، ويرى جورج حوراني أن هٰذا الميناء أنشأه بطليموس الثاني (المرجع السابق، ص٥٨).
(٤) منذر عبد الكريم، المرجع السابق، ص٣٩٣.
(٥) محمد عواد حسين، المرجع السابق، ص١٥٣.
(٦) عبد اللطيف أحمد علي، محاضرات في العصر الهلينستي، مطبعة كريدية، بيروت ١٩٧٢، ص١١٣.

انطونيوس: إمارة خالكيس وسورية الوسطى، وكيليكيا، وتراقيا، وقبرص، ومعظم شواطيء فلسطين وفينيقيا، بالاضافة إلى الأراضي الواقعة شرقي البحر الميت مع حق احتكار قطران هٰذا البحر[١]. حتى أن كليوبترا بعد هزيمتها في معركة اكيتوم ٣١ق.م[٢]، مع زوجها انطونيوس فكرت جدياً في الهروب إلى الهند وإقامة دولة فيها، ونقلت السفن من سواحل البحر المتوسط إلى أيلة، ولكن الأنباط استولوا على هٰذه السفن وأحرقوها[٣].

ولما كانت المعلومات شحيحة عن البحر الأحمر والمحيط الهندي في العصر الهلنستي وأوائل العصر الروماني، فممّا لا شكّ فيه أن الوجود الاغريقي كان له تأثيره في عدن وبعض جزر المحيط الهندي كجزيرة سوقطرة التي كانت تضم اشتاتاً من الناس: هنود وعرب ويونان وفرس وافريقيون[٤]، بل أن رحلات منتظمة من مصر إلى الهند قام بها البطالمة عبر البحر الأحمر في سنة ١٢٠، ١١٠ق.م[٥]، وقد برز النشاط التجاري النبطي بشكل واضح في البر والبحر، فلم يعودوا هم المسيطرون على طريق البر القادم من الجنوب العربي إلى الشام، بل أن سيطرتهم امتدت إلى الطريق البري الممتد من (خاراكس) -الواقعة عند ملتقى نهر قارون بدجلة- إلى البتراء. واتخذوا من مدينة فورات Forat على دجلة والتي تبعد ١٢كم عن خاراكس مركزاً لتحميل قوافلهم بالسلع الشرقية. وقد أصلح الأنباط الطريق الصحراوي المباشر الذي يربط بلاد ما بين النهرين بالبتراء، وحفروا الآبار وشيدوا الخانات لهٰذه الغاية. ولم يقتصر النشاط التجاري النبطي على

---

(١) محمد عواد حسين، المرجع السابق، ص١٤٤.
(٢) آيدرس بل، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، بيروت، ١٩٧٢، ص٨٦.
(٣) محمد عواد حسين، المرجع السابق، ص١٥٥.
(٤) جورج حوراني، المرجع السابق، ص٦٣.
(٥) جورج حوراني. المرجع السابق، ص٦٦. منذر عبد الكريم، المرجع السابق، ص٣٩٣.

البحر الأحمر وبلاد الشام، بل كان لهم دورهم في تجارة البحر المتوسط، فالنقوش النبطية اكتشفت في روما وبتيولي Puteoli قرب نابولي، وهناك نقوش أخرى وجدت في جزيرة رودس وكوس في بحر ايجة تعود للقرن الأول الميلادي[١]. وهٰكذا أصبح الأنباط وسطاء التجارة الشرقية في منطقة الهلال الخصيب والجنوب العربي بل امتد نشاطهم إلى مصر نفسها.

أولى الرومان البحر وتجارة المشرق عناية خاصة، وأصبح مثار اهتمامهم بسبب ما تدره هٰذه التجارة من أرباح طائلة[٢]، حتى أن عدد المراكب التي كانت تبحر إلى عدن واليمن بلغ ١٢٠ مركباً سنوياً[٣] بالاضافة إلى تزايد الطلب على سلع الشرق وخصوصاً الحرير، إزاء ذلك كان لا بد من حماية هٰذه التجارة عبر البحر الأحمر من عبث العابثين. وقد حاول الرومان جعل البحر الأحمر بحيرة رومانية باحتلال عدن والجنوب العربي ولكن جهودهم باءت بالفشل وبقيت السيادة في البحر الأحمر لعرب الجنوب (سبأ وحمير) وعرب الشمال (الأنباط). ففي منتصف القرن الأول الميلادي كان ميناء عدن في جنوب البحر الأحمر (مزدحماً بأصحاب السفن والملاحيين العرب وفي شغل شاغل بشؤون التجارة، فهم يتجرون مع الساحل البعيد: أريتريا والصومال ومع بريجازا ويبعثون بسفنهم إليها)[٤]، أما ميناء ليوكي كومي في الشمال فوصف بأنه سوق للنبط ولتجارتهم. وكانت سلع الهند تشمل الحرير والقطن والأقمشة، وخشب الصندل والساج والأبنوس والجواهر والفلفل والتوابل، وسلع الصومال واكسوم كالعاج والجلود والقرفة والرقيق،

---

(١) منذر عبد الكريم. المرجع السابق، ٤٠٧.
Grant, The Syrian desert, New York, 1938, p.58.

(٢) Vasiliev, Justin the first, Cambridge, 1950, p.361. Todd, Op. Cit. p.289.
جورج حوراني، المرجع السابق، ص٧٨، منذر عبد الكريم، المرجع السابق، ص٣٩٣.

(٣) Moss, The Birth Of the Middle Ages, New York, 1977, p.3.

(٤) نص من رحلة بريبلوس (جورج حوراني ص٨٢).

أما اللبان والطيب فمن الجنوب العربي، وكانت مصر تصدر البرونز والقصدير والذهب إلى الهند والصين[١].

ومما لا شك فيه أن العصر الذهبي لايلة يبرز في عهد الامبراطور الروماني تراجان، ويبلغ مداه في العصر البيزنطي، فأخذت أيلة تتبوأ مكانها في دنيا التجارة والملاحة الرومانية والبيزنطية على حد سواء، فربطت إيلة بطريقين معبدين الأول يربطها بدمشق ماراً بالبتراء والكرك ومادبا وعمّان وجرش وبصرى Via Tragan، وآخر يربطها بغزة على البحر المتوسط[٢]. وقد أدى ازدهار أيلة التجاري إلى تلاشي ميناء ليوكي كومي، ومع ذلك كان الرابح في كل الأحوال الأنباط الذين ظلوا سادة التجارة في شمال البحر الأحمر وجنوبي سورية، فبلغت البتراء في القرن الثاني الميلادي درجة من التقدم لم تشهده من قبل.

وشطت اصلاحات تراجان خط الملاحة على الطرف الثاني للبحر الأحمر، فأصلح القناة التي تربط النيل بالبحر الأحمر عند ميناء القلزم Clysma[٣]، وأصبحت الملاحة آمنة في خليجي العقبة والسويس بسبب الأسطول الروماني الذي كان يجوب البحر الأحمر لحماية السفن التجارية خلاله[٤]. أما في البر فقد منح السلام الروماني Pax Romana لسورية الأمن والتجارة عبر طرقها المتشعبة[٥]. ونتيجة لحركة التجارة النشطة في أيلة فقد استقطبت التجار والمغامرين من المناطق المجاورة، كالتدمريين الذين اشتغلوا في ملاحة البحر الأحمر وكونوا في عهد هادريان (١١٧ – ١٣٨م) نقابة خاصة

---

(١) آيدرس بل، المرجع السابق، ص٦٨. Moss, Op. Cit. P. 3.

(٢) Vasiliev, Op. Cit. P. 363.

جورج حوراني. المرجع السابق. ٨٦.

(٣) Moss, Op. Cit. P.2.

(٤) جورج حوراني، المرجع السابق، ص٨٦.

(٥) Fedden, Syria an historical appreciation, London, 1946, P. 97.

بهم[١]، وامتد نشاط التجار والملاحين السوريين إلى أوروبا عبر البحر المتوسط، ففي القرنين الأول والثاني الميلاديين كانوا الأكثر نفوذاً في التجارة الرومانية فرادى أو جماعات، فوجدوا في معظم أنحاء أوروبا تقريباً، واستمر هذا النشاط حتى القرن الخامس الميلادي[٢]. فالعرب عرفوا منذ أقدم العصور بأنهم من أحسن التجار وأمهرهم[٣].

ومنذ القرن الثالث الميلادي بدأ اضمحلال في التجارة الرومانية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي، ويبدو أن الفرس ظهروا كمنافس لهم في المياه الدافئة، فقد اهتم ملوكهم منذ اردشير الأول (٢٢٥ - ٢٤١م) بانشاء الموانيء واقامة العلاقات التجارية مع الهند والصين والساحل الافريقي[٤]. كما أن مملكة اكسوم (في الحبشة) تأخذ في الظهور والتدخل في شؤون البحر الأحمر والحجاز واليمن وتحاول مد نفوذها إلى شؤون الحميريين الداخلية. أما الأجزاء الشمالية من البحر الأحمر فبقيت أيلة والقلزم ميناءين هامين في طرفي الخليجين[٥].

وكانت التجارة مع الهند والصين في الدولتين الرومانية والبيزنطية مسألة حيوية للدولتين، فالسياسة الخارجية في كل، كانت تعتمد بشكل كبير على أغراض التجارة الخارجية، ومنذ القرن السادس الميلادي بدأ الصراع بين الفرس وبيزنطة على طرق التجارة الدولية المؤدية إلى الهند والصين[٦]، واستطاعت فارس السيطرة على الطريقين البرية عبر أواسط آسيا والبحرية عبر الخليج العربي[٧]، ثم بدات تنافس بيزنطة في السيطرة على الطريق الثالة طريق البحر الأحمر. لذا عمدت بيزنطة إلى اقامة الدفاعات

---

(١) جورج حوراني، المرجع السابق، ص٨٧. Moss, Op. Cit. p. 2.

(٢) Grant, oP. Cit. p. 57.

(٣) Vasiliev, Op. Cit. P. 362.

(٤) جورج حوراني، المرجع السابق، ص٩١.

(٥) جورج حوراني، نفس المرجع، ص٩٥.

(٦) Haussig, Ahistory Of Byzantine Civilization, Translated by: J.M. Hussey, New York, 1971, P.62.

(٧) Ibid, P. 105.

الحدودية ضماناً لطرقها التجارية البرية وحمايتها من الأخطار الفارسية وهجمات الأعراب في جنوب سورية. وأقوى هٰذه الخطوط الدفاعية الذي يبدأ من ايلة على البحر الأحمر منتهياً إلى الفرات قرب قرقيسيا وخلف دجلة، فعلى هٰذا الخط بنوا أبراج المراقبة المزودة بالقوات العسكرية، وساعد هذا الاجراء على سرعة تحرك القوات إلى الجهات الخطرة في أقرب وقت وأسهل وسيلة(١). ولما كان من سياسة الدولة البيزنطية إبقاء بوابة التجارة الشرقية مفتوحة، فلا بد من الاصطدام العسكري بين العملاقين، وامتد هٰذا الصراع إلى الجنوب العربي وساحل افريقية (اكسوم). فتأثرت تجارة البحر الأحمر وتعدى ذلك إلى الطرق البرية(٢)، هٰذه العوامل مجتمعة أدت إلى اضمحلال الاقتصاد البيزنطي(٣).

وفي عهد جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧م) تمثل الوجود التجاري البيزنطي في البحر الأحمر والمحيط الهندي بعدد من السفن التجارية وزعت على الشكل التالي:

١٥ مركباً في أيلة.

٢٠ مركباً في القلزم.

٧ مراكب في جوتابا (تيران).

٧ مراكب في جزيرة فرسان.

٢ مركبان في بيرونيك في البحر الأحمر.

٩ مراكب في الهند(٤).

(١) Vasiliev, OP. Cit. P.362.

(٢) Ibid, P. 360, 362.

(٣) Ibid, P. 361.

(٤) Ibid, P.367.

وفي الربع الأول من القرن السادس الميلادي زار أحد التجار الرومان المحيط الهندي والحبشة والخليج العربي ووصل إلى سيلان، فقابل هناك خليطاً من التجار الرومان والفرس والأحباش وعرب الجنوب، إلا أن الوجود الفارسي في سيلان كان واضحاً ولهم اسطول كبير فيها[١].

وهناك حقيقة تؤكد أن تجارة جستين الأول مع الشرق كانت تجارة استيراد، فالميزان التجاري لم يكن إلى صالح الامبراطورية البيزنطية، وأدى ذلك إلى نزيف مستمر للذهب إلى بلاد الشرق، وكان له تأثيره الكبير في الاقتصاد البيزنطي[٢].

وفي سنة ٥٧٠م رأى الحاج انطونيوس سفينة تصل إلى أيلة قادمة من الهند محملة بصنوف السلع المختلفة[٣]. ولكي يحكم البيزنطيون سيطرتهم على التجارة القادمة من الهند باتجاه القلزم وأيلة أقاموا ديواناً للمكوس في جزيرة جوتابا (تيران) عند مدخل الخليجن[٤].

ومع كل الاجراءات التي قام بها جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) للمحافظة على طريق البحر الأحمر التجاري والحيلولة دون تدخل الفرس بتحالفه مع دولة الأحباش ومهاجمتهم للجنوب العربي وتوجيه تجارة عدن إلى ثغري أيلة والقلزم، فلا الأحباش ولا بيزنطة تمكنتا من وقف المد الفارسي في المحيط الهندي والجنوب العربي، لذا كانت فرصة طيبة للبيزنطيين عندما تمكنوا من تهريب ديدان القز من الصين وتربيته، وإقامة صناعة للحرير في بيروت وصور وانطاكية وبعض المدن اليونانية وفي مصر والقسطنطينية[٥]. ونتيجة للظروف السياسية والحربية التي عانى منها عرب الجنوب

---

(١) Ibid, P. 371.

(٢) Vasiliev. Op. Cit. P. 371.

(٣) Ibid, P. 365.

(٤) Ibid, P. 365.

(٥) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, New Brunswich, U.S.A. 1969, P. 75.

بالتدخل الحبشي والفارسي في بلادهم وسيطرتهم عليها، فقد اضمحلت تجارتهم وضعف اقتصادهم فلم يعد لهم تأثير ملحوظ في تجارة الشرق الأقصى والساحل الافريقي. وتظهر في هٰذه الفترة قوة قريش في وسط الجزيرة العربية لتلعب دوراً له أهميته في حركة التجارة الدولية البرية القادمة من الجنوب العربي والهند إلى بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط. وقد تمكن القرشيون من عقد اتفاقيات ومعاهدات تجارية مع القوى المحيطة بهم: البيزنطيون في بلاد الشام، واليمن في الجنوب العربي، والحبشة على الساحل الشرقي لافريقية، والفرس في شمال وشرق الجزيرة العربية. ولم يكتف القرشيون بذلك بل عقدوا الاحلاف التجارية مع القبائل العربية الحجازية التي تقطن على طول طرق القوافل التجارية. وبذلك ضمنت قريش أسواقاً لتجارتها، وأماناً لقوافلها عبر دروب الجزيرة العربية، فاتسعت معايشهم وكثرت أموالهم، فكانت قوافلهم تتجه صيفاً إلى الشام، وشتاء إلى اليمن(١).

في العصر الإسلامي:

بقيت أيلة على طريق المواصلات بين الشام ومصر والجزيرة العربية، وقد عرف الرسول ﷺ أهمية هٰذا الموقع، ففي الرسالة التي وجها إلى اسقف ايلة يوحنة بن رؤبة وأهلها سنة ٩هـ/ ٦٣٠م، أشار إلى علاقاتها التجارية البحرية مع الجنوب العربي والساحل الافريقي والهند والصين بدليل أن الأمان الذي منحه الرسول ﷺ لايلة وأهلها نص صراحة على اعطاء الأمان (لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر)(٢). واشترط عليهم تقديم الضيافة لمن يمر بهم من المسلمين لوقوعها على طريق الشام والحجاز(٣).

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة (٤/ ٢٦٤).

(٢) ابن سعد، طبقات ابن سعد، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص٢٧٨.

محمد حميد الله الحيدري. مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤١م، ص٣٢، ٣٤.

(٣) البلاذري. فتوح البلدان. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٧٨، ص٧١.

وفي الفتوحات العربية الإسلامية كانت أيلة الطريق الذي سلكه جيش عمرو بن العاص إلى فلسطين[١]، وكانت أول وقائع المسلمين مع الروم وقعة العربة فهزموهم وقتلوا أحد قوادهم[٢]، وقدم الأنباط من أيلة وجنوب الأردن المساعدات لجيوش المسلمين[٣] (وكانوا مع المسلمين يكونون عيوناً لهم وفيوجاً، وكان المسلمون يرضخون لهم ويعطونهم)[٤]، واستخدمهم أبو عبيدة وخالد بن الوليد في نقل البريد إلى المدينة وقواد المسلمين في الشام[٥]. وقد لعبت أيلة دوراً له أهميته في حركة الفتوحات الإسلامية في الشام، كحلقة وصل وربط بين الشام والحجاز ومصر، ففي سنة ١٨هـ (٦٣٩م) قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام ليرى ما حل بالمسلمين بعد طاعون عمواس ونزل بايلة في ضيافة اسقفها[٦].

أما أهمية أيلة الاقتصادية فتتمثل بمبلغ الثلاثمائة دينار الذي صالحوا الرسول ﷺ عليه سنوياً[٧]، مما يدلل على ثراء أهلها وازدهار تجارتهم البحرية والبرية. ومن المعروف أن العلاقات التجارية الشامية الحجازية قديمة جداً، فقريش العدنانية كانت تحتكر الطريق التجاري البري بين الشام والجنوب العربي، أما عرب جنوب الشام فكانوا يقومون بنقل السلع الشامية إلى المدينة المنورة والحجاز كالبر والشعير والزيت والتين والقماش وغيرها من المصنوعات[٨]. هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن التجارة والملاحة في البحر الأحمر

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت (ب، ت)، ص١٥.
البلاذري، المصدر السابق، ص١١٦.
(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص١١٧.
(٣) الواقدي، المصدر السابق، ص٢٠، ٢٣.
(٤) الازدي، فتوح الشام، صححه وليم ناسوليس، الهند، ١٨٥٤م، ص٧٥.
(٥) الأزدي، نفس المصدر، ص٧٥، ١١٠.
(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، ١٩٦٤م، (٤/ ٦٤).
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، (١/ ٥٦١).
(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص٧١.
(٨) الواقدي. فتوح الشام، ص١١.

لم تتأثر بظهور الإسلام، بل على العكس فقد ازدهرت الحياة الاقتصادية على جانبي البحر الأحمر، بل أن البحر الأحمر نفسه أصبح بحيرة اسلامية بعد أن استولى العرب المسلمون على اليمن والشام ومصر. ففي عام الرمادة ١٨هـ (٦٣٩م) الذي أصاب الحجاز أرسل أبو عبيدة ٤٠٠٠ راحلة تحمل الطعام من الشام[١]، أما عمرو بن العاص فقد أصلح قناة تراجان القديمة التي تربط النيل بالقلزم وسماها قناة أمير المؤمنين، وأرسل المراكب عبر البحر الأحمر محملة بالحبوب إلى المدينة ومكة[٢]، وهٰكذا ربطت مصر بالحجاز بخط ملاحي عبر القلزم والبحر الأحمر.

وقد أدرك العرب المسلمون منذ الوهلة الأولى أهمية البحر الأحمر استراتيجياً واقتصادياً، فعندما عارض عمر بن الخطاب حفر قناة تراجان القديمة التي تربط النيل بالبحر الأحمر، كان الهدف منه منع أي وجود أجنبي في البحر الأحمر وموانئه الجنوبية، خصوصاً وأن العرب كانوا على علم بالصراع الذي نشب بين بيزنطة وفارس للسيطرة على تجارة البحر الأحمر ومداخله الجنوبية، وكان للحبشة دورها في هٰذا الصراع، فخشية عمر بن الخطاب كانت في محلها خصوصاً وأن الأخطار ما زالت محدقة بدولة المسلمين الفتية من فارس وبيزنطة.

وبقي الاهتمام بالبحر الأحمر وتجارته وموانئه الشمالية والجنوبية حيوياً للدولة الأموية التي ارتبطت مع أوروبا بعلاقات تجارية وشيجة، فالحاج الانكليزي Arculf زار الاسكندرية في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٠هـ/ (٦٧٠م) فذكر بأنها مركز واسع

---

(١) ابن الأثير، الكامل (٢/ ٥٥٦).

(٢) الطبري، المصدر السابق (٤/ ١٠٠).
ابن الأثير، الكامل (٢/ ٥٥٦).
أحمد مختار العبادي، البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، بحث في كتاب تاريخ البحرية المصرية جامعة الاسكندرية، ١٩٧٣م، ص٥٦٧.

للتجارة العالمية[١]. أما في البحر الأحمر فكانت السفن تأتي محملة بسلع الشرق وتفرغها في أيلة والقلزم لتنقل إلى سواحل البحر المتوسط[٢]. كما ربطت أيلة بالقلزم بخط ملاحي عبر البحر الأحمر فكانت السفن تاتي من مصر إلى أيلة محملة بالسلع والحبوب ومن هناك تنقلها القوافل براً إلى دمشق[٣].

وسيطر العباسيون فيما بعد على طرق التجارة الدولية الثلاثة: البرية عبر آسيا والبحرية عبر الخليج العربي والثالثة عبر البحر الأحمر، وأصبحوا هم سادة التجارة الدولية منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)[٤]. فيتبوأ طريق الخليج العربي وأواسط آسيا مركز الصدارة، ولكن طريق البحر الأحمر والموانيء الجنوبية للجزيرة العربية تعود للظهور ويصبح لها أهميتها التجارية في العصر الفاطمي. فقد زار المقدسي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلاد اليمن وتحدث عن عدن قائلاً: (بلد جليل عامر آهل حصين، دهليز الصين وفرضة اليمن، وخزانة المغرب ومعدن التجارات، كثير القصور، مبارك على من دخله، مثير لمن سكنه، مساجده حسان، ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة)[٥]. ثم يحدثنا المقدسي عن الأهمية التجارية لليمن بشكل عام وعدن بشكل خاص، فيذكر أن بحرها يتصل ببحر الصين الذي تصل بواسطته سلع المشرق فتفرغ المراكب تلك السلع في عدن ومن ثم تنقل إلى الحجاز ومصر والشام براً وبحراً. وقد مكث المقدسي في اليمن عاماً كاملاً ونقل الينا قائمة بالسلع المشهورة في اليمن فقال: اليمن معدن العصائب والعقيق، والأدم والبرود، والشروب والرقيق، والمسك، والزعفران، والبقّم، والساج، والساسم والعاج واللؤلؤ

---

(١) Thompson, A Economic and Social. History of the Middle Ages, P. 196.

(٢) Ibid, P. 197.

(٣) ابن سعد، الطبقات (١٠٨/١).

(٤) Thompson Op. Cit. P. 338.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ليون، ١٩٠٤م، ط٢، ص٨٥.

والديباج والجزع واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والقند، والاسكندروس، والصبر والحديد والرصاص والخيزران، والليف والغضار، والصندل، والبلّور، والفلفل والنيل، والعنبر، والورس والشروب والورق والأنطاع، وجلود النمور[١]. وكانت تجارة المشرق تدر أرباحاً طائلة على التجار وبتجارات الصين تضرب الأمثال[٢]. وبقي ميناء أيلة على خليج العقبة في العصر الفاطمي من الموانيء الهامة في حركة التجارة الدولية القادمة من الشرق الافريقي والمحيط الهندي في طريقها إلى الاسكندرية عبر الفسطاط[٣]. أما في وسط الحجاز فقد ازدهر منذ أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ميناء جدة فرضة مكة على البحر الأحمر. فكانت السفن القادمة من عدن ترسو فيه لتفرغ حمولتها، ومن ثم تنقل بواسطة سفن البحر الأحمر إلى القلزم وايلة لأن تلك السفن لا تستطيع الاستمرار نحو الشمال بسبب صعوبة الملاحة في البحر الأحمر[٤]. وكانت الدولة الفاطمية تجبي الضرائب والمكوس بجدة على السلع القادمة إليها من مصر والهند والصين على الشكل التالي:

حمل الحنطة	نصف دينار	حمل الصوف	ديناران
سفط ثياب الشطوي	٣ دنانير	سلة الزعفران	دينار
سفط ثياب الدبيقي	ديناران	رأس الرقيق	دينار[٥]

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٧، ٩٨.

(٢) المقدسي، المرجع السابق، ص٩٧.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٨.

عبد العزيز سالم، البحرية المصرية في العصر الفاطمي، بحث في كتاب تاريخ البحرية المصرية، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٣م ص٥١٠، ٥١١.

Heyd, Histoire du Commerce, du Levant au moyen Age, Lipzig, 1886, Vol.1, P.9.

(٤) جورج حوراني، المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٥) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٠٤.

إلا أن أيلة وتجارة البحر الأحمر تعرضت إلى تدخل أجنبي منذ أوائل القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي) باستيلاء مملكة بيت المقدس اللاتينية على أيلة وتحويل جزء من تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي إلى القدس(١). ولم يكتفوا بذلك بل أن اسطولهم الحربي كان مثار تهديد لا للتجارة الجنوبية فحسب بل للأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة. ولكن سرعان ما عادت السيادة العربية الإسلامية إلى أيلة على يد صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م)، فانهى الوجود الصليبي في خليج العقبة. ولم يكتف صلاح الدين بذلك، بل سارع إلى ضم بلاد اليمن فأصبح يسيطر على مداخل البحر الأحمر الجنوبية وأطرافه الشمالية في ايلة والقلزم، وسخر كل تجارة الهند والصين عبر البحر الأحمر لخدمة رحلة نضاله ضد الفرنج(٢).

فانتعشت الحركة التجارية في عدن وزاد عمرانها، وقصدها الناس من شتى الأقطار للسكن والإقامة والتجارة، فصاروا أصحاب خير ونعم(٣). وقد عمل الأيوبيون على حماية التجارة العدنية، فأرسلوا قطعاً من أسطولهم عرض البحر لاستقبال المراكب القادمة من المحيط الهندي وحراستها حتى تدخل الميناء وذلك خوفاً من غارات القراصنة(٤). وبلغ عدد المراكب المحملة بمتاجر الهند والصين التي تصل ثغر عدن في العصر الأيوبي بين ٧٠-٨٠ مركباً، وبلغ مقدار العشور المتحصل منها ٨٠،٠٠٠ دينار(٥).

---

(١) Rey, Les Colonies Franques de Syrie, Aux X11 Et X111 Siecles, Paris, 1883, PP.202-203.

(٢) يوسف غوانمة، امارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، الأردن ط٢، ١٩٨٢، ص١٢٣-١٣٦.

(٣) محمد عبد العال، بنو رسول في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨٠، ص٣٨٥.

(٤) محمد عبد العال، المرجع السابق، ص٣٨٧.

(٥) محمد عبد العال، المرجع السابق، ص٣٨٩.

ولكن الأهمية الاقتصادية والتجارية للبحر الأحمر وموانئه الجنوبية والشمالية تظهر واضحة في العصر المملوكي، فقد شجع المماليك التجارة والسياحة واصدروا المراسيم التي تشجع على زيارة بلادهم. ومما جاء في ذلك المرسوم الذي أصدره قلاوون ووزعه على جميع البلدان (فمن وقف على مرسومنا هٰذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهٰذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور، وفي سلامة من النفس والمال...)[١]. وأقام المماليك الطرق وأنشأوا الخانات (الفنادق) على طول طرق الاتصالات والمواصلات في مصر والشام خدمة لحركة التجارة الداخلية والدولية. فأقاموا ديواناً للمكوس في العقبة لتمكيس السلع القادمة بحراً[٢]، حتى أن خراج أيلة ووجوه الجبايات فيها بلغ ثلاثة آلاف دينار سنوياً[٣]. أما السلع القادمة بطريق القوافل من الجنوب العربي فكانت تمكس في (بويب العقبة) جنوبي أيلة[٤]. أما القوافل القادمة من الجنوب العربي إلى دمشق فتمكس في جسر الحسا قرب الكرك وكان متحصله ١٠ آلاف مثقال من الذهب سنوياً[٥]، وقد أقام المماليك الدرك على الطرق حفاظاً على أمنها وسلامة المتنقلين عليها.

واعتبرت مدينة عدن في العصر المملوكي ميناء بلاد اليمن الرئيسي على ساحل

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى (١٣/ ٣٤٠-٣٤٢).

(٢) يقول ابن إياس (وكانت بها قصر يسكن فيه قباض المكوس بسبب مراكب التجار التي ترد هناك من الهند واليمن والصين، وغير ذلك من البلاد) (نشق الازهار لوحة ٨٧ (مخطوط).

(٣) نعوم شقير، سيناء والعرب، القاهرة، ١٩١٦م، ص١٩٧.

(٤) المقريزي، السلوك (٤/ ٢٥٦). ابن شاهين، زيدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٩٨٤م، ص١٠٨.

(٥) ابن شاهين، المصدر السابق، ص١٣٢.

يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، الأردن، ط٢، ١٩٨٢م، ص٨٩.

المحيط الهندي، وقد شاهد ابن بطوطة الحركة التجارية الواسعة في عدن فقال: «إنها مرسى أهل الهند، تأتي إليها المراكب العظيمة من: سندابور وهنّور، وفاكنور، ومنجرور، وفندرينا، وقالقوط، والشاليات، وقولم، وغيرها من المدن الواقعة على الساحل الهندي، بالاضافة إلى مراكب الصين، وسيلان، وجزر الشرق الأقصى». وكان يسكن في عدن التجار من مختلف البلدان من الهند والصين ومصر وبلاد الشام[١]. وقد اشتغل أهل عدن بتجارة الهند والصين والساحل الافريقي، وتجمعت لديهم الأموال الطائلة «وربما كان لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره، لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة»[٢]. أما أهل عدن فقد وصفهم ابن بطوطة بأنهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق، يحسنون إلى الغريب، ويؤثرون على الفقير، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب[٣].

واعتبرت عدن في العصر المملوكي من أكبر محطات تبادل السلع بين الشرق والغرب، وظلت لفترة طويلة لا يتعداها تجار الهند والصين، فكانت السلع تنقل منها إلى جدة على متن مراكب مماليكة ومنها إلى موانيء أيلة والقلزم والطور. وزخرت أسواقها بالسلع الافريقية القادمة من الحبشة والشرق الافريقي، وكانت أسواقها تعقد ليلاً لشدة الحرارة فيها. أما تجار عدن فكانوا من أنشط التجار وانتشروا في البلدان والأقطار طلباً للتجارة والكسب، فكانوا يسافرون إلى الشام ومصر والحبشة والهند ومدن وموانيء الخليج العربي. وكان يتوافر في أسواق عدن سلع من بلدان مختلفة منها: الحديد والنحاس والزئبق والمرجان، والملابس الصوفية والقطنية والحريرية، والعقاقير، والعطور، والتوابل، والسكر، والأرز، والحنطة، والدقيق، والصابون، وزيت الحار،

(١) ابن بطوطة، تحفة الانظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، دار صعب، ط٢، ١٩٧٩م، (١/٢٧٦).

(٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، (١/٢٧٦).

(٣) ابن بطوطة، المصدر السابق، (١/٢٧٧).

وزيت الزيتون، وعسل النحل، وجوز الهند، واللبان، والجاوى، وخشب السند، وعود الند، والراوند والمسك[١].

أما تجار الكارمية فكان لهم مركز ممتاز في عدن فلهم مؤسساتهم ومصارفهم المالية والتجارية[٢]. وكان حكام عدن يفرضون الضرائب العالية على المراكب القادمة من الهند والصين، وأحياناً يستخدمون القسوة مع هٰؤلاء التجار. وقد ساعد هٰذا التصرف إلى نجاح السياسة المملوكية التي كانت تهدف إلى تحجيم ميناء عدن واحلال ميناء جدة مكانه، وذلك بعدما ساءت العلاقات السياسية بين المماليك وسلاطين بني رسول في اليمن، ومحاولات المماليك فتح اليمن وانتزاعها من بني رسول الذين أساؤوا إلى التجار المصريين[٣]، بالاضافة إلى اضطراب الأحوال الداخلية في اليمن والتنازع على السلطة، وسياسة التعسف التي اتبعها سلاطين اليمن مع التجار، منذ بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، فالسلطان الناصر أحمد الرسولي أساء إلى التجار وأرغمهم على الفرار من عدن إلى جدة والهند ومليبار تخلصاً من المظالم التي كانوا يتعرضون إليها[٤].

إزاء ذلك قام المماليك بتحذير المراكب التجارية من الرسو في ميناء عدن، وحرصوا

---

(١) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص١٣٧، ٣٥٥.

(٢) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص١٣٧.

الكارم والكارمية. اسم أطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على بلاد الهند والصين، والساحل الشرقي لافريقية، وبدأ نشاط هٰؤلاء التجار منذ العصر الفاطمي، ولكنهم بلغوا أوج قوتهم ونفوذهم في العصر الأيوبي والمملوكي، وشكلوا أكبر قوة مالية آنذاك. وقد عمل المماليك على الاطاحة بهٰذه القوة التجارية والتقليل من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي، ومنعوهم من التمتع بالنفوذ السياسي، فلم يرغبوا بوجود قوة أخرى تناهض قوتهم. (جوايتن، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ص٢٧٩).

(٣) محمد عبد العال، المرجع السابق، ص٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٨.

(٤) محمد عبد العال، المرجع السابق، ص٤٥٤.

على تجار مصر والشام دخول الميناء، واتبعوا ذلك بتخفيض الضرائب في موانيء جدة وينبع وفرضوا رسوماً عالية على المراكب التي يثبت أنها ترسو أو تمر بعدن. وقد ساعدت هٰذه السياسة التي اتبعها المماليك منذ عهد السلطان برسباي على تحول مراكب الهند والصين من عدن إلى ميناء جدة مباشرة، فازدهرت جدة، وأصبحت بندراً عظيماً، واستمر ذلك حتى أواخر العصر المملوكي[١]. وكانت السلع المشرقية والافريقية تنقل من جدة بمراكب صغيرة تلائم الملاحة في البحر الأحمر المليء بالشعاب المرجانية إلى موانيء: الطور وأيلة، وجعلت الدولة المملوكية ميناء أيلة (العقبة) لمرور السلع المتجهة إلى الشام، أما الطور فقد خصص للسلع المتجهة إلى مصر[٢].

وفي دولة المماليك الجراكسة ازدهرت حلب في شمال الشام كأهم مركز لتجارة الشرق، ففي أواسط القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بلغ عدد الجمال التي تصل إلى حلب ١٥ ألف جمل، ولكن أهميتها بدأت تضعف في نهاية القرن نفسه، بسبب اغلاق الطرق البرية عبر آسيا الصغرى نتيجة لحروب العثمانيين مع جيرانهم، ولم يبق لحلب سوى مصدر واحد ألا وهو طريق البحر الأحمر، فقد كانت السفن تفرغ شحناتها في أيلة ومنها تنقلها القوافل براً إلى حلب وكانت حلب تصدر متاجرها عن طريق ميناء طرابلس على البحر المتوسط الذي أصبح الميناء الثاني بعد بيروت لتجارة الشام الداخلية والخارجية[٣]. لذا اهتم المماليك بميناء أيلة وبنوا فيه رصيفاً جديداً خدمة لحركة السفن التجارية وقد جدد هٰذا الرصيف وغيره من المنشآت في أيلة السلطان قانصوه الغوري سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨)، وعهد إلى عدد من المهندسين والبنائين على رأسهم المهندس خاير بك المعمار لاتمام هٰذه المهمات[٤].

---

(١) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص١٣٨.
محمد عبد العال، المرجع السابق، ص٤٥٦.
(٢) نعيم زكي فهي. المرجع السابق، ص١٤١.
(٣) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص١٥٠، ١٥١.
(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ط الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٧٦٧.

وخدمت أيلة منذ فجر الإسلام حركة الحجاج القادمين من الاندلس والشمال الافريقي وأواسط افريقا وجنوب بلاد الشام، فكانت قوافلهم تقيم في أيلة ثلاثة أو أربعة أيام، فتقام لهم سوق عظيمة يقصدها الناس من معظم أنحاء الشام للتجارة والكسب. وقد وصف ابن فضل الله العمري هٰذه السوق بأنه لا يوجد مثلها في أمهات المدن[١]، ويخزنون فيها بعض الزاد والعلف للعودة[٢]. وخدمت هٰذه القوافل حركة التجارة الحجازية فأبو المحاسن يذكر أن عدد الجمال التي تتجمع في مدينة جدة فرضة مكة المكرمة على البحر الأحمر ٨٠ ألف جمل، فتحمل هٰذه القوافل في عودتها السلع الشرقية بعد أن تفرغ ما لديها من سلع هناك[٣]. وأصبح ميناء جدة هو الميناء الرئيسي لسلع الشرق، فبنوا حولها سوراً وزودوه بالأبراج الحصينة والمدافع[٤]، وكانت الدولة تفرض ضريبة العشر على تجار الهند القادمين إلى جدة. وفي أواخر دولة المماليك الجراكسة ارتفعت ضريبة العشر إلى عشرة أمثالها (فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل امره إلى الخراب)[٥]. فاضطرت الدولة إلى فرض المكوس والضرائب الكثيرة، واحتكرت بعض السلع لأنها كانت تعاني من أزمة اقتصادية خانقة في مواردها المالية بسبب ظروفها الداخلية، وحروبها مع العثمانيين، وتعرض طرقها التجارية لتدخل الدول الأوروبية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وقد أدى ذلك إلى تراجع التجارة المشرقية عبر عدن والبحر الأحمر وموانئه.

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ق١ لوحة ١٦٨ (مخطوط)، يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص٨٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٨٥.

(٣) أبو المحاسن، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق وليم بوير، كاليفورنيا، ١٩٣١م (٣٢٧/١).

(٤) ابن إياس. بدائع الزهور، ط الشعب. ص١٠٤٤.

(٥) ابن إياس. بدائع الزهور، ط الشعب. ص١٠٤٤.



الموضوع التاسع

الدور العثماني في أبعاد الخطر الأوروبي (البرتغالي) عن البحر الأحمر في القرن السادس عشر الميلادي

الدور العثماني في أبعاد الخطر الأوروبي (البرتغالي) عن البحر الأحمر في القرن السادس عشر الميلادي

مقدمة :

كان البحر الأحمر الشريان الذي ربطت من خلاله قارات العالم القديم بأقصر وأهم خط ملاحي وتجاري. ومن هنا جاءت المحاولات المتكررة للسيطرة عليه واخضاعه، وكان للفراعنة والإغريق والبطالمة والسلوقيين ثم الرومان والبيزنطيين والفرس دورهم العسكري والتجاري والملاحي، ولكن محاولاتهم لم تسفر عن شيء، وبقي البحر الأحمر بمداخله الجنوبية ومنافذه الشمالية بحراً عربي الهوية والطابع. ولما جاء الإسلام حافظت الدولة العربية الإسلامية على ابقاء البحر الأحمر بحراً إسلامياً بعيداً عن الصراعات والنزاعات الدولية، وظل يخدم حركة التجارة والمواصلات الدولية قروناً عديدة متعاقبة، وبرزت أهمية موانئه في أيلة والسويس كميناءين هامين مؤثرين في حركة التجارة الدولية. ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد فقد وضع العرب المسلمون استراتيجية هامة وهو أبعاد البحر الأحمر عن أي تدخل أجنبي كي تبقى المقدسات الإسلامية في الحجاز في منأى عن الصراعات والنزاعات والخلافات الدولية. ومع هٰذا الإصرار فإن القوى الأجنبية حاولت أكثر من مرة كسر هٰذه الاستراتيجية، فحاولت بيزنطة وفارس في القرون الأولى، بسط هيمنتها عليه ولكنها فشلت، ثم عادت الدول الأوروبية ممثلة بمملكة بيت المقدس اللاتينية، السيطرة على البحر الأحمر وأيلة، وتحويل جزء من تجارته إلى موانئهم في الساحل الفلسطيني باحتلال أيلة، وبناء أسطول حربي في البحر الأحمر، والتدخل في تجارته وملاحته، ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد بل حاولوا مهاجمة المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة، ولكن صلاح الدين الأيوبي فوت عليهم هٰذه الفرصة، فأنهى وجودهم وحرر أيلة من سيطرتهم وأعاد للبحر الأحمر سمته العربية الإسلامية وأبقاه بحراً إسلامياً خالصاً.

ولكن أوروبا التي فشلت في الاستحواذ على البحر الأحمر وموانئه في العصور الوسطى، أعادت الكرة في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وأرسلوا الكشوف الجغرافية للشرق الأقصى، ووصلوا إلى الهند وأرسلوا أساطيلهم إلى البحر الأحمر وسواحل الحجاز، ولكن الدولتين المملوكية والعثمانية لم تمكنهم من ذلك.

أ- الجهود المملوكية العثمانية في أبعاد الخطر البرتغالي عن البحر الأحمر:

بدأ نشاط الاكتشافات الجغرافية الأوروبية منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، وتركزت باديء ذي بدء على اكتشاف طريق جديد للوصول إلى الهند، وكانت البرتغال سباقة في هٰذا المجال، فوجهت الحملات لاكتشاف الساحل الغربي لأفريقية، وبدأها الأمير هنري الملاح Henery The Navigator سنة ١٤١٨م، إلى أن تمكن الملاح بارثلميو دياز Bartholomew Dias من الوصول إلى أقصى الطرف الجنوبي للقارة الافريقية سنة ١٤٨٦م واكتشاف رأس الرجاء الصالح. وكان ذلك تمهيداً لرحلة فاسكو دي جاما Vasco de Gama الذي أكمل عملية الالتفاف حول أفريقية والوصول إلى ميناء (قاليقوط) الهندي سنة ١٤٩٨[١].

وهناك دوافع عديدة جعلت البرتغاليين يدقون أبواب الشرق ويصلون إلى مياه المحيط الهندي، في مقدمتها التنافس التجاري والاقتصادي الأوروبي ووضع حد لاحتكار الدولة المملوكية للتجارة الشرقية، وتحكمهم في فرض أسعارها التي كانت في ازدياد[٢]. فهي تتذبذب حسب حاجة السلطان للأموال، نتيجة طبيعية للظروف القاسية التي كانت تعانيها الدولة المملوكية داخلية وخارجية، آخذين بعين الاعتبار ما للأسباب الدينية من دوافع هامة في الوصول إلى الهند والسواحل الإفريقية، ووضع حد للنفوذ الإسلامي في تلك الأصقاع.

---

(١) محمد عبد العال، البحرا لأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه (نصوص تاريخية من كتاب با مخرمة). الاسكندرية ١٩٨٠م، ص٦٧.

Kammerer, Le Mer Rouge, Le Caire, 1929 - 1933, Vol. 11,P. 9.

(٢) ابن حجر، أنباء الغمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩م، (٤٧/٣).

ومن الملاحظ أن الوجود البرتغالي في المحيط الهندي وسواحل الهند بدأ في عهد السلطان الأشرف قايتباي، ولكن المواجهة المملوكية للقوى الأوروبية تأخرت حتى عهد السلطان الأشرف قانصوه الغوري. وباعتقادي أن سبب هٰذا التأخير أن الدولة المملوكية كانت آنذاك في شغل شاغل بسبب حروبها الطاحنة ضد العثمانيين، والقوى الصليبية الأخرى في البحر المتوسط(١). بالاضافة إلى ظروفها الداخلية الحرجة وتعرض البلاد المصرية والشامية إلى الطواعين والأوبئة والجفاف(٢)، مما أدى إلى هلاك أعداد كبيرة من الجيش المملوكي(٣)، وتراجع كبير في قوتها الاقتصادية وثرواتها المالية فانعكس ذلك على قواها العسكرية والدفاعية، فلم تجد الدولة الأموال الكافية لبناء الأساطيل البحرية، واعداد الجيوش لارسالها إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي. فجملة ما صرفته الدولة المملوكية على حروب العثمانيين ٧,٦٥٠,٠٠٠ دينار وهٰذا مبلغ كبير أنهك الدولة وأثار تعجب المؤرخ ابن إياس(٤).

ثم أن السلطان قانصوه الغوري قام باجراءات عديدة لوقف التوسع البرتغالي في المحيط الهندي والبحر الأحمر، فبدأ الاستعدادات لبناء الأساطيل وتزويدها بالأسلحة الحديثة وأرسالها إلى اليمن والمحيط الهندي رغم الضائقة المالية التي ورثها، والفتنة التي أثارها الأجناد الجلبان. مما اضطره إلى جمع الأموال عن طريق المصادرات وأخذه أجرة سبعة أشهر معجلاً من أصحاب الأملاك كل ذلك للإنفاق على العساكر(٥). ويذكر ابن إياس أن هٰذا التصرف أدى إلى قيام فتنة كبيرة في القاهرة ودمشق كادت أن تؤدي إلى

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط الشعب، ص٥٤٧، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٥٨، ٥٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٦٩، ٦٣٢، ٦٣٣، ٨٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٧٦-٨٧٧ وانظر للباحث، الطاعون والجفاف، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ١٣، ١٤، عام ١٩٨٣، ص٧٤ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٩٣.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٩٢.

خرابها[١]. ثم أن السلطان اضطر إلى ضرب الفلوس الجدد فتعطلت الأسواق من البيع والشراء بسبب تلك الفلوس التي كانت تخسر الثلث في المعاملة[٢]. ورغم كل الظروف والمعوقات فقد تمكن السلطان قانصوه الغوري من السيطرة على الأمور الداخلية، وثبت قواعد ملكه، ونظم جيشه وعين فيه الأمراء بجميع الرتب، وعين النواب في النيابات[٣]. وأخذ يستعد لمواجهة الأخطار الخارجية التي تهدد دولته والمتمثلة بالخطر العثماني والصفوي، والخطر الفرنجي في البحر الأحمر والمحيط الهندي.

ففي سنة ٩١١هـ (١٥٠٥ - ١٥٠٦) عين السلطان قانصوه الغوري أول تجريدة إلى الهند (بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند)[٤]. وهٰذا يعني أن المماليك تأخروا مدة سبع سنوات بعد صول البرتغاليين إلى الهند وتسعة عشر عاماً بعد وصولهم إلى رأس الرجاء الصالح. ومما أنفقه السلطان على هٰذه الحملة أن خصص لكل مملوك عشرين ديناراً وصرف لهم جامكية (راتب) أربعة شهور معجلاً، فكانت جملة ما صرف لهم نحواً من خمسين ديناراً لكل شخص. ويقول ابن اياس أن عسكر هٰذه الحملة كان ملفقاً ما بين أولاد ناس، وبعض المماليك السلطانية، والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة، وتراكمة وغير ذلك[٥]. وتحركت هٰذه الحملة من السويس في نفس العام ومعهم النجارين والفعلة لبناء الأبراج في جدة التي ستكون مركزاً للأسطول المملوكي، وعين لقيادة هٰذه الحملة القائدان: حسين المشرف، والخواجا نور الدين علي المسلاتي[٦]. أضف إلى ذلك فإن

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٩٣، ٦٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٩٥، ٧٠١.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤.

(٤) ابن إياس، المصدر السابق، ص٧٣٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٧٣٦.

وهٰذا النص يؤكد ضعف الجيش المملوكي الذي فتكت فيه الطواعين فاضطرت الدولة إلى تجنيد هٰذه الفئات غير المتجانسة.

(٦) المصدر نفسه، ٧٣٦.

انصوه الغوري قام ببناء الأبراج والقلاع في سيناء والعقبة وندب المهندس خاير بيك لمعمار لبناء أبراج العقبة وإصلاح عقبتها[١]، وعين في العقبة جماعة من المماليك قيمون فيها سنة ثم يعودون إلى مصر ويتوجه آخرون غيرهم، وذلك حماية للفوهة لشمالية للبحر الأحمر من عبث البرتغاليين. وزيادة في الحيطة، أنشأ قانصوة أبراجاً أخرى ي عجرود، ونخل، والالزم على الطريق بين العقبة والقاهرة وشحنها بالعساكر والمعدات[٢].

إن السبب الذي جعل قانصوه الغوري يسرع في إرسال حملته هٰذه، وبناء الأبراج في شمال البحر الأحمر ووسطه، الوجود البرتغالي في البحر الأحمر فالنصوص التاريخية لمتوفرة تظهر أن الوجود الفرنجي (البرتغالي) في البحر الأحمر كان قبل سنة ٩١١هـ ١٥٠٥م)، فقد تمكنوا قبل هٰذا التاريخ من اجتياز باب المندب صعداً نحو الشمال، وصاروا يعترضون المراكب التجارية الإسلامية القادمة من الهند وعدن إلى جدة والسواحل الحجازية فينهبون ويفتكون، وازداد عددها حتى بلغت عشرين مركبا[٣]، وشكلوا خطورة على المقدسات الإسلامية في الحجاز. عندئذ اضطرت الدولة المملوكية إلى الإسراع باعداد أولى الحملات البحرية المملوكية رغم ظروفها القاسية، لمواجهة التحدي البرتغالي للديار الحجازية والبحر الأحمر، وقد تمكنت القوات المملوكية من الاستيلاء على (سواكن) بالامان في الساحل الغربي للبحر الأحمر، وذلك بعد أن قضوا على الفتنة في ميناء (الينبع) المواجهة للمدينة المنورة[٤]. ثم واصلت الحملة سيرها إلى الجنوب فوصلوا إلى جدة فرضة مكة المكرمة على البحر الأحمر، فبنوا الأسوار والأبراج حولها للتمكن من صد الأخطار البرتغالية والأوروبية[٥]. وهٰكذا تمكن المماليك من

---

(١) المصدر نفسه، ص٧٧٤.

(٢) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٧٧٩.

(٣) المصدر السابق، ص٧٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٤٣.

(٥) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٧٢٦، ٧٤٣.

إعادة سيطرتهم وهيبتهم على السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر، وكان لا بد من إحكام سيطرتهم على مداخله الجنوبية عند عدن وباب المندب.

ويجدر بنا الإشارة إلى ملاحظتين الأولى: أن الدولة المملوكية في غمرة مواجهتها للبرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت حدودها الشرقية تتعرض لتهديد من قبل الصفويين في إيران[١]. والثانية: أنه عند ظهور الخطر الفرنجي في البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت الدولة العثمانية على علم بذلك، وكانت هي نفسها تحارب على الجبهة الأوروبية، لذا أرسلت سفراءها إلى المماليك من بينهم قائد عثماني كبير اسمه (كمال)[٢]، كان من أبرز القواد الأتراك في الحروب الأوروبية، قدم إلى القاهرة سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧م) أثناء وجود الحملة المملوكية في البحر الأحمر. وأرى أن الدولة العثمانية بدأت تحسن من علاقاتها مع المماليك وتقدم لهم الخبرة والمشورة والأسلحة للوقوف عن كثب على ماهية الوجود الأوروبي في المحيط الهندي والبحر الأحمر، خصوصاً وأن الوجود الأوروبي في المحيط الهندي والبحر الأحمر ردة فعل صليبية أوروبية ضد السيطرة الإسلامية على تجارة المشرق وضد الاجتياح العثماني لأوروبا.

وقد حاول البرتغاليون السيطرة على مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي بالاستيلاء على مضيق باب المندب ومضيق هرموز، ففي سنة ٩٠٨هـ (١٥٠٢م) استولوا على سبعة مراكب إسلامية قادمة من الهند، ويقول يحيى بن الحسين كان هٰذا أول ظهور الافرنج في بحر الهند وسواحل بنادر اليمن، وكانوا يخرجون من بحر الظلمات من وراء جبال القمر[٣]، ويذكر ايضاً أن الفرنج كانوا من طائفة البرتقال (البرتغال)، أما اللوندة

---

* يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور القاهرة، ١٩٦٨م، ق٢، ص٦٣١.

(١) ابن إياس، المصدر السابق، ص٧٥٧، ٧٥٨، ٧٦٠، ٩٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٥٨.

(٣) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ق٢، ص٦٣٠، ٦٣١.

(الهولنديون) والأنجريز (الانجليز) والقرنصيص (الفرنسيون)، فسكناهم في الهند متقدم على هٰذا التاريخ[١]. ثم إزدادت شوكة البرتغاليين سنة ٩١٢هـ (١٥٠٦م) فاستولى قائدهم ترستان داكونها Tristan da Cunha على جزيرة سوقطرة، ثم أرسل قواته لإغلاق باب المندب تمهيداً للاستيلاء على عدن وجدة. أما مدينة هرموز فقد تمكنوا منها سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧م)[٢]، وفرضوا على أهلها جزية سنوية مقدارها ١٥٠٠٠ دينار، وبذلك أصبحت تجارة وملاحة الخليج العربي تحت رحمتهم ومراقبتهم. إزاء ذلك تحرك الأسطول المملوكي - المتمركز في جدة - بقيادة حسين الكردي فوصل إلى عدن سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧م) فتلقاه أميرها مرجان الظافري بالحفاوة والترحاب[٣]، ثم واصل الأسطول المملوكي إبحاره في المحيط الهندي فوصل كجرات على الساحل الهندي، فرحب به سلطانها مظفر شاه بن محمود شاه وأمده بالأموال[٤]، وبمعاونة من أساطيل المماليك الهندية المسلمة المتحالفة تمكن حسين الكردي من الانتصار على الأسطور البرتغالي في معركة شول البحرية Chaul سنة ٩١٣هـ (١٥٠٨م) وقتلوا قائدة لورنزو دالميدا[٥]، إلا أن فرنسكو دالميدا نائب الملك البرتغالي في المياه الهندية استطاع أن يعيد تنظيم القوات البرتغالية وأن يفاجيء الأسطول المملوكي ويهزمه في معركة ديو Diu

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٣٢.
لا شك أن ابن الحسين كان مخطئاً في هٰذه المعلومة، فوجود الدول الأوروبية في المحيط الهندي والمشرق الأقصى كان بعد الوجود البرتغالي هناك وليس قبله.

(٢) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٣٦.
محمد عبد العال، نصوص جديدة من مشاهدات المؤرخ اليمني بامخرمة، من كتاب (البحر الأحمر)، ص٩٨، ٩٩.

(٣) يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص٦٣٦.

(٤) المصدر السابق، ٦٣٦.

(٥) ابن إياس، المصدر السابق، ص٧٧٣.
محمد عبد العال، المرجع السابق، ص١٠٩.

البحرية سنة ٩١٤هـ (شباط ١٥٠٩م) وهي جزيرة صغيرة تقع قرابة شاطيء الهند عند جيجرات[١]. وأرغم الأمير حسين الكردي على الانسحاب بما تبقى من قطع اسطوله والعودة إلى جدة[٢]. ونتيجة لذلك أرسل الملكْ محمود شاه صاحب كنباية وآخرون من ملوك الهند سفارة إلى السلطان قانصوه الغوري يطلبون منه سرعة تجهيز القوات وارسالها إلى الهند للوقوف في وجه البرتغاليين الذين (تزايد أمرهم وطمعوا في أخذ البلاد) في حين كسروا حسين الكردي في موقعة ديو السالفة الذكر[٣].

ازدادت الأطماع البرتغالية بعد معركة ديو في الاستيلاء على عدن والبحر الأحمر، فغادر القائد البرتغالي دالبوكيرك سنة ٩١٨هـ (١٥١٣م) ميناء جوا الهندي باسطول عدته عشرون سفينة[٤] للإستيلاء على البحر الأحمر وعدن والخليج العربي والاتصال بالحبشة لاقامة تحالف معهم ضد الدولة المملوكية، وهي استراتيجية قديمة استغلها الرومان والبيزنطيون ومن بعدهم الصليبيون في فلسطين وذلك لجعل الحبشة قوة تهدد وتتدخل في شؤون البحر الأحمر والجنوب العربي والحجاز. وفي أوائل سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م وصل الأسطول البرتغالي إلىعدن[٥]، فتصدى لهم أميرها مرجان الظافري وقتلوا منهم عدداً وفوتوا عليهم فرصة الاستيلاء على المدينة، فرحلوا عن عدن وتوجهوا نحو البحر الأحمر فمروا بباب المندب وبعض الموانيء اليمنية مخا والبقعة، والحديدة دون أن يتعرضوا لها. ثم واصلوا سيرهم فوصلوا جزيرة كمران في أوائل صفر ٩١٩هـ (نيسان ١٥١٣م)، فاستولوا عليها وأرسوا اسطولهم فيها وأقاموا هناك مدة ثلاثة شهور ونصف[٦]

---

(١) يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ٦٢٣.

(٢) ابن إياس، المصدر السابق، ص٨٦٤، محمد عبد العال، المرجع السابق، ص١٠٩، ١١٠.

(٣) ابن اياس، الصمدر نفسه، ص٧٩٩.

(٤) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٧٥٢، ٨٩١.

(٥) با مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ليدن، ١٩٥٠م، (١٦/١).

(٦) ابن إياس، المصدر السابق، ص٨٩١، ٩٢٣.
يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص٦٤٠.

ثم أعادوا الكرة للاستيلاء على عدن ولكنهم لم يتمكنوا منها للمرة الثانية لحصانتها وشراسة المقاومة التي أبدتها قواتها[١].

كان لدخول الأسطور البرتغالي مياه البحر الأحمر ردة فعل كبيرة لدى الأمير بركات شريف مكة، والسلطان المملوكي قانصوه الغورى، فعمل الشريف بركات على تعزيز القوات في جدة، خصوصاً وأن قائد الأسطول المملوكي حسين الكردي كان آنذاك في القاهرة[٢]. فأمر السلطان قائده حسين الكردي العودة إلى جدة لمنع البرتغاليين من احتلالها وحماية المقدسات الإسلامية في الحجاز. فعاد حسين الكردي إلى جدة سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م)[٣]، وكان الخطر البرتغالي قد استشرى في الجنوب العربي والبحر الأحمر وأصبح يشكل خطورة حقيقية على تلك المناطق، فأرسل حسين الكردي نائب جدة رسالة إلى قانصوه الغوري يعلمه (أن الفرنج قد زاد عبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران وربما يخاف على جدة من الفرنج)[٤]. فسارع الغوري إلى بناء أسطول جديد في السويس بمساعدة المهندسين والفنيين العثمانيين الذين لبوا دعوة قانصوه للوقوف في وجه المد البرتغالي الاستعماري في البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة. فبنوا عشرين قطعة بحرية، ست سفن صغيرة بكل منها ثمانية مدافع، اثنان كبيران في المقدمة والمؤخرة، وأربع عشرة سفينة كبيرة كل قطعة زودت بعشرين مدفعاً. وبعد أن تمت الاستعدادات لاقلاع الاسطول عين السلطان قانصوه الغوري الأمير سلمان العثماني قائداً له، وطلب منه الانضمام بسفنه وقواته الستة آلاف إلى أسطول حسين الكردي وقواته في جدة، فأقلع الأسطول المملوكي من السويس في رجب ٩٢١هـ (١٥١٥م).

---

(١) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٨٧٧.
يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٤٠.
محمد عبد العال، المرجع السابق، ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٨٧٧.
يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٤٠.
محمد عبد العال، المرجع السابق، ص١٢٤، ١٢٥.

(٣) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٨٧٧.

(٤) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٩٢٣.

سار الأسطول المملوكي من جدة باتجاه الجنوب، فوصلوا جزيرة كمران فأقاموا فيها مدة خمسة شهور، وبنوا فيها قلعة ذات أبراج وتحصينات قوية[١]. ولكن القوات المملوكية لم تلاق الترحيب والحفاوة ولا حتى المعونة من حكام اليمن بسبب ظروف خلافاتهم وصراعاتهم الداخلية وحاولوا زج الأسطول المملوكي في هٰذه النزاعات واستغلاله لتحقيق مآربهم وأطماعهم الشخصية[٢]. وفعلاً تمكن الأمير حسين الكردي من احتلال مدينة زبيد في جمادى الأولى ٩٢٢هـ (١٥١٦م) من عبد الملك شقيق السلطان عامر بن عبد الوهاب[٣]، الذي رفض مساعدة قوات حسين الكردي في حربها ضد الفرنج وتقديم المساعدة لقواته من ميرة وطعام[٤]. وعين المملوك برسباي والياً على زبيد ومعه بعض القوات المملوكية. ثم عاد إلى أسطوله في عرض البحر[٥] وواصل سيره إلى عدن، فوصلها في جمادى الآخرة ٩٢٢هـ (١٥١٦م)، وحاول السيطرة عليها ولكن مقاومة أهلها وحصانة دفاعاتها حالت دون تحقيق ذلك[٦]. مما دعا الأسطول المملوكي العودة إلى جدة في شعبان ٩٢٢هـ (١٥١٦م). ولم تشر المصادر عن نشوب قتال بين هٰذا الأسطول والبرتغاليين، والظاهر أنه انشغل في التدخل في أمور اليمن الداخلية تاركاً المجال للأساطيل الأجنبية لتكريس وجودها في المحيط الهندي والخليج العربي.

---

(١) ابن إياس، المصدر نفسه، ص١٠٣٧.
يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٤٢، ٦٤٤.

(٢) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٤٢، ٦٤٤.
محمد عبد العال، المرجع نفسه، ص١٤١.

(٣) ابن إياس، المصدر نفسه، ص١٠٣٦.
با مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج١، ص٢٢.
يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٤٦.

(٤) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ٦٤٣.

(٥) ابن إياس، المصدر السابق، ص١٠٣٧.
يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٤٧.

(٦) بامخرمة، المصدر نفسه، ص٢١، ٢٣.
يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٤٨.

ومما لا شك فيه أن الدولة المملوكية حاولت قدر استطاعتها وضع حد للوجود البرتغالي في الهند والبحر الأحمر والخليج العربي، وعملت رغم ظروفها الصعبة داخلياً وخلو خزينة الدولة من الأموال وافتقارها للمواد الاستراتيجية العسكرية من مدافع وبنادق وأخشاب وملح بارود على وقف هٰذا المد ولم يقتصر عملها في الداخل فحسب، بل أنها واكبت الأحداث والتطورات الدولية آنذاك وأرسلت السفارات إلى تلك الدول معلمة إياها بالوجود البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر. ونشطت الدبلوماسية المملوكية في هٰذا المجال حتى أن السلطان قانصوه الغوري استقبل في سنة ٩١٨هـ (١٥١٢م) أربع عشرة سفارة في شهر واحد منها سفارة اسماعيل الصفوي، وسفارة ملك الكرج وسفارة ابن رمضان أمير التركمان، وسفارة ابن عثمان سلطان العثمانيين وسفارة يوسف بن الصوفي خليل أمير التركمان، وسفارة صاحب تونس ملك المغرب وسفارة الملك مظفر شاه بن محمود شاه صاحب كنباية في الهند، وسفارة ابن درغل أمير التركمان، وسفارة على دولات، ورسلاً من أمير مكة ونائب حلب وحسين الكردي نائب جدة. أما سفارات الدول الأوروبية فهي سفارة ملك فرنسا وسفارة دوق البندقية[1]. لقد حاولت الدولة المملوكية الارتقاء إلى مستوى الأحداث فلم تجد غضاضة في طلب المعونة من معظم الممالك والإمارات الإسلامية وفي مقدمتها الدولة العثمانية وقد لبت الأخيرة الدعوة وأرسلت إليها الخبرة والفنيين والمدافع والقوات العسكرية للوقوف في وجه المد الأوروبي الاستعماري في الشرق الأدنى والمحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي. ولكن الدولة العثمانية لم تمهل المماليك لالتقاط أنفاسهم وانتهزت فرصة انشغال المماليك في حروبهم ضد البرتغاليين ووجود أساطيلهم في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، فاجتاحت شمال الشام وانتصروا على المماليك في معركة مرج دابق ٢٥ رجب ٩٢٢هـ /١٥١٦م، وقتلوا السلطان قانصوه

(١) ابن إياس، المصدر السابق، ص٨٥٢، ٨٦٤.

الغوري، وانهوا الدولة المملوكية في مصر والشام، ومما تجدر ملاحظته أن عودة الأسطول المملوكي من مهمته العسكرية في عدن إلى جدة كان بعد معركة مرج دابق بشهر واحد.

ب- الدور العثماني في البحر الأحمر خلال القرن السادس عشر الميلادي:

في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ظهرت قوة جديدة على مسرح الأحداث في مصر وبلاد الشام، وأصبح العثمانيون هم سادة البلاد ناهيك عن تواجدهم على مسرح الأحداث الأوروبية واستيلائهم على أجزاء كبيرة منها. فالدولة العثمانية لم تكن في منأى عن العبث الأوروبي في مقدرات الشرق والساحل الأفريقي، بل أن الدولة العثمانية كانت على إطلاع تام بما يجري في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي، وكان هناك تبادل للمعلومات والسفارات بين الجانبين المملوكي والعثماني، من ذلك إرسال السلطان العثماني بايزيد الثاني في سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧م) قائده (كمال) وكان وصوله أثناء وجود الأسطول المملوكي في البحر الأحمر في طريقه إلى عدن والهند. ويعتبر القائد كمال من أبرز القادة العثمانيين في الحروب الأوروبية[١]، والظاهر أنه قدم إلى القاهرة للاطلاع عن كثب على ماهية الخطر البرتغالي والتدخل الأوروبي في المحيط الهندي والجنوب العربي وليقدم النصح والمشورة للمماليك في حربهم ضد البرتغاليين. هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن الدولة العثمانية كانت أكثر تقدماً في تقنية الصناعات العسكرية بحكم احتكاكها المباشر مع أوروبا في حروب طاحنة، بل كانت أكثر الماماً في أسلوب الحروب الحديثة وإدخال البنادق والمدافع إلى قواتها العسكرية بينما ظلت الدولة المملوكية تحتفظ بالأسلوب الكلاسيكي القائم على الفروسية وهو أساس تركيبها وتنظيمها العسكري. أضف إلى ذلك أن الدولة العثمانية زودت المماليك بالأخشاب والمدافع وملح البارود، وهي سلع استراتيجية لم تكن متوفرة لذى

(١) ابن إياس، المصدر السابق، ص٧٥٨.

المماليك. ففي سنة ٩١٦هـ (١٥١٠م) أرسلت القاهرة الأمير يونس العادلي إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني لشراء الأخشاب والحديد والبارود، فرد السلطان المال، وجهز الأسلحة اللازمة للسلطان دون مقابل[١] وهي:

٣٠٠ مدفع.

٣٠ ألف سهم نشاب.

٤١ قنطاراً من البارود.

٢ ألفا مقذاف من الخشب.

وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال ومراسي حديد مما تحتاجه المراكب[٢]. وفي سنة ٩١٨هـ (١٥١٣م) أرسل قانصوه الغوري الرئيس حامد المغربي إلى السلطان سليم الأول ليشتري أخشاباً وحبالاً ومكاحل نحاس (مدافع) فأكرمه ابن عثمان ولبى طلبه[٣]. أضف إلى ذلك أن العثمانيين قدموا للمماليك الخبرة والمشورة في صناعة السفن الحربية المتطورة، ففي سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) بني في دار السفن بميناء السويس بمساعدة عثمانية عشرون مركباً حربياً، ستة منها صغيرة، وأربعة عشر مركباً كبيراً سلحت الصغيرة بثمانية مدافع والكبيرة بثلاثين مدفعاً. بل أن المساعدة العثمانية للمماليك تمثلت كذلك في إرسال ألفي جندي بقيادة الرئيس سلمان العثماني أبحرت مع الأسطول الذي بني في السويس والتحقت بقوات حسين الكردي في جدة[٤]. وكانت هٰذه القوات موجودة تجاه ساحل عدن عندما انكسرت الدولة المملوكية على يد السلطان سليم الأول في مرج دابق سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م)، فعاد القائدان سلمان العثماني وحسين الكردي إلى جدة بانتظار التعليمات من السلطان الجديد.

---

(١) ابن إياس، المصدر السابق، ص٨١٦.

(٢) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٨١٠.

(٣) ابن إياس، المصدر نفسه، ص٨٦٢.

(٤) ابن إياس، المصدر السابق، ص٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٥، ٩٧٦.

لا شك أن الوجود العثماني في البحر الأحمر والمحيط الهندي أثار حفيظة القوات الأوروبية التي بدأت تتطلع بخوف وحذر إلى القوة العثمانية التي ما فتئت منذ سنين طويلة تهاجمهم في عقر دارهم. وها هي الآن تقف في وجه أطماعهم ومصالحهم في تجارة الشرق الأقصى، خصوصاً بعد أن استولت على مصر والشام والحجاز والبحر الأحمر. وبدأ الصدام العسكري أمراً محتماً. ففي سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وصل إلى ساحل عدن أسطول برتغالي من ثلاثين مركباً بقيادة لوبو سواريز قادماً من ميناء (جوا) في الهند. وراسلوا مرجان الظافري عامل عدن عارضين عليه المساعدة ضد القوات المملوكية والعثمانية، فاجتمع مرجان بهم في الساحل وقدم لهم الضيافات وزودهم بأربعة من البحارة المرشدين للوصول إلى ميناء جدة. ولكن مرجان عاد فأرسل سفارة إلى السلطان العثماني سليم شاه يطلب منه العفو والصفح على ما فعله الفرنج متعللاً أن سبب ذلك ما فعله حسين الكردي وسلمان باشا من سفك دماء أهل اليمن وعدن[١]. وقد واصل الأسطول البرتغالي سيره إلى الحجاز فاستعد له القائد العثماني سلمان باشا وهزمهم وظفر بمركب من مراكبهم، مما اضطر الأسطول البرتغالي أمام عنف المواجهة إلى مغادرة سواحل جدة إلى عدن ومنها إلى الهند[٢]. وكان هدف البرتغاليين من حملتهم هٰذه تدمير الأسطول المملوكي المرابط في ميناء جدة ومنع أي أسطول إسلامي الدخول إلى البحر الأحمر وبذا تتحقق أطماعهم في السيطرة على البحر الأحمر وسواحل الحجاز وتهديد مقدسات المسلمين تماماً كمحاولات الصليبيين بقيادة ارناط في تهديد تلك المقدسات ولكن صلاح الدين فوت عليهم هٰذه الفرصة وأبقى البحر الأحمر بحيرة إسلامية. ولم تهدأ محاولات البرتغاليين وأطماعهم وحاولوا الاستفادة من التغيير الذي حدث في القيادة في كل من مصر والشام ومحاولة العثمانيين تثبيت أقدامهم في الأقطار

---

(١) با مخرمة، نصوص تاريخية من كتاب البحر الأحمر لمحمد عبد العال، ص٢٠٤.

(٢) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص٦٥٨، با مخرمة نصوص تاريخية من كتاب البحر الأحمر لمحمد عبد العال، ص١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠.

لجديدة، فأعاد البرتغاليون إرسال أسطولهم في سنة ٩٢٦هـ (١٥٢٠م) بقيادة (دييجو وبيز دي سكويرا)، فوصلوا إلى جزيرة دهلك (جزيرة في البحر الأحمر بين اليمن والحبشة) في عشرين قطعة بحرية و١٨٠٠ مقاتل وكان الأسطول العثماني بقيادة الأمير حسين بك أول نائب للعثمانيين في جدة ينتظرهم في ساحل اليمن ومعه ستة مراكب، ولما وجد أن لا قدرة له على مواجهة الأسطول البرتغالي عاد إلى جدة. فأبحر البرتغاليون في أثره، وأصبحوا في مواجهة ساحل جدة، ولكنهم لم يجرؤوا على المواجهة لتأكدهم من قوة الأسطول الجاثم هناك فعادوا إلى عدن فأمدهم وإليها مرجان الظافري بما أمكن ورجعوا إلى هرموز ثم الهند[١]. إزاء هٰذا التدخل البرتغالي في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي عمدت الدولة العثمانية إلى إرسال أسطول حربي وأربعة آلاف جندي إلى جدة، وعين السلطان العثماني سليمان بن سليم خان الأمير سليمان باشا والياً على جدة واليمن، وطلب منه محاربة الافرنج في البحر الأحمر والسواحل الهندية، فوصلت هٰذه القوات إلى جدة سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٥م)[٢]. ويذكر يحيى بن الحسين أن الجنود العثمانيين لما وصلوا جدة عاثوا فيها ونهبوا أسواقها فانقطعت الميرة عن جدة ومكة ووقع القحط الشديد، حتى صار الناس يضربون المثل بقحط سليمان، ثم أن سليمان استأثر بخراج مكة البالغ تسعون ألف دينار سنوياً وحرم الأشراف من نصيبهم الذي هو نصف هٰذا المبلغ[٣].

وقد تمكن سليمان باشا من الظفر والاستقلال باليمن بعد قضائه على مصطفى باشا والي زبيد العثماني، إلا أن أحد أقارب مصطفى ثأر له فقتل سليمان وجماعة من أمرائه وتولى قيادة الأسطول العثماني وتوجه به إلى الهند حيث افتتح بندر الديو وبندر هورة من البرتغاليين، وعظم شأنه في تلك الجهات ولكن أحد حساده قتله

(١) با مخرمة (نصوص تاريخية من كتاب البحرالأحمر لمحمد عبد العال) ص٢١٧.
(٢) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٦٧.
(٣) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٦٧.

بالسم[١]. وفي سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) أرسل السلطان سليمان بن سليم خان أسطولاً من سبعين قطعة بحرية بقيادة الباشا سليمان لمحاربة (الافرنج في السواحل اليمنية والتخوم الهندية)[٢]، فوصل إلى جزيرة كمران، فكاتبه عامر بن داود الظاهري لمساعدته على الإمام شرف الدين الزيدي، فنزلت قواته عدن وألقى القبض على عامر الطاهري وعدد من أعوانه وشنقهم، وبقتله انقرضت دولة بني طاهر من اليمن بالكلية[٣]. وبسط سليمان سلطانه على عدن وعين فيها ثقاته. ثم توجه إلى الهند ولكن حملته لم تظفر بطائل فرجع إلى اليمن، حيث تمكن من الاستيلاء على زبيد بعد أن قضى على من فيها من الجراكسة وبذلك انقطعت ولايتهم من بلاد اليمن، ثم حاول الاستيلاء على تعز ولكنه لم يوفق فعاد إلى مصر بعد أن أوعز لنائبه في زبيد الأمير مصطفى بمهاجمتها[٤].

لم تكن الأحوال في بلاد اليمن مستقرة حتى هٰذا التاريخ فالدولة العثمانية لم تبسط نفوذها كلياً على بلاد اليمن، وقام قوادها بعدة محاولات وخاضت عدة معارك وكان ذلك على حساب التصدي للقوات الفرنجية التي كانت تثبت أقدامها في الهند والمحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي، بل وجدوا من بعض حكام عدن الأعوان والحلفاء، ففي سنة ٩٥٣هـ (١٥٤٦م) استولى علي بن سليمان البدوي على مدينة عدن (واتحدت كلمته وكلمة الافرنج على محاربة جند السلطان)[٥]. ويذكر المؤرخ قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني (ت ٩٨٨هـ) أن الدولة العثمانية أرسلت إلى اليمن ٨٠ ألف جندي لم يبق منهم سوى سبعة آلاف[٦]، ولا شك أن هٰذا قد أجهد القوة العثمانية فانشغلت عن

(١) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٦٨.
(٢) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٨٤.
(٣) نفس المصدر، ص٦٨٤.
(٤) يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص٦٨٥.
(٥) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٦٩٧.
(٦) نفس المصدر، ص٦٩٧.

المهمة الرئيسية وهي محاربة ومطاردة القوى الأوروبية وابعادها عن المحيط الهندي والسواحل الافريقية ومنطقة الخليج العربي. وظلت الدولة العثمانية مشغولة في مستنقع الخلافات اليمنية طيلة السنوات ٩٥٠ - ٩٩٤هـ (١٥٤٣ -١٥٨٥م) حتى تمكنت أخيراً من بسط نفوذها على جميع بلاد اليمن بعد أن تكبدت الكثير من الأموال والأرواح. وكانت فرصة ذهبية للبرتغاليين استغلوها على أحسن وجه حيث استولوا على الأجزاء الساحلية من بلاد الحبشة[١] وأصبح لهم وجود في الساحل الغربي للبحر الأحمر، وهٰذا ما رفضته الدولة العثمانية حيث أن استراتيجيتها استهدفت إبقاء البحر الأحمر بحيرة اسلامية ومنع أي اتصال أو تحالف بين القوى الأوروبية والحبشة. لذا أشار الأمير ازدمر والي اليمن وقائد القوات العثمانية فيها على السلطان سليمان الأول الاستيلاء على الحبشة فأذن له، وطلب من علي باشا والي مصر مساعدته، فأمده بثلاثة آلاف مقاتل. فسار أزدمر بقواته من مصر براً إلى الحبشة فاستولى عليها وبنى فيها القلاع والحصون وأصبحت الحبشة منذ عام ٩٦٢هـ (١٥٥٤م) ولاية عثمانية[٢]، وبذلك تأكدت السيادة العثمانية على جنوب البحر الأحمر ومضيق باب المندب، وحال العثمانيون دون أي اتصال بين الأحباش والقوى الأوروبية التي يمكن أن تستغلها في ضرب السواحل اليمنية والحجازية تماماً كما فعلت في عصور سابقة.

---

(١) نفس المصدر، ص٧٠٨.

(٢) يحيى بن الحسين، المصدر نفسه، ص٧١٥.



الموضوع العاشر

عُمان في كتب الجغرافيين العرب

عُمان في كتب الجغرافيين العرب

أعمن وعمّن إذا أتى عُمان، ويقال أعمن يُعمن إذا أتى عمان، والعُمُن المقيمون بعمان، ويقال: رجل عامن وعمون ومنه اشتق اسم (عُمان). وقيل: أعمن دام على المقام بعمان(١).

وتقع عُمان في أقصى جنوب شرقي الجزيرة العربيةو وحدودها واضحة من الوجهة الطبيعية، فأطرافها الشمالية تصل إلى راس مسندم على ساحل مضيق هرمز، وتحدها رمال الربع الخالي من الغرب والجنوب الغربي، ويفصلها عن البحرين وقطر رمال بينونة، وعن حضرموت رمال الأحقاف المتصلة بالربع الخالي(٢). وهٰكذا فإن عُمان تختلف عن سائر أنحاء الجزيرة، بل ويفصلها عنها الربع الخالي، وقد أدت هٰذه العزلة إلى أن أصبحت لعُمان شخصيتها الجغرافية الخاصة، وأصبح اتصالها بالبحر أكثر من اتصالها بالداخل. ويتميز ساحلها بكثرة الخلجان الطويلة العميقة ذات الجوانب الصخرية العالية الشديدة الانحدار، أما داخل عُمان فمعظمه هضبة مرتفعة، متوسط ارتفاعها نحو ١٥٠٠م، ولها سلسلة فقرية هي الجبل الأخضر الواقع إلى الجنوب الغربي من مسقط، والذي ترتفع قممه إلى نحو ٣٠٠٠م. وتكثر في الهضبة الأودية السحيقة ذات الجوانب الشديدة الانحدار، ويتجه بعض هٰذه الأودية إلى خليج عُمان وبحر عُمان، وأهمها وادي سمايل الذي يصب قرب مدينة صُحار، وهو من أعظم الأودية خصباً، وينتهي البعض الآخر إلى صحراء الربع الخالي. ويوجد بها سهل ساحلي ضيق يشرف على خليج عُمان يسمى سهل الباطنة، تسحب إليه المياه من الهضبة، وتقوم به زراعة أنواع من الحبوب والفواكه بالاضافة إلى أشجار النخيل، وإلى الغرب من جبال عُمان تقع واحة البريمي.

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، (٤/ ١٥٠).

(٢) عبد الله يوسف غنيم، أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة، ص٤٢.

وقد ذكر الجغرافيون العرب عُمان في مؤلفاتهم، وركزوا على أهميتها الملاحية والتجارية، وعلاقاتها بالصين والهند والسواحل الشرقية الافريقية، وبعض جزر المحيط الهندي، بالاضافة إلى أشجارها وزارعتها، ووصف لمدنها وقراها ومشاهداتهم هم أنفسهم أو تلك التي سمعوها أو نقلوها عن غيرهم، وقد تضمنت هٰذه المواد معلومات قيمة عن بلاد عمان سنوردها في دراسة خاصة بعد أن نعرض لتلك الكتب.

فالتاجر سليمان (ت ٣٢٧هـ/ ٨٥١م) يتحدث في كتابه (سلسلة التواريخ)، عن حركة السفن والمراكب التجارية المنطلقة من (سيراف) ومنطقة عمان باتجاه الهند والصين فيقول: إن أكثر السفن التجارية الصينية تحمّل من سيراف، وإن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف، فيعبأ في السفن الصينية هناك، ثم تقلع السفن إلى (مسقط) وهو آخر عمل عُمان، والمسافة من سيراف إلى مسقط نحو ٢٠٠ فرسخ. وفي هٰذا البحر جبال عمان، حيث يوجد فيها الموضع الذي يسمى (الدُرْدور)، وهو مضيق بين جبلين، تسكله السفن الصغار، ولا تسلكه السفن الصينية. وفيها أيضاً الجبلان اللذان يقال لهما: (كُسَير، وعُوَير)، ولا يظهر منهما فوق الماء إلا الجزء اليسير، إذا جاوزت السفن الجبال تصل إلى (صُحار عمان). وفي العادة فإن السفن ترسو في (مسقط) حيث تتزود بالمياه العذبة، ثم تقلع السفن إلى بلاد الهند، وتمر في طريقها إلى (كوكم ملي)، وتقطع السفن تلك المسافة في مدة شهر إن كانت الريح معتدلة، وكانت سفن الصين تنقل الحرير إلى بلاد العرب[١].

ويذكر أبو زيد الحسن السيرافي في كتابه (أخبار الصين والهند)، أن بلاد عمان كانت تشتهر بالربابنة والادلاء لتزويد المراكب الصينية والهندية والعربية بهم[٢]. أما عن

---

(١) التاجر سليمان، سلسلة التواريخ، ص١٥، ١٦، ٢٧، ٢٨.

سيراف: مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديماً فرضة الهند (ياقوت، ٣/ ٢٩٤).

(٢) التاجر سليمان، سلسلة التواريخ، الكتاب الثاني للسيرافي المكتوب سنة ٥٦٥هـ في نهاية كتاب التاجر سليمان، ص٦٧.

علاقات عُمان بجزر الشرق الأقصى فيقول بأن في جزيرة (كَلَة) مجمع الامتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص، والأبنوس، والبقّم، والأفاويه كلها، وتنقل هٰذه السلع من هٰذه الجزيرة إلى عمان، بالاضافة إلى أن المراكب تجهز بصنوف السلع العربية في طريقها إلى الهند[١]. وينقل من بلاد التبت عبر الصين المسك، لأن ظباء المسك تعيش بكثرة في تلك المناطق[٢].

ويتحدث ابن خرداذّبة (ت٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) في كتابه (المسالك والممالك)، عن بلاد عمان، فيذكر أن خراجها يبلغ ٣٠٠ ألف دينار سنوياً[٣]. ثم يوضح أهمية موقعها في التجارة الدولية آنذاك، حيث كان التجار يقصدونها في طريقهم من (الأبُلة) في جنوب العراق إلى الهند والسند والصين. أما السلع التي كانوا يجلبونها من بلدان الشرق الأقصى فكانت: المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي. ثم يعودون في طريقهم إلى أوروبا عبر البحر الأحمر وخليج القلزم ومصر، وأثناء عودة هٰؤلاء التجار كانوا يجلبون معهم الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف[٤].

أما الهمداني (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) فيذكر في كتابه (صفة جزيرة العرب) بأن اليمن تقع في جنوبي الجزيرة، وفي شمالها تقع الشام، وغربيها تقع شرم أيلة وما طردته من السواحل إلى القلزم وفسطاط مصر، وشرقيها تقع بلاد عمان والبحرين وكاظمة والبصرة، وفي وسطها تقع الحجاز وأرض نجد والعروض[٥]. وعند حديثه عن البحر

---

(١) التاجر سليمان، المصدر السابق، ص٩٠.

(٢) التاجر سليمان، المصدر السابق، ص١١٢.

(٣) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١٤٩.
الأبلّة، بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة (ياقوت ١/ ٧٧).

(٤) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص١٥٤، ١٥٥.

(٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣.

=

المحيط ببلاد عمان والمتصل ببلاد الحجاز يقول بأن هٰذا البحر يحيط ببلاد اليمن إلى أرض الزنج والحبش[١]. أما كورة أرض عمان فهي صُحار، وأما قراها فأكثر مجامعها هرود من أوديتها[٢]، وأما الذين سكنوا عمان من الأزد فهم: يحمد، وحُدّان، ومالك، والحارث، وعتيك، وجَديد[٣].

ويذكر الاصطخري (ت٣٤٠هـ/ ٩٥١م) في كتابه (مسالك الممالك) أن ديار العرب لا يشركهم في سكناها أحد غيرهم، ويحيط بها: بحر فارس (الخليج العربي)، من عبادان، وهو مصب ماء دجلة في البحر، ويمتد هٰذا البحر إلى البحرين وينتهي في عُمان، ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي على سواحل اليمن إلى جدة، ثم يمتد على طول الحجاز حتى ينتهي في أيلة (العقبة الحالية)[٤]. ويعطينا الاصطخري وصفاً جيداً لعمان فهو يقول: عمان مستقلة بأهلها، كثيرة النخيل والفواكه كالموز والرمان والنبق وغيره، أما قصبة بلاد عمان فهي صُحار وتقع على البحر وبها متاجر البحر وتقصدها المراكب، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا تكاد تعرف على ساحل البحر بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صُحار[٥]. بالاضافة إلى أن بلاد عُمان تحتوي على مدن كثيرة، أما مساحتها فتبلغ ٣٠٠ فرسخ، والمسافة بين عُمان

= أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام (ياقوت ١/ ٢٩٢).

كاظمة: فرجة تقع على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة تبعد عن البصرة مرحلتان (ياقوت ٤/ ٤٣١).

(١) الهمداني، المصدر السابق، ص١٠.

(٢) الهمداني، المصدر السابق، ص٢٦٥.

(٣) الهمداني، المصدر السابق، ص٣٧٤.

(٤) الاصطخري، مسالك الممالك، طبع ليدن، ١٩٢٧م، ص١٢، ١٣.

عبّادان، موضع تحت البصرة قرب البحر المالح، وكانت عبادان قطيعة لحُمران بن أبان مولى عثمان بن عفان أقطعه إياها الخليفة عبد الملك بن مروان (ياقوت ٤/ ٧٤).

(٥) الاصطخري، المصدر السابق، ص٢٥.

والبحرين مسيرة شهر واحد، ومنها إلى أرض مهرة نحو شهر كذلك[١].

ويذكر بُرزُك بن شهريار (توفي منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) في كتابه (عجائب الهند بره وبحره وجزايره) أن أهل عمان اشتهروا بالملاحة، وكان منهم الربابنة نذكر منهم: يزيد العماني ناخوذة الزنج. ويحدثنا هٰذا الربان بأنه قد شاهد في بلاد الزنج جبلين عظيمين بينهما واد وفيه آثار النار، فسأل عنه فقيل له: أن هٰذا الوادي تجري فيه النار في وقت من السنة، وتأتي على كل ما فيه من نبات وحيوان وإنسان، ولا شك أن هٰذه النار هي ما نسميه الآن بالبراكين[٢].

أما ابن الفقيه الهمداني (ت٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) فيقول في (كتاب البلدان) بأن أرض عمان هي صفوة الأرض من الأرضين وهي بمنزلة الرأس منها[٣]. ويستطرد قائلاً: بأن حشوش الدنيا ثلاثة: عُمان، والأُبلّة، وسيراف[٤]، وأنها تشتهر بالسمك، بالقنى (الرماح) والنخيل، ويعدد أصناف تمورها المشهورة، الفرض، والبلعق، والخبوت[٥].

أما عن الملاحة فيها فذكر أن المراكب كانت تحمل منها مبحرة إلى الصين وعدن[٦]، فهو يقول: إن أكثر السفن الصينية تحمل من البصرة وعمان، وتعبأ بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هٰذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه، فإذا عُبي المتاع استعذبوا الماء إلى موضع منها يقال له مسقط وهو آخر عُمان. وبين سيراف وهٰذا الموضع نحو ٢٠٠ فرسخ. وفي غربي هٰذا البحر جبال عمان، وفيها الموضع الذي يقال له دردور وهو

---

(١) الاصطخري، المصدر السابق، ص٢٧.

(٢) برزك بن شهريار، كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزره، ص١٥٠، ١٥١.

(٣) ابن الفقيه الهمداني، كتاب البلدان، طبع ليدن ١٣٠٢هـ، ص١٩٧.

(٤) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٢٠٥.
والحشوش: هي بساتين النخيل الكثيفة (القاموس المحيط مادة حشّ).

(٥) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص١٦، ٣٠، ٩٢، ١١٤، ١٣٥، ٢٥٣.

(٦) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٨، ٩، ١٠٤.

مضيق بين جبلين، تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية. وفيه جبلا (كسير، وعوير)، فإذا جاوزت الجبال صرت إلى موضع يقال له صُحار عمان، ويستعذب الماء من مسقط وذلك من بئر فيها[١]. وكانت السفن التجارية تجلب السلع من بلاد الهند والصين وخراسان، ومن هٰذه السلع: الحرير، والعنبر والفلفل والبقّم والقرنفل، والصندل والكافور، وجوزبُوا، وماء الكافور، والنيل، والخيزران، والياقوت، والالماس، والكركدن، والطاووس، والببغاء، والدجاج السندي، والعطور، والأعشاب الطبية[٢]، كما وأن هٰذه السفن قد حملت معها من بلاد عمان القنى العُمانية والخيول العربية[٣]. ويذكر ابن الفقيه بأن مناخ عمان حار في الصيف، وهواؤها كدر غليظ، ذات رطوبة عالية، وتكثر فيها صيفاً الحشرات كالذباب والخنافس والحيات والعقارب والنحل والبعوض[٤]. ثم يصف بحر الزنج (المحيط الهندي) فيقول بأنه حفيرة واحدة عميقة واسعة، أمواجه عظام، وتهب في هٰذا البحر ريح قوية، أما المسافة بين عُمان وبلاد الزنج عبر هٰذا البحر فتقدر بشهرين[٥].

ويقول ابن حوقل (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) في كتابه (صورة الأرض) بأن ديار العرب يحيط بها بحر فارس (الخليط العربي) من عبّادان وهو مصب دجلة في البحر، فيمتد على البحرين حتى ينتهي إلى عُمان، ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن، حتى ينتهي على سواحل اليمن إلى جدة، ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهي إلى أيلة[٦]، ومن الأماكن التي يذكرها في سواحل عُمان، رأس المحجمة، ومدينة صُحار[٧].

---

١) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص١١.
٢) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص١٦.
٣) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص١٦.
٤) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص١٦.
٥) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٢٣٥.
٦) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٢٩٤.
٧) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص٢٧.

ويتحدث عن عمان فيذكر بأن عُمان ناحية ذات أقاليم مستقلة بأهلها فسحة، كثيرة النخيل والفواكه من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك، وأنها بلاد حارة، ومع ذلك فيسقط على رؤوس بعض جبالها ثلج خفيف. أما قصبتها فمدينة صُحار الواقعة على البحر، وبصحار من التجار والتجارة مالا يحصى كثرة، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار، ولعمان مدن كثيرة ومساحتها ٣٠٠ فرسخ[١]. وفي حديثه عن المسافات بديار العرب يذكر أن البحر الذي يحيط بها من عبّادان إلى البحرين يبلغ نحو ١١ مرحلة ومن البحرين إلى عُمان نحو شهر، ومن عمان إلى أوائل مهرة نحو ١٠٠ فرسخ، ومن عمان إلى عدن نحو ٦٠٠ فرسخ منها ٥٠ فرسخاً إلى المسقط وهي عامرة، وخمسون لا ساكن فيها إلى أول بلد مهرة وهي الشحر[٢].

وقد قسم المقدسيّ (ت بعد ٣٩٠هـ/٩٩٩م) في كتابه (أحسن التقاسيم) الجزيرة العربية إلى اربع كور جليلة واسعة، واربع نواح نفيسة، أما الكور فهي: الحجاز، واليمن، وعُمان وهجر، والنواحي هي: الأحقاف، والأشحار، واليمامة، وقُرْح[٣]. ويقول بأن كورة عمان كورة جليلة مساحتها ٨٠ فرسخاً مربعاً، كلها نخيل وبساتين، ويستقي أهلها من آبار قريبة ينزعها البقر أكثرها في الجبال[٤]. أما قصبة عُمان فهي مدينة صحار، ومن مدنها: نزوة، السِّر، ضَنْك، حفيت، دبَا، سلوت، جُلّفار، سمد، لسيا، مِلَحْ[٥]. ويتحدث عن مدينة صحار قائلاً: بأن قصبة عُمان، ليس على بحر الصين اليوم (القرن الرابع الهجري) بلد أجل منه، عامر آهل حسن طيب نزه، ذور يسار وتجار

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٣٠.

(٢) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٤٤، ٤٥.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ط٢ ليدن، ١٩٦٧م، ص٦٨.

(٤) المقدصي، المصدر السابق، ص٩٣.

(٥) المقدسي، المصدر السابق، ص٧٠.

وفواكه وخيرات. وهي أسرّ من زبيد وصنعاء اليمنيتان، بها أسواق عجيبة، وهي بلدة ظريفة ممتدة على البحر، أما دورها فمبنية من الأجر والساج، وهي أبنية شاهقة نفيسة، وأهلها في سعة من العيش وصحار دهليز الصين، وخزانة الشرق والعراق، ومغوثة اليمن، ويستقي أهلها من آبار عذبة وقناة حلوة، وبها مسجد جميل يقع على البحر في آخر الأسواق، له منارة حسنة طويلة، ومحراب بلولب يدور فتراه مرة أصفر وكرة أخضر وحيناً أحمر[١].

ويتحدث المقدسي عن المدن العمانية الأخرى فيقول بأن (نزوة) تقع في الجبال، وهي مدينة كبيرة بناء بيوتها من الطين، ويقع الجامع في وسط السوق، ويشرب سكانها من أنهار وآبار، وإذا غلب الوادي في الشتاء دخل الماء إلى الجامع[٢]. أما (السِرّ) فهي أصغر من مدينة نزوة، تلتف حولها أشجار النخيل، ويقع جامعها في وسط السوق، ويشرب أهلها من أنهار وآبار. وهناك مدينة (ضَنْك) وبها عدد قليل من أشجار النخيل، أما (حفيت) فهي كثيرة النخيل، وجامعها في وسط أسواقها، وتقع (سلوت) على يسار مدينة نزوة، أما (دَبا) (وجُلّفار) فهما من نحو بلاد هجر، وهناك مدن: سَعْد، ولسيا، ومِلَح، وبرنم، والقلعة، وضنكان[٣]. وعند حديثه عن (المسقط) يقول بأنها أول ما يستقبل المراكب اليمنية، وقد «رايته موضعاً حسناً كثير الفواكه»، أما مدينة (توأم) فقد غلب عليها قوم من قريش فيهم بأس وشدة[٤].

وفي حديثه عن تجارات الجزيرة العربية يذكر أن التجارات فيها مفيدة، لأن بها

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٣.
الساج: ضرب من الشجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً وله ورق كبير (قاموس المحيط، مادة الساج).
(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٣.
(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٣.
(٤) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٣.

فرضتي الدنيا وسوق منى، والبحر المتصل بالصين، وجدة والجار خزانتي مصر، ووادي القرى مطرح الشام والعراق، واليمن معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق. فإلى عُمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك، والزعفران، والبقّم، والساج، والساسم، والعاج، واللؤلؤ، والديباج، والجزع، واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والقند، والاسكندروس، والصبر، والحديد، والرصاص، والخيزران، والغضار، والصندل، والبلّور، والفلفل وغير ذلك. وتزيد عدن بالعنبر والشروب، والدرق، الحبش، والخدم، وجلود النمور، وبتجارات الصين تضرب الأمثال[(١)].

أما مكاييل عُمان فكانت في زمن المقدسي: الصاع، والمد، والمكوك، ولهم بالمراكب صاعان يعطون بأحدهما جرايات الملاحين، ويتعاملون بالكبير، وارطالهم هو المنّ المعروف في جميع بلاد الإسلام[(٢)]. ويتعامل أهالي عمان بالدينار ويساوي ٣٠ درهماً والدراهم المستعملة في هٰذا الاقليم تسمى (الطسوة)[(٣)]، وفي العادة كان الأهالي يدفعون عن كل نخلة يملكونها درهماً واحداً للسلطان[(٤)]. أما خراج عُمان فكان يبلغ على رأي قدامة بن جعفر ٣٠٠ ألف دينار سنوياً، وفي العادة كان يؤخذ من التجار القادمين إلى عُمان العشر، وأحياناً كان للسلطان في عُمان الثلث من أموال التجار، وكان التجار يتعرضون في بعض الأحيان إلى تفتيش دقيق[(٥)].

ويقول ناصر خسَرو (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) في كتابه (سفر نامه) عن عُمان فيقول بأنها

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٧.
(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٨، ٩٩.
ويذكر البكري أنهم استخدموا الكيلجة والمن، والكيلجة = ٩ أمنان.
البكري، جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، ص٣٧.
(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص٩٩.
(٤) المقدسي، المصدر السابق، ص١٠٥.
(٥) المقدسي، المصدر السابق، ص١٠٥.

ولاية فإذا سافر المسافر جنوب الحسا يبلغها، وهي في بلاد العرب، وثلاثة جوانب فيها صحراء لا يمكن اجتيازها. وتبلغ مساحتها ثمانين فرسخاً في مثلها، وهي حارة الجو يكثر فيها الجوز الهندي المسمى نارجيل، وإلى الجنوب من عُمان تقع عدن، وإلى الشرق منها عبر البحر تقع جزيرتي كيش ومكران[١].

أما أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) فيقول في كتابه (جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك) بأن (ظفار) منازل العرب العاربة، ودار الملوك العظام من التبابعة والأقيال (الهياطلة)، والعياهلة، وأن بها السيوف والثياب من القصب والسّعيدي والوشي والمغمر والحُبُر، والبرود والأردية العدنية والصِنعائية، والعنبر والجزع والعقيق والرقيق والبُخت والإبل المهْرية، والخيل العراب والنّضار وغير ذلك من أصناف الأمتعة والتجارات[٢]. ويذكر أن في بلاد عُمان مغاوص اللؤلؤ، وكان الغواصون يتقاضون عن كل يوم من قيراط إلى نصف درهم. وفي العادة فهم يغوصون من بكرة النهار إلى نصفه، ثم يأخذون في شقّ الصدف إلى آخر ذلك النهار، ولؤلؤ مغاوص عمان من النوع الجيد ذو قيمة مرتفعة، بحيث أن بعض حبات لؤلؤ عُمان كانت تباع بعشرة آلالف إلى خمسة عشر ألف دينار[٣].

وفي حديث البكري عن بلاد عُمان يذكر بأن طولها يبلغ ٨٠ فرسخاً، وفيها سهول ساحلية، وكلما بعدت عن الساحل تجد الحزون والجبال، أما مدنها فيذكر منها مدينة (عُمان) وتقع على ساحل البحر وهي مدينة حصينة، يحيط بها جبل فيه مياه سائحة أجريت إلى المدينة، وهي مدينة كثيرة النخيل والبساتين وضروب الفواكه، وطعام أهلها الحنطة والشعير والأرز والجاورس[٤]. ومدينة (صُحار) وهي مدينة كبيرة على ساحل

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م ص١٤٤.
(٢) البكري، جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، ص٣٥.
(٣) البكري، المصدر السابق، ص٣٦.
(٤) البكري، المصدر السابق، ص٣٧.

البحر ومياهها من الآبار، ثم مدينة (نزوى) وهي أكبر من صُحار، وهناك مدينة (صَخم) وماؤها من العيون، وبها نخل كثير، ويزرع فيها قصب السكر، ويوجد فيها أشجار يقال لها (الأطراق) يشبه شجر المُقْل يقطع منها عروق ثم توضع في الماء فيسيل منها شراب يسكر من ساعته[١].

ويذكر البكري أن خراج عُمان ٨٠ ألف دينار سنوياً، ومنها يمكن للمرء أن يسافر بحراً إلى سواحل الجزيرة العربية وأفريقية والصين والهند، وهي ذات تجارات واسعة، وقد بنيت فيها الخانات خدمة للتجار القادمين إليها والمقيمين فيها من البلدان الأخرى[٢]. وقيل في الأمثال: (من تعذر عليه الرزق فعليه بعُمان)، وبسبب ثراء أهلها فقد أهدى صاحب عُمان بعد سنة ٤٢٠هـ إلى الكعبة محاريب فضية زنة المحراب ازيد من قنطار، وقناديل فضية متقنة الصنع، وقد سمرت المحاريب في جوف الكعبة مما يقابل بابها[٣].

ويتحدث الأدريسي (ت ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) عن بلاد عُمان في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) فيقول: ويتصل بأرض مهرة بلاد عمان وهي مجاورة لها من جهة الشمال. وبلاد عُمان مستقلة بذاتها عامرة بأهلها، كثيرة النخيل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والتين والعنب ونحو ذلك. ومن أشهر مدنها مدينتا (صور) و(قلهات)، على ساحل البحر، وهما مدينتان صغيرتان لكنهما عامرتان، يشرب أهلهما من مياه الآبار، ويصاد بهما اللؤلؤ بكميات قليلة، والمسافة بين صور وقلهات مرحلة، أما في البحر فدون ذلك[٤]. ويوجد على ساحل بحر عُمان رأس المحجمة، وهو جبل عال على ساحل البحر، يقع شرقي (غب الحشيش)، وهناك صعوبات ملاحية في ساحل عُمان بسبب وجود جبال وصخور ضخمة مغطاة بالمياه تتكسر عليها عادة بعض المراكب

---

(١) البكري، المصدر السابق، ص٣٧.
(٢) البكري، المصدر السابق، ص٣٧.
(٣) البكري، المصدر السابق، ص٣٨.
(٤) الأدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (٢/ ١٥٥).

إن اقتربت منها، وتشتهر في منطقة رأس المحجمة مغايص اللؤلؤ[١]. ويوجد في مواجهة سواحل عُمان جزيرتان هما: جزيرة ابن كاوان طولها ٥٢ ميلاً بعرض تسعة أميال، وجزيرة كيش. ويوجد بالقرب من جزيرة ابن كاوان (الدُرْدور)، وهو موضع يدور فيه الماء كالرحى دوراناً دائماً، من غير فترة ولا سكون، فإذا سقط إليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف. وهناك مضيق على مقربة من جبلي كسير وعوير، تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية، وهذان الجبلان غائران تحت الماء لا يظهر منهما شيء، وربابنة السفن يعرفون مكانيهما ويتجنبوهما، ويوجد على ساحل عُمان فيما بين سيراف ومسقط أنف قائم في البحر وبازائه جزيرة صغيرة[٢].

ويتحدث الادريسي عن صناعة السفن في سواحل عُمان وبالأخص في مدينتي صُحار ومرباط، وهو نوع من السفن يستخدمون في صناعتها خشب النارجيل، وكانوا يربطون تلك الأخشاب بعد صنعها بحبال يصنعونها من ليف النارجيل، كما كانوا يفتلون من خوصه حبالاً[٣]. ويوجد في عُمان دهن مشهور يستخدم في سد خروق تلك المراكب بعد حرزها[٤]، بالاضافة إلى سفن أخرى أكبر كانوا يصنعونها من أخشاب محلية أو مستوردة، وبتلك المراكب كان العُمانيون يركبون المحيط الهندي وبحر العرب فيصلون إلى سواحل أفريقية والهند والصين ينقلون البضائع والأمتعة المختلفة، ويعودون بسلع تلك البلدان[٥].

ومن مدن بلاد عُمان قرية (دبَا)، وهي قرية ساحلية ذات كثافة سكانية قليلة شتاء، إلا أن الحياة تعج فيها صيفاً بسبب قدوم الغواصين إليها للبحث عن اللؤلؤ في سواحلها،

---

(١) الادريسي، المصدر السابق، ص١٥٦.
(٢) الادريسي، المصدر السابق، ص١٦٤.
(٣) الادريسي، الجزء الخاص بوصف الهند وما يجاورها من البلاد، ص١٢.
(٤) الادريسي، الجزء الخاص بوصف الهند، ص٢٢.
(٥) الادريسي، الجزء الخاص بوصف الهند، ٣٧ والجزء الثاني ص١٦٧.

ففيها مغاص اللؤلؤ الممتاز، وهي مشهورة بجيد اللؤلؤ المستخرج منها[١].

أما مدينة (صُحار) فيذكر الادريسي أنها من أقدم مدن عُمان وأكثرها أموالاً قديماً وحديثاً، ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد مالا يحصى عددهم، وإلى هٰذه المدينة يجلب جميع بضائع اليمن، ويجهز منها بأنواع التجارات، أما أهلها فهم في سعة من العيش، ومتاجرهم مربحة. أما زراعتها فتشتهر بكثرة النخيل والفواكة منها: الموز والرمان والسفرجل وكثير من الثمار العجيبة الطيبة. وكانت المراكب تبحر من صُحار إلى بلاد الصين، إلا أنها انقطعت فيما بعد بسبب أعمال القرصنة البحرية المنطلقة من بعض الجزر المقابلة لسواحل عُمان، فتحولت المراكب إلى عدن[٢]. أما (مسقط) فيذكر أنها مدينة مشهورة على ساحل بلاد عُمان، والمسافة بينها وبين صُحار نحو ٤٥٠ ميلاً، وفي مواجهة سواحل مسقط توجد جزيرة كيش، وهي جزيرة مربعة مساحتها ١٢ ميلاً في مثلها وبها حصن جيد بالاضافة إلى زروع وأغنام وأبقار وكروم، ثم يتحدث عن شهرتها بمغايص اللؤلؤ[٣]. ومن مدن عُمان الساحلية بالاضافة إلى صُحار ودَبَا ومسقط بلدتا (الخيل) و(جلّفار)، ويوجد في سواحل البلدتين الأخيرتين مغايص اللؤلؤ، ويقابلهما في البحر طرف جبل كبير غائص في البحر يظهر منه القليل في بعض الأماكن، ويغيب في غيرها، لذا يسبب هٰذا الجبل متاعب للمراكب المبحرة إذا اقتربت منه وربما انكسرت وتحطمت بسببه[٤].

ومن مدن عُمان الداخلية (سعال) و(العفر) وهما مدينتان صغيرتان تقعان مقابل مدينة صُحار بينهما واد يسمى وادي الفلج، وتشتهر هاتان المدينتان بالنخيل الكثير والمزارع والحدائق، وبهما أنواع التمور الجيدة، ويستقي الأهالي من مياه الأفلاج، والأرض التي

---

(١) الادريسي، نزهة المشتاق، (٢/١٥٦).
(٢) الادريسي، المصدر السابق، ص١٥٦، ١٥٧.
(٣) الادريسي، المصدر السابق، ص١٥٧.
(٤) الادريسي، المصدر السابق، ص١٦٢.

تقعان فيها تسمى (نزوة). وبالقرب منها تقع مدينة (مِلَحْ)، وهي مدينة صغيرة على ضفة وادي الفلج (أو نهر الفلج كما يسميه الادريسي)، في أسفل جبل يسمى جبل (شرم)، وفيها أشجار النخيل والعيون العذبة. وتشتهر المنطقة الداخلية التي يتحدث عنها الادريسي بالافلاج، ومن مدنها كذلك (سرعان) الواقعة في أسفل جبل شرم حيث تتبع الأفلاج، ويصف الادريسي الافلاج ونهر الفلج بأنه نهر كبير عليه قرى وعمارات متصلة إلى أن يصب في البحر بالقرب من مدينة (جلّفار)، وهناك مدينة داخلية أخرى هي مدينة (بترون) الواقعة غربي البلاد وهي في أسفل جبل هناك، وبقربها عدد من القرى والعمارات[(١)].

ثم يستطرد الادريسي في الحديث عن بلاد عُمان فيقول بأن مساحتها تبلغ ٩٠٠ ميل، وهي حارة صيفاً، إلا أنه ينزل بأعلى جبل شرم ثلج قليل شتاء. ويوجد بين بلاد عُمان وبلاد نجد برار متصلة، والطريق منها إلى مكة براً صعبة جداً لكثرة القفار وقلة السكان، ويتصل بأرض عُمان من الغرب والشمال أرض اليمامة. ويعيش في بلاد عُمان حية تسمى (العربد)، وهي حية تنفخ ولا تؤذي، ولكنها كثيرة القفز، وبها دويبة تسى القراد، عضتها مؤذية تؤدي إلى الموت، ويعيش بجبالها قردة كثيرة ضارة بأهاليها، لذا فهم يدفعون أذاها بالقسي والسهام والسلاح العام إذا هاجمت قراهم ومزارعهم[(٢)].

أما ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) فيقول في كتابه (معجم البلدان): عُمان بضم أوله وتخفيف ثانيه وآخره نون، اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند، وعُمان في الاقليم الأول طولها ٧٤ درجة و٣٠ دقيقة، وعرضها ١٩ درجة و ٤٥ دقيقة، وتقع شرقي بلاد هجر، وتشتمل على بلدان كثيرة، وهي ذات نخل وزروع إلا أن حرها يضرب به المثل. وقصبة عُمان مدينة صُحار، وقد قال الرسول ﷺ: «إني لأعلم أرضاً

(١) الادريسي، المصدر السابق، ص١٥٨.
(٢) الادريسي، المصدر السابق، ص١٥٨، ١٥٩.

من أرض العرب يقال لها عُمان على شاطيء البحر، الحجة منها أفضل أو خير من حجتين من غيرها»[١]. ويذكر أن (مسقط) مدينة من نواحي عُمان في آخر حدودها مما يلي اليمن على ساحل البحر[٢].

وفي حديثه عن (صُحار) يقول بأنها قصبة عُمان مما يلي الجبل، وهي مدينة كبيرة طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالأجر والساج ليس في تلك النواحي مثلها، ولا يوجد في بحر الصين بلد أجلّ منه، عامر آهل حسن طيب نزه، ذو يسار وتجار وفواكه، وصُحار أجل من زبيد وصنعاء، وبها أسواق عجيبة، وهي بلدة ظريفة ممتدة على البحر، بنيت دور أهلها من الأجر والساج وهي ابنية شاهقة نفيسة، وهي دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق، ومغوثة اليمن، يستقي أهلها من آبار عذبة وقناة حلوة، وهم في سعة من العيش في كل شيء. بها جامع يقع على الساحل، له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق، ومحراب الجامع يدور بلولب، فتارة أصفر، وتارة أحمر، وأخرى أخضر[٣].

ثم يتحدث عن نزوة فيقول: النزو هو الوثب، ونزوة جبل بعُمان ليس بالساحل، وحوله عدد من القرى الكبار يسمى مجموعها بهٰذا الاسم. وتشتهر منطقة نزوة بالثياب المنمقة بالحرير، وهي ثياب جيدة فائقة لا يعمل مثلها في بلاد العرب، ويصنعون مآزر من صنف تلك الثياب، أثمانها مرتفعة ويبالغون فيها، وقد رأى ياقوت الحموي بعضاً منها واستحسنها، والظاهر أن هٰذه الثياب الجميلة والمآزر الفائقة كانت تجلب من بلاد عُمان إلى البلدان الأخرى[٤].

ويذكر ياقوت الحموي بأن (مَسْقَط) بالفتح وسكون السين وفتح القاف، تطلق على عدة أماكن منها: (مسقط الرمل) في طريق البصرة، ومسقط مدينة من نواحي عُمان في

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، (٤/ ١٥٠).
(٢) ياقوت، المصدر السابق، (٥/ ١٢٧).
(٣) ياقوت، المصدر السابق، (٣/ ٣٩٣-٣٩٤).
(٤) ياقوت، المصدر السابق (٥/ ٢٨١).

آخر حدودها مما يلي اليمن على ساحل البحر، ومسقط أيضاً رستاق بساحل بحر الخزر دون باب الأبواب[١]. ومن مدن عُمان مدينة (قلهات) وتقع على ساحل البحر وإليها ترفأ أكثر سفن الهند، وهي مدينة ليست بالقديمة في العمارة، ويرى ياقوت أنها تمصرت بعد أل ٥٠٠هـ، وفي من أشهر مدن عُمان وأحسنها، عامرة آهلة بالسكان، فرضة بلاد عُمان على المحيط الهندي وبحر العرب[٢]. ثم (أدم) إحدى مدن بلاد عُمان الشمالية، تليها (شمليل) وهي ناحية أخرى من عُمان قريبة من البحر[٣]. وهناك مدينة (جُلّفار) بالضم ثم الفتح والتشديد وفاء وآخره راء، بلد بعُمان عامر كثير الغنم والجبن والسمن، يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان[٤]. ومن قراها كَلْبا أو كَلْبة وهي موضع من نواحي عُمان على ساحل البحر[٥]، ثم خورفكان، بليدة على ساحل عُمان يحول بينها وبين البحر الأعظم جبل، وبها نخيل وعيون عذبة[٦].

ويتحدث ياقوت عن الافلاج فيقول: في بلاد عُمان الافلاج ومفردها فَلَج بفتح أوله وثانيه وآخره جيم، والفلج الماء الجاري من العين. ووراء المجازة فلج الافلاج، وهو ما بين العارض ومطلع الشمس، تصب فيه أودية العارض وتنتهي إليه سيولها، وتسمى بفلج الافلاج لأنها افلاج كثيرة. وتشتهر منطقة الافلاج بزراعة النخيل والزروع الكثيرة، وهناك (السيوح) التي تجري مثل الأودية، حيث تُنقب فيها قِني فتساح أي تجري[٧].

ويقول ابن سعيد المغربي (ت٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) عن ظفار في كتابه (كتاب الجغرافيا): ظفار قاعدة التبابعة فخريت، وهي من حيث الطول ٧٣ درجة والعرض ١٥

---

(١) ياقوت، المصدر السابق (٥/ ١٢٧).

(٢) ياقوت، المصدر السابق (٤/ ٣٩٣).

(٣) ياقوت، المصدر السابق (٤/ ٤٧٦).

(٤) ياقوت، المصدر السابق (٢/ ١٥٤).

(٥) ياقوت، المصدر السابق (٤/ ٤٧٦).

(٦) ياقوت، المصدر السابق (٢/ ٤٠٠).
والخور عند العرب السواحل كالخليج، وأصله هور فعرّب إلى خور (ياقوت، ٢/ ٤٠٠).

(٧) ياقوت، المصدر السابق (٤/ ٢٧١).

درجة، ثم يلقاك على الساحل مدن الشحر. وهي بلاد العنبر واللبان، ومن مدنها (مرباط) وتقع على جون يدخل إلى الشمال على طول ٧٤ درجة وعرض ١٤ درجة ونصف، وفي شرقيها على الجون نفسه تقع مدينة (ظفار) المحدثة. ومدينة ظفار كانت في زمن ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري) قاعدة بلاد الشحر وفرضتها المشهورة، يجلب إليها خيل العرب، ومنها يحمل إلى بلاد الهند. ويقال أن في أرض هٰذه المدينة الكثير من عقاقير الهند مثل: النارجيل، والتنبل، والفوفل، والعنبا، ويقع في شمالي هٰذا الجون رمال الاحقاف وإلى الشمال من الأحقاف تمتد جبال اللبان من الغرب إلى الشرق[1]. ثم يذكر أن (صُحار) كانت مدينة عُمان في القديم وتقع على طول ٨١ درجة والعرض ١٩ درجة و٥٦ دقيقة، ويقوم جبل نزوة بينها وبين الرمال السائلة، وهٰذا الجبل مستطيل من الجنوب إلى الشمال، وفيه مدينة (نزوة) تقع على خط طول ٧٨ درجة ونصف وعرض ١٩ درجة ونصف، أما سعة البحر العظيم بين صُحار والهند نحو ٢٨٠ ميلاً[2].

أما القزويني (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) ففي حديثه عن عُمان في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) يقول: عُمان كورة على ساحل بحر اليمن في شرقي هجر، تشتمل على مدن عديدة، كثيرة الأرزاق والتجارات، أما حرها فيضرب به المثل[3]. أما ظفار فتشتهر بالجزع الظفاري الجيد، وأشجار اللبان الذي لا يوجد في الدنيا إلا في جبالها، وهو غلّة لسلطانها، فيأتي أهالي ظفار ويجرحون أشجارها بالسكين فيسيل منها اللبان فيجمعونه ويحملونه إلى مدينة ظفار، فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم الباقي[4].

ويقول ابن المجاور (ت ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) في كتابه (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض

---

(١) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص١٠٢.
(٢) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١١٨.
(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٦.
(٤) القزويني، المصدر السابق، ص٥٦.

الحجاز) أن بلاد عمُان تعم بالخير، وتجارتها واسعة ومن مدنها قلهات، ومسقط، وصُحار، والمسافة بين قلهات إلى (طيوى) ثلاثة فراسخ وإلى مسقط ستة فراسخ[١]، وتشتهر بلاد عُمان بصيد السمك، ويأكل أهالي البلاد السمك والتمر. ويذكر ابن المجاور أن مسقط كانت مرسى مدينة صُحار، ففيها كانت ترسو المراكب القادمة من أطراف البلاد. ثم تحمل تلك المراكب بصنوف السلع المختلفة في طريقها إلى بلاد كرمان وسجستان، وكانت تلك السلع تتفرق في بلاد خراسان وما وراء النهر وزاولستان والغور وكرميل[٢]. ولعظم تجارة عُمان وكثافتها فقد كان يوجد في مدينة صُحار ١٩٢ قباناً لوزن البضائع للطالب والمطلوب[٣]، وهٰذا يدلل على دور عُمان الكبير في التجارة الدولية في القرون الوسطى.

ويتحدث الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) عن اللؤلؤ ومغاصاته فيقول: والغوص يكون في أربعة مواضع، جزيرة خارك من عمل فارس، وأرض عُمان، وقطر، وجزيرة سرنديب. واللؤلؤ نوعان: كبير يسمى الدرّ، وصغير يسمى اللؤلؤ، وأجود الدرّ المدحرج الصافي الشفاف الكبير الحجم الرزين النقيّ، ويتفاوت في الوزن من نصف مثقال إلى مثقال ونصف. وأجود اللؤلؤ النقي المستدير، واللؤلؤ له ألوان، فمنه أصفر مستدير، ومنه أحمر، ومنه أخضر، ومنه أزرق[٤]. ويذكر الدمشقي أن بلاد عُمان تشتهر (بالصبر)، وهو صمغ من شجرله ورق كورق السوس، وعلى حرفي الورقة شوك صغار، وهو أطول وأغلظ من ورق السوسن،

---

(١) ابن المجاور، صفة اليمن ومكة وبعض الحجاز، ص٢٨٤.
ويقول ابن المجاور: أن أصل كلمة مسقط هو (مسكت)، ويقال: لما وصل إليها الصحابة سكت كل من كان بها فسميت (مسكت) ثم صحفت الكلمة إلى (مسقط)، (ابن المجاور، ص٢٨٤).

(٢) ابن المجاور، المصدرالسابق، ص٢٨٤.

(٣) ابن المجاور، المصدر السابق، ص٢٨٥.

(٤) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب الدهر، ص٧٧، ٧٨.

وعليه رطوبة تلصق باليد، وصمغ عُمان أسود ملمّع[١]. ويستخرج من بلاد عُمان (المقل الأزرق) وهو صمغ أشجار كبيرة تنبت في المنطقة الواقعة بين الشحر وعُمان، وهو صمغ يشبه الكُنْدُر، طيب الرائحة[٢]. وينبت في عُمان أشجار اللبان خصوصاً في منطقة ظفار بالاضافة إلى أن هٰذه الأشجار تنبت في أماكن من بلاد اليمن[٣]. أما بلاد مهرة فمصرها مدينة ظفار التي بناها أحمد بن محمد، وسماها الأحمدية سنة ٦٢٠هـ، وحلت هٰذه المدينة محل مدينة مرباط القديمة، ويحيط بهٰذه المنقطة مما يلي البحر رمال الأحقاف، وهي رمال سيالة تنتقل من مسافات بعيدة[٤].

ويذكر الدمشقي أن طول بلاد عُمان ٣٠٠ فرسخ، وتقع على ساحل بحر الهند، ومما يلي البحر توجد سهول ورمال، ومن ورائه حزون (أرض غليظة صعبة المسالك) وجبال. وتشتهر بلاد عُمان بالنخيل والموز والرمان، وكانت قصبتها أولاً مدينة (صُحار) فخربت، وبني بعد ذلك مدينة (قلهات) وأصبحت فرضة بلاد عُمان. ومن مدن عُمان (صور) وهي مدينة ساحلية، (ومسقط) وتقع على البحر كذلك، وكان الناس ينزلون فيها في أخصاص أيام الغوص على اللؤلؤ، ومن مدن عُمان (أدم) وهي مدينة برية مسورة، ومدينة (ميح) بالحاء المهملة، وهي مدينة مسورة تجر إليها المياه من المرتفعات المجاورة، ومدينة (نزوا) وتقع في واد بين جبلين، (وقلعة بهلاة) الواقعة على رأس جبل ممتنع، ثم مدينة (جُلّفار). وتشتهر بلاد عُمان بالافلاج، وهي شبه الأنهار، وتجر مياه هٰذه الأفلاج إلى المدن والقرى الساحلية، وتستخدم كذلك في ري الأراضي وزراعتها، ويصب بعضها في البحر[٥].

---

(١) الدمشقي، المصدر السابق، ص٨١، ٨٢.
(٢) الدمشقي، المصدر السابق، ص٨٢، وانظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: (١١/ ٣٢١).
(٣) الدمشقي، المصدر السابق، ص٨٢.
(٤) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢١٧، ٢١٨.
(٥) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢١٨.

أما أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) فعندما يتحدث عن الجزيرة العربية في كتابه (تقويم البلدان)، يذكر أن البحر الذي يحيط بجزيرة العرب من جهة الغرب هو بحر القلزم، وهذا البحر يمتد من أطراف اليمن إلى أيلة، ومن الشرق يحيط بها بحر فارس (الخليج العربي)، الذي يمتد من البصرة إلى البحرين ثم يمتد حتى يتجاوز عُمان، ويذكر أن عُمان تقع على فم الخليج الفارسي (الخليج العربي) حيث الطول ٧٤ درجة والعرض ١٩ درجة و ٤٥ دقيقة[1]. ويحيط بها من الجنوب بحر الهند الذي يمتد من عُمان إلى سواحل مهرة، ويستدير على اليمن إلى عدن[2]. ويصف مدينة (مرباط) فيقول: إنها تقع على ساحل خليج ظفار، وينبت بجبالها شجر اللبان ويجهز منها إلى البلاد[3]. أما (صُحار) فيذكر أنها قصبة عُمان وكانت في زمن أبي الفداء (القرن الثامن الهجري) خراباً، أما المدينة العامرة آنذاك فكانت مدينة (عُمان) وهي مدينة كبيرة بها مرسى السفن القادمة من السند والهند والصين وبلاد الزنج. وتبلغ مساحة بلاد عُمان ٣٠٠ فرسخ وهي ديار الأزد، وهي بلاد حارة جداً، كثيرة النخيل والفواكه[4].

ويذكر ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) في كتابه (تحفه النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) مدينة (ظفار) فيقول بأنها آخر بلاد اليمن، تقع على ساحل البحر الهندي، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند، وتقطع المراكب المسافة منها إلى الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل، والمسافة بين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً، وبينها وبين عُمان عشرون يوماً[5]. ثم يستطرد في حديثه عن ظفار فيذكر أن السوق يقع خارج المدينة في ربض يعرف

---

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٢.

(٢) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٧٨.

(٣) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٩٩.

(٤) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٩٩، والظاهر أن مسقط هي المدينة المقصودة هنا.

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (١/ ٢٨٥).

بالحرجاء، وأهلها أهل تواضع، وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء، ولباسهم القطن ويجلب إليهم من الهند، ويشدون الفوط في أوساطهم عوضاً عن السروال. وأكثرهم يشد فوطة في وسطه، وتجعل فوق ظهره أخرى وذلك من شدة الحر، ويغتسلون مرات في اليوم. ومدينة ظفار كثيرة المساجد، ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال. ويشتغل الأهالي بصيد السمك والزراعة، وأهم منتوجاتهم الزراعية: القمح والذرة، وبها بساتين جميلة يزرع فيها الموز الكثير الكبير الجرم، وهو حلو المذاق، والتنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند. أما التنبول فهو شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب، ويصنع له معرشات من القصب، كما تصنع لدوالي العنب، ولا ثمر للتنبول، إنما تستخدم أوراقه بعد اصفرارها فتمضع، ولها خاصية أنها تطيب النكهة، وتذهب روائح الفم وتهضم الطعام، ويفرّح أكله. أما النارجيل فهو شجر يشبه النخيل، وتثمر جوزاً عليه ليف يستخدم في صنع الحبال، ومن خواصه تقوية البدن، واسراع السمن،گوالزيادة في حمرة الوجه[١]. وأهالي ظفار أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها، يأكلون الأرز الذي يجلبونه من الهند، وهم يكرمون أصحاب المراكب القادمة إليهم استجلاباً لأصحابها[٢]. ويوجد بمنطقة ظفار شجر الكُنْدَر، وهو رقيق الورق إذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم يصبح صمغاً، وهٰذا الصمغ هو اللبان، وكمياته كثيرة في بعض المناطق[٣].

ثم يتحدث ابن بطوطة عن سلطان ظفار فيقول انه السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز، ابن عم ملك اليمن، وكان أبوه، أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن، وله عليه هدية يبعثها في كل سنة، إلا أن السلطان الملك المغيث استبد بملكها وامتنع عن ارسال

(١) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩.
(٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٨٦.
(٣) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩٢.

الهدية[١]. ولسلطان ظفار قصر بداخل المدينة يسمى الحصن وهو قصر عظيم فسيح، والجامع بازائه، وفي العادة فإن الطبول والبوقات والأنفار تضرب على بابه كل يوم بعد صلاة العصر، وفي كل اثنين وخميس تأتي العساكر فيقفون خارج القصر ساعة ثم ينصرفون، والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد إلا في يوم الجمعة عندما يخرج للصلاة، وبعد الصلاة يعود إلى قصره، وكان له وزير اسمه الفقيه محمد العدني[٢].

ومن المدن العُمانية الأخرى التي مر بها ابن بطوطة مدينة (صور) ويصفها بأنها مدينة كبيرة على ساحل البحر، ومنها يمكن مشاهدة مدينة (قلهات) الواقعة في سفح جبل[٣]. وقلهات مدينة ساحلية حسنة الأسواق، لها مسجد من أحسن المساجد، حيطانه من القاشاني، ويقع هٰذا المسجد في مرتفع من الارض، ويمكن منه رؤية البحر والمرسى، وقد بنى هٰذا المسجد الصالحة بِيبي مريم، ومعنى بيبي: الحرة. ويشتغل أهل قلهات بالتجارة، وتعتمد معيشتهم على الأرز ويأكلونه، ويقول ابن بطوطة بأنه لم يأكل مثله في اقليم من الاقاليم، وكان يفضله على جميع اللحوم فلا يأكل سواه[٤]. وعلى مقربة من قلهات تقع قرية (طيبّي) وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنا، ذات أنهار جارية، وأشجار ناضرة، وبساتين كثيرة. وتجلب الفواكه منها إلى قلهات، وفيها نوع من الموز المعروف (بالمرواري) ومعناه (الجوهر)، ولكثرته فإنه يجلب منها إلى هرمز وغيرها من المدن الأخرى[٥].

---

(١) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩١.

(٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩١.

وعادة ضرب الطبول والبوقات والصنجات أمام قصور الأمراء والسلاطين عادة مملوكية. كذلك كان السلطان أو النائب يخرج يومي الاثنين والخميس خارج المدينة تحف به قواته العسكرية ثم يعود إلى قصره.

(٣) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩٤.

(٤) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٥) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩٦.

ويقول بأن بلاد عُمان بلاد خصيبة، ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس، وقاعدة هٰذه البلاد مدينة (نزوا) التي تقع في سفح جبل تحف بها البساتين والأنهار. ومن مدن عُمان مدينة (زكي)، وهي مدينة عظيمة، والقريات، وشبا، وكلبا، وخورفكان، وصُحار، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل(١).

أما سلطان عُمان فهو عربي من قبيلة الأزد بن الغوث، ويعرف بأبي محمد بن نبهان، ويقول ابن بطوطة بأنه رجل فاضل حسن الأخلاق، وكان من عادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هناك، ولا حاجب له ولا وزير. وكان لا يمنع أحداً من الدخول إليه من غريب أو غيره، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعيّن له الضيافة ويعطيه على قدره. ومن عادة أهل نزوة أن كل إنسان منهم كان يأتي بما عنده، ويجتمعون للأكل في صحن المسجد، ويأكل معهم الوارد والصادر، ولهم نجدة وشجاعة(٢).

ويذكر الحميري (توفي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار) بأن شحر عُمان يمتد بين عُمان واليمن، وأن أرض الشحر متصلة بأرض حضرموت، ويسكن فيها قبائل (مهرة)، وهي دار عاد الأولى، وأما بلاد عاد فهي: الشحر وحضرموت والأحقاف(٣). والشحر مدينة كبيرة وليس بها زرع ولا ضرع، وتشتهر بالعنبر وشجرها الكندر، ويكثر بها اللاك وهي أشجار مثل أشجار التوت، إلا أنها لا تورق، ولكن الأغصان هي التي تحمل الكندر، وتحمل هٰذه الأصناف إلى الآفاق، وتمتاز بلاد الشحر بالابل السريعة التي لا يعدل بها شيء في سرعة جريها(٤).

---

(١) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩٧.

(٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٢٩٧.

(٣) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت ١٩٨٤م، ص٣٣٨.

(٤) الحميري، المصدر السابق، ص٣٣٩.

أما صُحار فيذكر أنها مدينة كبيرة بأرض عُمان وهي قصبتها، تقع على ساحل البحر، مساحتها فرسخ في فرسخ، ويستقي أهلها من الآبار، ويقول بأنها أقدم مدن عُمان وأكثرها أموالاً قديماً وحديثاً، ويقصدها في كل سنة من التجار مالا يحصى عددهم، وتجلب إليها جميع بضائع اليمن، وتجهز منها بأنواع التجارت. وكانت مرسى لمراكب الصين والهند، فتسافر منها تلك المراكب بعد أن تحمل بالسلع المختلفة، وظل الأمر كذلك حتى قام عامل جزيرة (كيش) بانشاء أسطول غزا به بلاد اليمن الساحلية، فأضر بالمسافرين والتجار، ولم يترك لأحد مالاً، فتسبب في اضعاف البلاد وانقطعت السفن عن عُمان. وكانت صُحار قبل ذلك مجتمع التجار، ومنها يتجهز لكل بلدة، وهٰذا ما زاد في ثروة أهالي البلاد وسعة عيشهم. ويزرع في منطقة صُحار النخيل والموز والرمان والسفرجل وكثير من الثمار الطيبة(١).

وفي حديث الحميري عن بلاد عُمان يقول: بلاد عُمان متصلة بأرض مهرة وهي مجاورة لها من جهة الشمال، ويتصل بها من جهة الغرب والشمال أرض اليمامة، وهي بلاد مستقلة في ذاتها عامرة بأهلها، كثيرة النخيل والفواكه والموز والرمان والتين والعنب. وتبلغ مساحة عُمان ٨٠ فرسخاً في مثلها، فما والى البحر منها سهول ورمال، وما تباعد منه حزون (أرض غليظة) وجبال، ولها عدة مدن منها مدينة (عُمان) وتقع على ساحل البحر وهي مدينة حصينة، وعلى الجانب الآخر يحيط بها جبل فيه مياه سائحة قد أجريت إلى المدينة، وهي كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه. وبمدينة عُمان الخانات والحمامات التي بنيت خدمة للتجار القادمين إليها، وطعام أهالي عُمان الحنطة والشعير والأرز والجاورس، ولمدينة عُمان سور به أبواب من حديد، وبها أسواق كثيرة، وهي فرضة الصين، تحمل إليها الأمتعة من سيراف وتكون الحمولة في قوارب صغيرة، ثم تحمّل تلك البضائع في مراكب كبيرة عظيمة، فتسير في البحر العظيم بالريح الطيبة باتجاه الهند والصين.

وخراج أهل عُمان على المقاطعة ٨٠ ألف دينار، وقيل في الأمثال: من تعذر عليه

---

(١) الحميري، المصدر السابق، ص٣٥٤، ٣٥٥.

الرزق فعليه بعُمان، ولسعة خيراتها وكثرة ثروتها فقد أهدى صاحب عُمان بعد سنة ٤٢٠هـ محاريب من الفضة إلى الكعبة المشرّفة، زنة المحراب أزيد من قنطار فضة، بالاضافة إلى قناديل مصنوعة من الفضة في غاية الدقة والأحكام، وقد سمرت هٰذه المحاريب في جوف الكعبة مما يقابل بابها، بالاضافة إلى شهرتها باللؤلؤ الجيد.

ويوجد في بلاد عُمان حية تسمى (العربد)، وهي حية تنفخ ولا تؤذي، وبها دويبّة تسمى القراد، فإذا ظفرت بانسان عضته، عندئذ تتزايد العضة وتتقيح حتى تهلك الإنسان. وبجبالها قرود كثيرة تضر بأهلها ضرراً كلياً، وربما اجتمع منها العدد الكبير حتى لا يطاق دفاعها إلا بالخروج إليها بالسهام والسلاح العام[١].

أما (مسقط) فيذكر أنها في طريق عُمان على البحر، يمر عليها من أراد بلاد الهند والصين، فيسير مع الشمال تلقاء الجنوب حتى يصل إلى مسقط، وتقع هٰذه المدينة بين جبلين، وترسو فيها السفن حيث تستقي من آبارها العذبة، وتحمل تلك السفن الحجارة من مسقط لرمي العدو إذا خرج عليها، وتبعد مسقط عن شحر وحضرموت مسافة ٩٠ فرسخاً[٢].

وأخيراً فإن القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) يذكر في سفره (صبح الأعشى في صناعة الانشا) بلاد عُمان فيقول: إن قاعدتها مدينة (عُمان)، وتقع على البحر تحت البصرة، وهي مدينة جليلة بها مرسى السفن من السند والهند والزنج، وليس على بحر فارس مدينة أجلّ منها، وهي ديار الأزد، وتبلغ نحو ٣٠٠ فرسخ، كثيرة الفواكه والنخيل، ولكنها حارة جداً، وكانت قصبة بلاد عُمان قديماً مدينة (صُحَار) بضم الصاد وفتح الحاء، وهي في زمن القلقشندي (القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي) خراب[٣].

---

(١) الحميري، المصدر السابق، ص٤١٣.

(٢) الحميري، المصدر السابق، ص٥٥٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (٥/ ٥٥).



الدراسة والنتائج

من خلال دراستنا لما سبق من أقوال الجغرافيين العرب يمكننا أن نجمل أهم ما جاء فيها بما يلي:

أولاً: التضاريس والمناخ:

بلاد عُمان مستقلة بذاتها عامرة بأهلها، يحيط بها من الشرق صحراء الربع الخالي فتعزلها عن وسط الجزيرة العربية، أما غرباً فيحيط بها المحيط الهندي أو البحر العظيم (بحر الزنج)، وقد وصف هٰذا البحر بأنه حفيرة واحدة عميقة واسعة، وأمواجه عظام، ولذلك البحر ريح تهب قوية. وعلى هٰذا الساحل العديد من الأجوان (الخلجان) الطبيعية، والرؤوس الداخلة في عمق المحيط. وبسبب هٰذه العزلة أصبحت لعُمان شخصيتها المميزة، فاتجه أهلها نحو البحر حيث المغامرة وركوب البحر وحب الأسفار والرحلات.

أما في الداخل ففيها العديد من الجبال التي تتخللها الأودية السحيقة التي يتجه بعضها نحو البحر، والأخرى تتجه نحو الربع الخالي، ويوجد في هٰذه الأفلاج ذات المياه العذبة، والسيول السائحة التي أقيمت حولها الزراعات الكثيفة، والتجمعات السكانية المتعددة.

وقد وصفت بلاد عُمان بأنها (صفوة الأرض من الأرضين)، شديدة الحرارة كثيرة الرطوبة صيفاً، أمطارها قليلة إلا أن منطقة ظفار تشتهر بأمطارها الموسمية، ومع ذلك ففي أعلى جبل شرم الشاهق الارتفاع ينزل ثلج قليل في بعض الأحيان.

أما المدن والقرى التي ذكرها الجغرافيون العرب منذ القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) حتى القرن (التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) هي:

صُحار، قلهات، مسقط، مرباط، ظفار، السر، ضَنْك، حفيت، جُلّفار، سَمَد، لِسْيا، سلوت، دبا، مِلَحْ، برنم، القلعة، ضنكان، توأم، القريات، شبا، الخيل، سعال، العفر، بترون، صَحْم، صور، أدم، شمليل، كلبا، خورفكان، منح، قلعة بهلاة، طيوي، طيبي، زكي، نزوة، سرعان.

وكانت صُحار قصبة بلاد عُمان، وأطلق عليها بعض الجغرافيين اسم (عُمان) من باب تغليب الجزء على الكل، ثم انتقل النشاط التجاري والملاحي إلى (قلهات)، ولم يدم الأمر طويلاً، فأخذت (مسقط) تتبوأ مكان الصدارة بين المدن الساحلية العُمانية وأصبحت قصبة بلاد عُمان.

ثانياً: التجارة:

لعبت عُمان دوراً متميزاً في التجارة الدولية في العصور الوسطى وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع الشرق والسواحل الشرقية لافريقية، وكان العُمانيون يجوبون عباب المحيط الهندي وجزره وسواحله للتجارة، فأصبحت لديهم دراية بركوب البحر وأصبح منهم الربابنة والأدلاء الذين لديهم معرفة وخبرة واسعة في أمور البحار وجزر المحيط الهندي والسواحل الآسيوية والافريقية. فنقلوا معهم سلع بلادهم والأقطار المجاورة، وعادوا بالسلع الشرقية التي كانت رائجة في أسواق مصر والشام والبلاد الأوروبية. فجنوا من ذلك ثروات واسعة، وعاش أهلها في سعة من العيش، وأصبحت عُمان محط أنظار التجار من جميع الأقطار. ومن هنا فقد قيل «من تعذر عليه الرزق فعليه بعُمان»، ووصفت مدينة صُحار بأنها دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن.

أما أهم السلع التي كانت تنقلها المراكب القادمة إلى عُمان من الصين والهند وافريقيا فهي: المسك، والعود، والكافور، والدار صيني، والحرير، والعنبر، والفلفل، والبقمّ، والساج، والقرنفل، والصندل، والزعفران، والديباج، والجزع، والأبنوس، والنارجيل،

والقند، والرصاص، والحديد، والبلور، والنيل، والخيرزان، والياقوت، والألماس، والعطور، والأعشاب الطبية، والساسم، والعاج، والطاووس، والببغاء، والدجاج السندي. أما السلع العُمانية التي كانت تحمل إلى الهند والصين فهي: القنى (الرماح العُمانية)، والخيول العربية، واللؤلؤ، والسيوف، والإبل المهرية، والبرود والأردية والثياب الموشاة بالقصب. أما السلع التي كانت تنقل من عُمان إلى عدن ومنطقة الخليج العربي فهي: اللؤلؤ، والكندر، واللاك، والضّجاج (صمغ أبيض تغسل به الثياب فينقيها مثل الصابون)، والمقل الأزرق (صمغ يشبه الكندر)، وعود اليُسْر، والسيوف، والبرود، والأردية العذبة، والثياب الموشاة بالقصب، والسعيدي، والوشي، والمغمّر، الحُبُر، والمآزر، والإبل المهرية، والجزع الظفاري الجيد، والصناعات الفضية المتقنة الصنع.

وقد تميزت مدن عُمان الساحلية كصُحار وظفار ومرباط ومسقط وقلهات، بأسواقها الواسعة المتشعبة، وكان يقصدها التجار بالآلاف من جميع أنحاء البلاد، فكانت تلك المدن في حركة دائبة مستمرة تستقبل المراكب العظيمة المحملة بالسلع المختلفة، والمراكب الصغيرة القادمة من سيراف او موانيء الخليج العربي، حتى أنه وجد في مدينة صُحار ١٩٢ قباناً لوزن السلع والبضائع المختلفة للطالب والمطلوب، وهٰذا يدلل على كثافة تجارة هٰذه المدينة الهامة، ومن هنا فقد قيل: «بأنه لا تكاد تعرف على ساحل بحر فارس (الخليج العربي) بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صُحار».

وقد احيطت بعض تلك المدن بالأسوار المنيعة الحصينة المزودة بأبواب مصنوعة من الحديد الصلب، وخدمة للتجار القادمين إليها فقد أقيمت الخانات والحمامات. وقد أدت هٰذه التجارة الكثيفة إلى أن كثرت خيرات أهلها وزادت ثرواتهم وأموالهم، وعاش الناس في سعة من العيش، فسكنوا في بيوت شاهقة نفيسة مبنية بالآجر والساج، مزودة بالرياش الجميلة. ولم تزودنا المصادر الجغرافية عن نمط تقسيم الأسواق هل كانت أسواقاً متخصصة كما كان متبعاً في المدن الإسلامية الأخرى، وهل وجدت فيها دور

الوكالة أو القيساريات؟ ولا شك أن الخانات قد حلت محل تلك الوكالات أو القيساريات، بالاضافة إلى أن المصادر كذلك لم تسعفنا عن الأسلوب المتبع في اتمام المعاملات التجارية وطريقة بيعها.

وبسبب هٰذا الثراء الذي اشتهرت به عُمان في العصر الإسلامي، فقد ذكرت المصادر أن خراجها بلغ ٣٠٠ ألف دينار سنوياً، إلا أن المصادر المتأخرة ذكرت أن الخراج بدأ بالتناقص حتى بلغ في بعض الأحيان إلى ٨٠ ألف دينار، ولا شك أن هٰذا النقص كان نتيجة تحول طرق التجارة عن سواحل عُمان إلى عدن بسبب أعمال القرصنة البحرية والمنطلقة من بعض الجزر المقابلة لسواحل عُمان.

وقد كان يستوفى من التجار القادمين إلى عُمان ضريبة العشر، وكان ذلك يشكل دخلاً مرتفعاً لسلطان عُمان، وقد لاحظنا أن هٰذه الضريبة بدأت في الارتفاع حتى أن السلطان كان في بعض الأحيان يتقاضى الثلث من أموال التجار. وباعتقادي أن هٰذا كان يشكل عبئاً على التجار، وربما كان سبباً من الأسباب التي دعت التجارة تتحول عن بعض المدن العُمانية إلى المناطق الأخرى المجاورة كعدن وغيرها.

وكانت المعاملات التجارية تتم بالدينار، وكان الدينار العُماني يساوي ٣٠ درهماً، وقد سميت هٰذه الدراهم العُمانية (بالطسوة) وهناك القيراط الذي هو جزء من الدرهم. أما المكاييل والأوزان التي استخدمها العُمانيون فكانت: الصاع، والمد، والمكوك، وكان لهم بالمراكب صاعان، يعطون بأحدهما جرايات الملاحين، ويتعاملون بالصاع الكبير، أما أوزانهم فكانت تتم بالرطل (وسمي بالمن)، وأجزائه، بالاضافة إلى المثقال.

ثالثاً: الصناعة:

زاول العُمانيون عدداً من الصناعات وبرعوا فيها، بالاضافة إلى حرف أخرى كانت مصدر رزق لقطاع كبير منهم ومن هٰذه الصناعات التي ذكرتها المصادر الجغرافية نذكر:

١- الصناعات الفضية:

وقد أشار البكري والحميري إلى هٰذه الصناعة المتقنة، حتى أن صاحب عُمان أهدى إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة قبل سنة ٤٢٠هـ محاريب من الفضة، وقناديل فضية في غاية من الدقة والاحكام، زنة المحراب أكثر من قنطار فضة، وقد سمرت تلك المحاريب في جوف الكعبة مما يقابل بابها. وأرى أن صناعة المجوهرات كانت موجودة في عُمان، خصوصاً وأن اللؤلؤ كان يستخرج من مغاصاتها، وتأتي إليها اليواقيت والألماس والعاج من الهند والصين وافريقية.

٢- صناعة القنى والسيوف:

ذكرت المصادر الجغرافية عن وجود القنى (الرماح) العُمانية وكانت تصدر إلى بلاد الهند والصين، كما أشارت تلك المصادر إلى السيوف العُمانية التي وجدت أسواقاً وطلباً في البلدان الأخرى، أما الحديد فكان مستورداً من الصين.

٣- صناعة المراكب والحبال:

تحدث الادريسي عن صناعة السفن في صُحار ومرباط، حيث كانت تلك المراكب وصواريها تصنع من خشب النارجيل، بعد أن تصف الألواح وتربط بالحبال المصنوعة من ليف النارجيل وخوصه. أما السفن الكبيرة فقد استخدم في صناعتها الأخشاب المقطوعة من مناطق ظفار والجبل الأخضر أو من الأخشاب المستوردة من الهند وافريقية.

٤- الأنسجة والملابس:

اشتهرت منطقة ظفار بالثياب المطرزة بالقصب، وأنواع أخرى تسمى السعيديّ، والوشي والمغمّر، الحُبُر، بالاضافة غلى البرود والأردية الجميلة. أما مدينة نزوة، فقد اشتهرت بالثياب المنمقة بالحرير، وهي ثياب جيدة فائقة لا يعمل مثلها في بلاد العرب،

بالاضافة إلى المآزر. وقد شاهد ياقوت الحموي بعضاً منها واستحسنها، وذكر بأن أثمانها مرتفعة جداً ومبالغ فيها، والظاهر أن هٰذه الثياب كانت تجد طلباً في البلدان الأخرى ورواجاً لدقة صناعتها وجودتها.

٥- الغوص على اللؤلؤ:

وجد في سواحل عُمان مغاوص اللؤلؤ، وكان الغواصون يأتون إلى تلك المغاوص في مواسم خاصة ويعملون لحساب غيرهم، وفي العادة كانوا يغوصون من بكرة النهار إلى نصفه، ويتقاضى كل غواص من قيراط إلى نصف درهم عن كل يوم. وبعد أن يجمعوا الصدف يقومون بشقّه إلى آخر النهار، وكان لؤلؤ مغاوص عُمان من نوع جيد، إذ كان بعضها يباع بعشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف دينار. وتذكر المصادر أن اللؤلؤ نوعان: كبير ويسمى الدرّ، وصغير ويسمى اللؤلؤ، وأجود الدرّ المدحرج الصافي الشفاف الكبير الجرم الرزين النقيّ، ويتفاوت في الوزن من نصف مثقال إلى مثقال ونصف، وأجود اللؤلؤ النقي المستدير.

٦- صيد الأسماك، وعود اليُسْر:

اشتغل العُمانيون بصيد الأسماك، وكانوا يعتمدون على أكله في بعض المناطق، وكانت الأسماك من الكثرة بحيث أنهم كانوا يجففونها، وفي أحيان كانت تطعم لدوابهم.

كذلك استخرجوا قضبان عود اليُسْر التي كانت تتولد في بحر عُمان، وفي العادة فكان قلعها يتم في شهر تشرين الأول وما بعده، وعود اليُسْر هٰذا شديد السواد، طيب الرائحة، وكلما استعمل اشتد بريقه. وكان هٰذا العود يصدر إلى البلدان الأخرى.

٧- صناعات تعتمد على المنتوجات الزراعية:

ومن تلك الصناعات (اللبان) الذي يستخرج من شجر اللبان الذي اشتهرت به بعض مناطق عُمان وظفار، ثم (المقل الأزرق) ويسمى كوراً، وهو صمغ يشبه الكُنْدر، طيب

الرائحة، وشجرته كشجرة اللبان. (والضجاج)، شجر يشبه شجر اللبان ينبت في جبل يقال له (قهوان) من أرض عُمان، ويستخرج منه هٰذا الصمغ، وهو صمغ أبيض تغسل به الثياب فينقيها مثل الصابون، ولهٰذه الشجرة حب مثل الآس أسود يلذع اللسان.

رابعاً: الزراعة:

وصف الجغرافيون العرب أرض عُمان بأنها صفوة الأرض من الأرضين، وأنها بمكان الرأس من بقية أراضي البلدان الأخرى، وقالوا: بأن حشوش الدنيا (مجمع النخيل) ثلاثة: عُمان، والأبلّة، وسيراف. ومن أشهر محاصيلها الزراعية: الحنطة، والشعير، والذرة، والجاورس، وقصب السكر، والفواكه كالرمان والسفرجل والعنب والنبق، والتين، والموز الذي اشتهر منه نوع كان يزرع في منطقة قلهات يسمى (بالمرواري) ومعناها الجوهر، وكان من الكثرة والجودة بحيث أنه نقل إلى هرمز على الخليج العربي.

وهناك أشجار النارجيل (جوز الهند)، والتنبول، والفوفل، والعنبا، واللبان، والكندر، واللاك، بالاضافة إلى النخيل الذي زرع بكميات كبيرة في بلاد عُمان، فقد ذكر الجغرافيون حدائق النخيل وكثافتها في معظم المناطق، ومن تمورها الجيدة أصناف ثلاثة: الفرض، والبلعق، والخبوت، وكان سلطان عُمان يتقاضى درهماً في السنة عن كل نخلة يملكها المزارع، وكان يشكل ذلك دخلاً طيباً له بسبب كثرة أشجار النخيل.

واستطاع الإنسان العُماني أن يستخدم تقنية متقدمة في الاستفادة من الطاقة المائية، فقد كثرت الينابيع العذبة في منطقة الجبال الداخلية والتي سميت بالافلاج، فقد تمكن العُمانيون من بناء القنوات وجرها إلى المزارع العديدة، وأدخلوها إلى المدن والقرى للري والسقيا، وكانت مياه الافلاج من الغزارة والكثرة حتى وصفها بعضهم بالأنهار، ولا شك أنهم قد أقاموا على مجاري تلك الأفلاج الطواحين لطحن الدقيق كغيرهم من البلدان، ولا استبعد أن تكون هناك طواحين السكر ما داموا قد زرعوا قصب السكر، ولعل المصادر الأخرى والكشوف الأثرية ستسعفنا مستقبلاً في اثبات ذلك.

وعاشت الحيوانات الأليفة في مناطق عُمان المختلفة نذكر منها: الأبقار، والابل، والخيول العربية، والماعز، والأغنام، وانتج الفلاحون الجبن والسمن ونقلوه إلى البلدان المجاورة.

وذكرت المصادر عن وجود القردة التي عاشت بأعداد كبيرة في جبال عُمان، وكانت تسبب ضرراً للأهالي ومحاصيلهم الزراعية، كما وجدت حية سميت (العربد)، وهي حية تنفخ ولا تؤذي سريعة القفز.

خامساً: المجتمع:

وصفت عُمان بأنها بلاد الأزد وهم قبائل: يحمد، وحدّان، مالك والحارث، وعتيك، وجديد، وسكان عُمان مسلمون وغالبيتهم على مذهب الأباضية. إن طبيعة الأرض العُمانية جعلت العُمانيين يتجهون نحو البحر تجاراً وربابنة وملاحين وأدلاء، فوصلت جالياتهم إلى السواحل الشرقية لافريقية ومناطق الشرق الأقصى وجزر المحيط الهندي، إما للتجارة أو للاقامة، وكان لهم دور كبير في نشر الدين الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية في تلك الاصقاع. بالاضافة إلى أنهم اشتغلوا بالزراعة والصناعة وصيد الأسماك واللؤلؤ وعود اليُسْر والمرجان، فالشعب العُماني كان شعباً نشطاً، له علاقاته مع منطقة الخليج العربي وسواحل البحر الأحمر، وافريقية والشرق الأقصى، فجنى من ذلك ثروات طائلة انعكست على حياته وعطائه الحضاري من جميع النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والزراعية.

وقد اهتم العُمانيون بالعمران والبناء، فسكنوا في بيوت شاهقة نفيسة، مبنية من الآجر والساج، نلحظ ذلك في مدنهم كصُحار وقلهات ومسقط، وأقاموا المؤسسات الاجتماعية كالخانات (الفنادق) والحمامات خدمة للتجار القادمين إليهم، أما في القرى فقد سكنوا في بيوت من الطين، وقد زودت تلك البيوت بالرياش الجميلة وتوفر فيها كل وسائل الراحة لهم، أما مدنهم فقد أحيط بعضها بالأسوار المنيعة الحصينة المزودة بأبواب الحديد الصلد.

وبسبب هٰذا الثراء فقد اهتموا ببناء المساجد الجميلة ذات المنارات الطويلة الحسنة، وتفننوا في بنيانها حتى أن بعضها بنيت حيطانه بالقاشاني المجلوب من البلدان الأخرى،

كا زود بعضها بالمحاريب المتقنة الصنع، من ذلك مسجد مدينة صُحار الذي كان له محراب يدور بلولب، تراه مرة أصفر، وكرة أخضر وحيناً أحمر.

ووصِف العُمانيون بأنهم أهل تواضع وفضيلة وحسن أخلاق، وأهل نجدة وشجاعة يحبون الغرباء ويكرمونهم، وخصوصاً أصحاب المراكب التجارية استجلاباً لهم، وهي ميزة جعلت من بلادهم مركزاً تجارياً مرموقاً في قلب حركة التجارة الدولية في العصور الوسطى. ومن عاداتهم الجيدة أن أهل (نزوة) كان كل إنسان منهم يأتي بما عنده ويجتمعون للأكل في صحن المسجد، ويأكل معهم الوارد والصادر، وهي عادة اجتماعية ممتازة تنّم عن روح المحبة والتعاون والألفة التي كانت سائدة بينهم، بالاضافة إلى إطعام القادمين والغرباء والمحتاجين.

وكان العُمانيون يلبسون الألبسة المصنوعة في بلادهم أو المجلوبة من الخارج، أما ألبستهم المصنوعة في عُمان فكان صنف منها مرتفع السعر لا يلبسه سوى الأثرياء، وهي ثياب مطرزة، منمقة بالحرير والقصب، بالاضافة إلى البرود والأردية النفيسة. وبعضهم كان يلبس الألبسة القطنية المجلوبة من الهند، وكانوا في بعض المناطق يشدون أوساطهم بالفوط عوضاً عن السروال، ويجعلون فوق ظهورهم أخرى وذلك من شدة الحر. ووصف العُمانيون بالنظافة فاسخدموا العطور، وكانوا يغتسلون مرات عديدة في اليوم.

أما طعامهم فقد كانوا يأكلون القمح والذرة والأرز، والفواكه العديدة المزرعة في بلادهم، والتمور بأنواعها، وكانوا يستخدمون الأعشاب الطبية، واستخدموا التوابل في أطعمتهم، وعرفوا قصب السكر وزرعوه، ولا شك أنهم استخرجوا منه السكر، وأكلوا النارجيل (جوز الهند) وكان من خواصه تقوية البدن والاسراع في السمنة، والزيادة في حمرة الوجه. واستخدموا التنبول، فكانوا يمضغون أوراقه بعد اصفرارها، لأنها تطيب النكهة، وتذهب روائح الفم، وتساعد على الهضم. واعتادوا أكل السمك المشوي مع الأرز، وكان طعاماً مفضلاً لديهم، وقد أكل منه ابن بطوطة وقال بأنه لم يأكل مثله في اقليم من الأقاليم، وكان يفضله على جميع اللحوم فلا يأكل سواه.

وعلى العموم فقد كان مجتمع المدينة في عُمان مجتمعاً تجارياً ثرياً، أما في الأرياف فكان مجتمعهم زراعياً مستقراً، عرفوا الزراعة الكثيفة، وكانت لديهم دراية في استخدام

الطاقة المائية خير استخدام، فحفروا القنوات وجروا مياه الأفلاج إلى مزارعهم وحدائقهم ومدنهم وقراهم.

وقد وصف الجغرافيون بلاد عُمان بكورة وولاية واقليم، و كان يحكمها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) سلطان عربي من قبيلة الأزد بن الغوث، ويعرف بأبي محمد بن نبهان، وكان رجلاً فاضلاً حسن الأخلاق. ومن عادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هناك بدون حاجب ولا وزير، وكان لا يمنع أحداً من الدخول إليه من غريب وغيره، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره. أما مقر السلطان فكان مدينة (نزوة)، ولا شك أن السلطان استخدم قوات عسكرية للحفاظ على أمن وسلامة سلطنته، وكان له أعوانه ومساعدوه لادارة دواوين السلطنة، وأن لم تسعفنا المصادر الجغرافية عن ذلك.

وهٰكذا فمن خلال استقرائنا للنصوص السابقة نستطيع الاستنتاج بأن طبقات المجتمع العُماني في العصر الإسلامي كانت تتكون من:

أ- الطبقة الحاكمة، المكونة من السلطان وأرباب السلطة وأركان الدولة وكان السلطان يتمتع بسلطة روحية هي الإمامة في بعض الأحيان.

ب- طبقة العلماء والفقهاء.

جـ- طبقة أهالي المدن ومنهم التجار وأرباب الصناعات والحرف والمهن الأخرى نذكر منهم:

طبقة الربابنة والملاحين والأدلاء، وكانوا أهل مغامرة وتنقل بين عُمان وافريقية والشرق الأقصى، وممن وصل إلينا من الربابنة العُمانيين: يزيد العُماني ناخوذة الزنج، فكان يبحر إلى بلاد الزنج وله معرفة جيدة بتلك المناطق.

د- طبقة أهالي القرى، وكانوا فلاحين يزاولون الزراعة وتربية الماشية وبعض المهن الأخرى.

هـ- طبقة البدو، وقد عاشوا على الرعي وتربية الماشية من أغنام وأبقار، وابل، وخيول عربية.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر

– **ابن أيبك**، كنز الدرر وجامع الغرر، وهو: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عاشور، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٢م.

– **ابن الأثير**، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

– ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.

. . . . .، نشق الأزهار في عجائب الأقطار، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة.

– **ابن الاخوة**، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

– **ابن بسام**، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

– **ابن بطوطة**، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكناني، مؤسسة الرسالة، ط٢ بيروت، ١٩٧٩م.

– **ابن تغري بردي**، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة (ب -ت).

–. . . . . .، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق وليم بوير، كلفورنيا، ١٩٣١م.

– **ابن جبير**، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

– **ابن حوقل**، كتاب صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت (ب-ت).

– **ابن حجي**، الذيل على تاريخ ابن كثير، أو تاريخ ابن حجي، تحقيق عمر الشامي، رسالة ماجستير في جامعة اليرموك، ١٩٩٩م.

– **ابن حجر العسقلاني**، أبناء الغمر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٩م.

– **ابن خلدون**، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.

– **ابن خردانبة**، المسالك والممالك، ليدن، بريل، ١٨٨٩م.

– **ابن رستة**، كتاب الأعلاق الخطيرة، ليدن، بريل، طبعة ١٩٦٧م.

– **ابن واصل**، مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، الجزء الأول، مطبعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣م.

– **أبو الفداء**، المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الشاهانية، القسطنطينية، ١٢٨٦هـ.

–......، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

– **الادريسي**، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الثاني، طبع روما، ١٩٧١م.

–......، الجزء الخاص بوصف الهند وما يجاورها من البلاد، تحقيق مقبول أحمد، الجامعة الإسلامية، الهند، ١٩٥٤م.

– **الأسدي**، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

– **الازدي**، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠م.

– **البكري**، جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم، دار السلاسل، الكويت، ١٩٧٧م.

– **البلاذري**، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

– **البغدادي**، مراصد الإطلاع، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤م.

- **بنيامين التطلي**، رحلة بنيامين (٥٦١-٥٦٩هـ)، نقلها إلى العربية عزاز حداد، بغداد، ١٩٤٥م.

- **التاجر سليمان**، سلسلة التواريخ، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨١١م.

-.......، الكتاب الثاني للسيرافي المكتوب سنة ٥٦٥هـ في نهاية كتاب التاجر سليمان.

- **جوانفيل**، مذكرات جوانفيل أو القديس لويس، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

- **الحميري**، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت، ١٩٨٤م.

- **الحنبلي**، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، الأردن، ١٩٧٣م.

- **الخالدي**، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا، مخطوط مكتبة جامعة القاهرة.

- **الدمشقي**، نخبة الدهر في عجائب الدهر، مكتبة المثنى، بغداد عن طبعة بطرسبرج، ١٨٦٦م.

- **الذهبي**، دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

- **سبط ابن الجوزي**، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مخطوط مصور في شيكاغو يبدأ من سنة ٤٩٥هـ إلى سنة ٦٥٤هـ، مكتبة بلدية الإسكندرية، رقم ١٨٧٨ب.

- **السبكي**، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وزملاؤه، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م.

- **الصفدي**، الوافي بالوفيات، تحقيق هـ. ريتر، مطبعة صادر، بيروت، ١٩٦٢-١٩٧١م.

- **الطبري**، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، ١١ جزءاً، القاهرة، ط٣، ١٩٦٢م.

- **العماد الكاتب الأصفهاني**، الفتح القسّى في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

- **العيني**، عقد الجمان في تاريخ الزمان، ج٢ ص٢ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤.

- **القفطي**، أخبار العلماء بإخبار الحكماء، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٣٦هـ.

- **القزويني**، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (ب - ت).

- **القلقشندي**، صبح الأعشى في صناعة الانشا، نسخة مصورة، دار الكتب المصرية، القاهرة، (ب - ت).

- **الماوردي**، الأحكام السلطانية، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٩٧٨م.

- **المقدسي**، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن، بريل، ١٩٦٧م.

- **المقريزي**، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٤ أجزاء، ١٩٣٤-١٩٧٣م.

-......، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، دار الطباعة المصرية، القاهرة، ١٨٥٣م.

- **ناصر خسرو**، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م.

- **النويري**، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، الأجزاء، ٧، ١٥، ١٧، ١٩، القاهرة، (ب - ت).

- **النويري الإسكندري**، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال، ٧ أجزاء، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٦٨-١٩٧٦م.

- **الهمداني**، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤م.

- **الواقدي**، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٦م.

- . . . . ، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (ب -ت).

- **وثائق المتحف الإسلامي في المسجد الأقصى في القدس**، اكتشفت في قبة الصخرة، وتبلغ ٧٥٠ وثيقة من العصر المملوكي، مكتوبة على رقاع من الرق.

- **يحيى بن الحسين**، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٦٨م.

- **ياقوت**، معجم البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٧٩م.

ب- المراجع العربية والمعربة:

- **احمد مختار العبادي**، البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، بحث في كتاب تاريخ البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣م.

- **إبراهيم بيضون**، الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٣م.

- أحمد إبراهيم الشريف، الدولة الإسلامية الأولى، دار العلم، القاهرة، ١٩٦٥م.

- **أنولد توماس**، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وزميله، القاهرة، ١٩٥٧م.

- **ايدرس بل**، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة عبد اللطيف احمد علي، بيروت، ١٩٧٢م.

- **اشتور**، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.

- **جورج فاضلو حوراني**، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

- **جوايتان**، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م.

- **جوزيف نسيم**، تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

- **درويش النخيلي**، السفن الإسلامية على حروف المعجم، مطابع الأهرام، الإسكندرية، ١٩٧٤م.

- **سعيد عاشور**، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٢م.

-......، الظاهر بيبرس، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، ١٩٦٣م.

- **طه ثلجي الطراونة**، مملكة صفد في عهد المماليك، .دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.

- **عبد الله يوسف غنيم**، اقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة، الكويت، ١٩٨١م.

- **عبد الأمير عبد دكسن**، عمان في كتابات جغرافيي القرنين الثالث والرابع الهجري، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين، كلية آداب جامعة الموصل، العدد ٨، عام ١٩٨٨م.

- **عبد العزيز سالم**، البحرية المصرية في العصر الفاطمي، بحث في كتاب تاريخ البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣م.

- **عبد اللطيف احمد علي**، محاضرات في العصر الهلنستي، مطبعة كريدية، بيروت، ١٩٧٢م.

- **عمر فروخ**، العرب والاسلام، المكتبة التجارية، ط٢، بيروت، ١٩٦٦م.

- **فشر**، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، والباز العريني، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

- **ماير**، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

- **محمد عبد العال**، بنو رسول في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

- ......، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، نصوص تاريخية من كتاب بامخرمة، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

- **محمد حميد الله الحيدري**، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤١ .

- **محمد عواد حسين**، البحرية المصرية في عهد البطالمة، بحث في كتاب البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣م.

- **منذر عبد الكريم اكبر**، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٠م.

- **محمد فاتح عقيل**، أهمية الموقع الجغرافي لسواحل مصر العربية، بحث في كتاب البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣م.

- **محمود علي عطا الله**، نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦م.

- **نقولا زيادة**، فيلكس فابري في فلسطين، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٨٠م.

- **نجيب ميخائيل**، البحرية المصرية في العهد الفرعوني، بحث في كتاب البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣م.

- **نعيم زكي فهمي**، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

- **نعوم شقير**، سيناء والعرب، القاهرة، ١٩١٦م.

- **يوسف حسن غوانمة**، عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء، عمان، الأردن، ١٩٧٩م.

-. . . . . ، إمارة الكرك الأيوبية، ط٢، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.

-. . . . . ، التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، ط٢، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.

-. . . . . ، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط٢، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.

-. . . . . ، الأفضل بن بدر الجمال وموقفه من الحملة الصليبية الأولى، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المجلد العاشر، ١٩٨٣م.

-. . . . . ، الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب بلاد الشام في العصر المملوكي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان (١٣، ١٤)، ١٩٨٣م.

-. . . . . ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.

-. . . . . ، معركة اليرموك، دار هشام، اربد، الأردن، ١٩٨٥م.

-. . . . . ، الحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي، دار هشام، اربد، ١٩٨٤م.

-. . . . . ، أيلة العقبة والبحر الأحمر، دار هشام، اربد، الأردن، ١٩٨٤م.

-. . . . . ، أضرحة الصحابة في غور الأردن، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، اربد، الأردن، ١٩٨٦م.

-. . . . . ، في استراتيجية الفتوحات الإسلامية للديار الشامية، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ٢، العدد ٢، عام ١٩٨٦م.

- . . . . ، مقامات الصحابة في غور الأردن، منشورات وزارة الشباب، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.

- . . . . ، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.

- . . . . . . ، صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، الأردن، ١٩٩٩م.

ج- المراجع الأجنبية

-Atiya, Crusade, Commerce and culture, New York, Indiana University press, 1962.

-Benvenisti, The Crusades in the Holy Land, Jerusalem, Israel University press, 1970.

-Cohen & Lewis, Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Prenceton University press, 1978.

-Fedden, Syria an Historical Appreciation, London 1946.

- Grant, The Syrian desert, New York, 1938.

- Haussing, A History of Byzantine Civilization, Translated by, J.M Hussey, New York, 1971.

- Heyd, Histoir du Commerce du Levant an Moyen Age, Leipzig, 1886.

- Kammerer, Le Mer Rouge, Le Caire, 1929-1935.

- Lane - poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.

- Moss, The Birth of the Middle Ages, New York, 1977.

- Navayan, Oman and Gulf Security, 1979.

- Ostrogorsky, History of the Byzantine state, New Brunswick, U.S.A, 1969.

- Rey, Les Colonies Frangues de Syrie aux XII et XIII Siecles, Paris, 1883.

-Stevenson, The Crusades in the East, Beirut, 1968.

-Thompson, A Economic and Social History of the Middle Ages, London, 1928.

- Todd, The Anciant World, London, 1938.

- Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol, I, U.S.A. 1970.

..........., Justin the First, Cambridge, 1950.

-Van Barchem, Corpus inscriptionum, "Jerusalem ville", le Caire, 1922.

- William of Tyre, A History of deeds done beyond the sea, translated by: Emily A.Babcock and A.C.Krey. New York, Columbia University press, 2 vols. 1943.

موضوعات الكتاب

المقدمة ٥-١٢

انطلاقة الفتوحات الإسلامية وخط سيرها ١٣-٤٣

معارك الفتح الإسلامي في منطقة الأردن من جنوب الشام ٤٥-٦٤

التمهيد لمعركة مؤتة في مشارف الشام ٦٥-٨٢

التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج في عهد صلاح الدين

(رؤية من خلال رحلة ابن جبير لبلاد الشام) ٨٣-١٠٤

الإدارة في فلسطين في العصر المملوكي ١٠٥-١٥٢

التجارة في دمشق في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)

(رؤية من خلال تاريخ ابن حجي الحسباني الدمشقي) ١٥٣-١٧٦

بعض أوضاع مصر والشام في عصر سلاطين المماليك كما رآها

ابن خلدون ١٧٧-١٩٩

العلاقات التجارية بين آيلة (العقبة) وعدن في العصر الإسلامي ٢٠١-٢٢٤

الدور العثماني في إبعاد الخطر الأوروبي (البرتغالي) عن البحر الأحمر في

القرن السادس عشر الميلادي ٢٢٥-٢٤٣

عُمان في كتب الجغرافيين العرب ٢٤٥-٢٨٢

المصادر والمراجع ٢٨٣-٢٩٢

فهرس الموضوعات ٢٩٣-٢٩٥

كتب صدرت للمؤلف

١- عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء، عمان، ١٩٧٩م.

٢- التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، طبعة أولى وزارة الثقافة، عمان، ١٩٧٩م، وطبعة ثانية، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.

٣- التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، طبعة أولى وزارة الثقافة، عمان، ١٩٧٩م، وطبعة ثانية دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.

٤- إمارة الكرك الأيوبية، طبعة أولى، منشورات بلدية الكرك، ١٩٨٠م، وطبعة ثانية دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.

٥- غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م.

٦- علماء وفقهاء، محافظة إربد، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٢م.

٧- تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م.

٨- دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م.

٩- أيلة (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتهما التاريخية والاستراتيجية، دار هشام للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ١٩٨٤م.

١٠- الحياة العملية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي، دار هشام للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ١٩٨٤م.

١١- معركة اليرموك، دار هشام للنشر والتوزيع، اربد، الأردن، ١٩٨٥م.

١٢- مدينة اربد في العصر الإسلامي، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦م.

١٣- أضرحة الصحابة في غور الأردن، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦م.

١٤- المساجد الإسلامية القديمة في منطقة عجلون، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦م.

١٥- دليل مدينة اربد، منشورات بلدية اربد، الأردن، ١٩٨٧م.

١٦- الزلازل في بلاد الشام في العصر الإسلامي وأثرها على المعالم العمرانية، دار الفكر، عمان، ١٩٩٠م.

١٧- الحسين بن علي الملك والثائر، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥م.

١٨- معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج... خطاب جديد في العجز الإسلامي والعربي، والمشروع النهضوي العربي الوحدوي، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥م.

١٩- مقامات الصحابة في الأردن، منشورات وزارة الشباب، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.

٢٠- عبد الله بن الحسين الملك المؤسس، منشورات وزارة الشباب، عمان، الأردن، ١٩٩٥م.

٢١- صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م.

٢٢- الأردن وفلسطين وتحديات المشروع النهضوي، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م.

٢٣- في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٠م.

٢٤- الآثار والمواقع السياحية في الأردن، (تحت الطبع).







دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

هاتف ٤٦٢١٩٣٨ فاكس ٤٦٥٤٧٦١

ص.ب ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

